

دوريس ليسنج

الحشائش تغني

روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

تصدر عن مؤسسة دار الهلال

العدد ٤٦٦ اكتوبر ١٩٨٧
صفر ١٤٠٨ هـ
No. 466 OCT. 1987

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

سكرتير التحرير
محمود قاسم

• الاشتراكات •

قيمةالاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا أو مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر أنحاء العالم عشرون دولار بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال . وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

اسعار البيع فى البلاد العربية للاعداد العادية من سلسلة روايات الهلال فئة ٧٥ قرشا للقارىء فى مصر

سوريا ١٨٠٠ ق . س ـ لبنان ١٠٠ ليرة ـ الاردن ٥٠٠ فلس ـ الكويت ٤٠٠ فلس ـ العراق ١٦٠٠ فلس ـ السعودية ٧ ريالات ـ السودان ٢٥٠ ق . سودانيا ـ البحرين ١٢٠٠ فلس ـ الدوحة ٨ ريالات ـ دبى ٨ دراهم ـ أبوظبى ٨ دراهم ـ مسقط ٨٠٠ بيسه ـ تونس ١٦٠٠ مليم ـ المغرب ١٥٠٠ فرنك ـ غزة والضفة ٧٥ سنتا ـ داكار ١٠٠٠ فرنك ـ اليمن الشمالية ١٣ ريالا ـ عدن ١٤٤ سنتا ـ الصومال ١٣٠ بنى ـ لاجوس ١٢٠ بنى ـ ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة ـ لندن ١٥٠ سنتا ـ اثينا ٢٠٠ دراخمه ـ كندا ٥٠٠ سنت ـ البرازيل ٦٠٠ سنت ـ استراليا ٦٠٠ سنت .

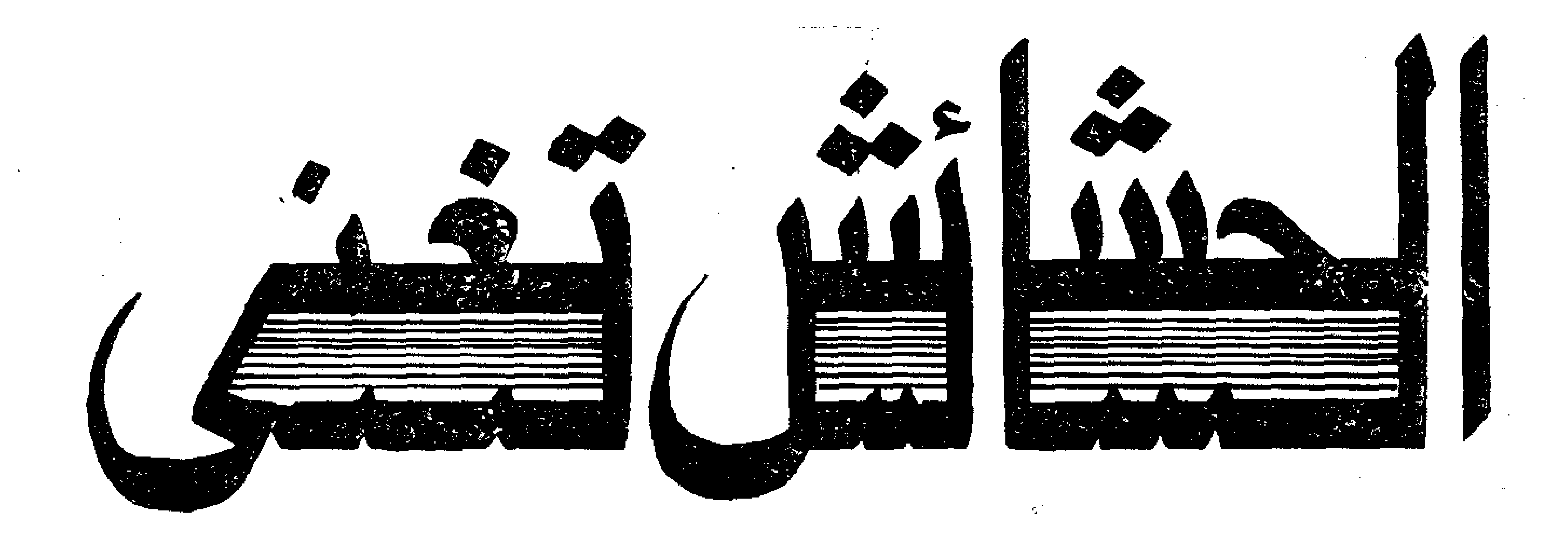
الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب ـ القاهرة
تليفون : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فهمى



للكاتبة

دوريس ليسنج

ترجمة

محمود مسعود

دار الهلال

مقـــدمة

الحشائش تغني فوق القبور الساكنة ..

من هذا البيت الرائع في قصيدة « الارض الخراب » للشـــاعر ت . س اليوت استلهمت الكاتبة الانجليزية دوريس ليسنج عنوان روايتها « الحشائش تغنى » التى تترجم لاول مرة الي اللغة العربية ــ كاملة ــ واذا كانت الكاتبة قد استلهمت عنوان الرواية من القصيدة التى قلبت موازين الشعر الانجليزى الحديث . فانها قد استلهمت احداث الرواية من السنوات الطويلة التى عاشتها فى جنوب أفريقيا حيث أقامت مع أسرتها فى الفترة بين عامى ١٩٢٤ و ١٩٤٩ واذا كانت دوريس ليسنج قد ولدت فى مدينة كرمنشاه ببلاد فارس فى اكتوبر عام ١٩١٩ . فان رحيل اسرتها الي جنوب افريقيا للعمـل بوظيفة فى احد البنوك قد جعل الصغيرة تعرف الكثير من متاعب الزنوج فى جنوب افريقيا . وراحت وهى الكاتبة البيضاء تدافع عن حق هؤلاء السود فى العيش بكرامة فى بلادهم .. وعن متناقضات هذا العالم الغريب قدمت روايتها الاولى « الحشائش تغنى »

فتحت هذه الرواية الابواب للكاتبة ان تصبح ــ فيما بعـد ــ احد أبرز كتــاب عصرها .. ليس فى انجلترا وحدها .. بل فى كافة أنحاء العالم .. وهى ــ منذ سنوات عديدة ــ مرشحة دائمـة الحصول على جائزة نوبل فى الادب . الا أن فوز مواطنها الانجليزى ويليام جولدنج بالجائزة عام ١٩٨٣ قد أخر دورها ربمـــا لبعض الوقت .

واذا كانت دوريس قد سبقت رواية « الحشائش تغنى » ببعض التجارب التى لم تنشر الا أن النقاد لايزآلون يعتبرون روايتها هذه درة أعمالها ، رغم العطاء المتدفق فى الرواية والقصة القصيرة والمسرح وايضا فى مجالات حياتية متعددة منها مناصرة حقوق المرأة . والايمان بالتصوف الاسلامى ..

وقد أثار نشر هذه الرواية ــ عام ١٩٤٩ ــ غضبا شديدا من قبل السلطات العنصرية فى جنوب افريقيا فطلبت من الكاتبة أن ترحـل

عن البلاد التى آثرت ان تعود الى بريطانيا ـ وطن اجدادها ـ واختارتها للاقامة الدائمة . ورغم ان الكاتبة لم تعد قط الى جنوب افريقيا بعد قرار ابعادها عن الاراضي . فقد استلهمت الكثير من مؤلفاتها الاولى من هذا البلد العنصرى فقدمت خماسية « ابناء العنف » التى نشرتها على مدى ثلاثين عاما . والتى تعد بمثابة مسيرة ذاتية عن حياة دوريس ليسنج سواء فى روديسيا أو فى المملكة المتحدة . كما قدمت حول هذا العالم أيضا مجموعة ضخمة من القصص الافريقية نشرت فى عام ١٩٦٥ فى كتاب يحمل أسم « حكايات افريقية » .

وتقول دوريس ليسنج انها لم تصدم برحيلها الى بريطانيا . فقد قوبلت روايتها « الحشائش تغنى » باستحسان ونجاح لدرجة أنها استطاعت أن تعيش ميسورة الحال من عائد هذه الرواية لبعض الوقت .

وقد شهدت حياة دوريس ليسنج الادبية العديد من التحولات . فبعد المرحلة الافريقية ـ كما يسميها النقاد ـ قدمت مسرحية « التيه او كل فى بيدائه » فى أواخر الخمسينيات والتى حاولت فيها أن تضم صوتها الى اصوات أعضاء مسرح الغضب فى انجلترا والذى كان يتزعمه « جون أوسبورن » الا أنها مالبثت أن هجرت المسرح وغضبه بعد أن التقت بالكاتب الامريكى كيرت فونجوت صاحب العديد من الروايات التى تنتمى الى أدب الخيال السياسي ... وابدت اعجابها بما يكتبه .. ونشرت روايتها « مذكرات باق على قيد الحياة » عام ١٩٦٠ حول مدينة أصابها وابل من السماء فمسخت شخوصها وتغلغلت الكوابيس فى جوانبها .

وقد توقفت دوريس ليسنج عن الكتابة بضع سنوات لتتلمذت خلالها على ايدى بعض رجال التصوف المسلمين وقد تأثرت بهذه الاجواء فى رباعيتها التى نشرتها بين عامى ١٩٧٦ و ١٩٨٣ والتى اطلقت عليها أسم « رباعية الفضاء الميتافيزيقية » . ومن بين أجزائها « البطاقة الذهبية » و « شيكاستا أو الارض الخراب » و « الزواج بين المناطق ٣ ، ٤ ، ٥ » وفى عام ١٩٨٤ أحدثت السيدة ليسنج ضجة اعلامية كبرى حين ارسلت فتاة ذات اسم مجهول تحمل مخطوط أحدث رواية لها الى دار نشر وطلبت منها أن تضع اسمها على الرواية

.. فما كان من الناشر الا ان رفض الكتاب بحجة ان مؤلفتـه لاتزال مبتدئة .. وكانت الفضيحة .

اما أحدث كتاب نشر للكاتبة فى العام الماضى فهو « امـــرأة ارهابية » ..

والمتتبع لانتاج دوريس ليسنج سوف يلاحظ أن هناك عالما مميزا للمرأة . لذا أصبحت نساء رواياتها رمزاً لما تعانيه المرأة دائما .. هذه المرأة التى تطحنها ظروفها الاجتماعية .. وتطحنهـا سـيادة الرجل وفحولته . ومن أبرز هؤلاء النسوة مارى تيرنر بطلة رواية « الحشائش تغنى » التى تساق الى قدرها فى مزرعتها الفقيرة مثلما يساق القربان الى المحراب فى المعابد القديمة .. عليها أن تدفع ثمنا لقوانين اجتماعية صدئة قاسية — أما مارتاكويست بطلة خماسـية « ابناء العنف » فهى تعيش داخل صراعات أيديولوجية متعددة . اما الملكة الباشا فى رواية « الزواج بين المناطق ٣ ، ٤ ، ٥ » فهى تمتثل لاوامر الالهة بان تتزوج رجلا يتسم بالفحولة والبدائية رغم أنها المرأة المتحضرة السامية المشاعر . ثم تعود لاطاعة الاوامر مرة أخرى حين توافق على أن يتزوج « عطا » من امرأة أخرى عملا على زيادة النسل فى كوكب حزين مهدد بالخراب ..

وحول موقفها من قضايا تحرير المرأة تقول دوريس ليســنج : « لا يرجع ارتباطى بحركة تحرير المرأة الى عام ١٩٦٠ حين كتبـت « البطاقة الذهبية » .. فانا لى أفكارى اليسارية قبل ذلك . وفى اليسار يعتبرون موقف المرأة موضوع مناقشة لاينتهى ..

وترى ليسنج .. من خلال احدى شخصياتها النسائية — انه عندما ستكسب المرأة الاشتراكية فعلينا أن نصنع ثورة جديدة ضد الرجال.

اما عن رواية « الحشائش تغنى » فقد أعيدت طباعتها منذ اربع سنوات من جديد لتواكب الاحداث الساخنة التى تدور فى جنـوب افريقيا . وقامت السينما البريطانية بالاشتراك مع بعض الـــدول الافريقية بانتاجها فى فيلم سينمائى ضخم — عرض فى مهـــرجان القاهرة عام ١٩٨٤ — من اخراج مايكل ريبورن وبطولة الممثلة الامريكية المعروفة كارين بلاك التى جسدت شخصية مارى تيرنر . وقد التزم الفيلم التزاما كاملا بالنص الروائى .. وذلك حسبما يقول المخـرج انه قد خاف من أن يفقد الفيلم الجاذبية التى تتمتع بها الرواية .

« جريمة قتل غامضة »
« لمراسل خاص »

« عثر على ماري تيرنر ، زوجة ريتشارد تيرنر وهو »
« مزارع في منطقة نجيزى ، مقتولة فى الشرفة الامامية »
« بمنزلهما فى المزرعة صباح أمس . وقد تم القبض »
« على خادمهما الذى اعترف بارتكاب الجريمة . ولم يكتشف »
« بعد الدافع لاقترافها ، وان كان المظنون أن الفاعل »
« كان يسعى لاستلاب بعض الغنائم الثمينة »

★★★

ان الصحيفة التى نشرت هذا الخبر لم تذكر مزيدا من التفاصيل ... ولابد أن كل الناس فى كافة أرجاء الاقليم قد القوا نظرة على هذه النبذة بعنوانها المثير ولم يخامرهم سوى هزة غضب يسير يمازجها احساس أقرب الى الارتياح ، وكأنما تحقق عندهم ماكانوا يعتقدونه ، وكأن ماوقع لم يكن الا شيئا كانوا يتوقعونه .. اذ انه عندما يقدم الاهالى على السرقة أو القتل أو الاغتصاب ، يكون هذا احساس السكان من الجنس الابيض ..

وبعدئذ يقلبون صفحة الجريدة الى شيء آخر ..

بيد أن سكان « المنطقة » ممن كانوا يعرفون أسرة تيرنر سواء بالمشاهدة أو من خلال ماتلوكه الالسن عنها على مدار الاعوام الطوال — لم يقلبوا الصفحة بمثل هذه السرعة — فلابد أن الكثيرين منهم قد اقتطعوا النبذة المنشورة فى الصحيفة ودسوها بين رسائلهم القديمة أو بين صفحات كتاب ، محتفظين بها ربما كفأل او نذير ، لكى ينظروا فيما بعد الى ورقها المصفر بأعين مغمضة متدثرة ، فى الخفاء .. ذلك أنهم لم يتناقشوا فى امر هذه الجريمة ، وهو مايعد أكثر الامور غرابة .. فكأنما كانت لديهم حاسة سادسة نبأتهم بكل ماينبغى ان يعرفوه ، وان كان الافراد الثلاثة الذين هيأت لهم ظروفهم معرفة الحقائق وامكانية شرحها لم يقولوا شيئا .. هكذا لم يعمد احد الى مناقشة هذه الجريمة .. ولو قال قائل :

« انه حادث سيء » لعلت وجوه القريبين منه تلك النظـرة المتحفظة الحذرة ، وكان الرد لا يجاوز هذه الكلمات : « هو حادث سيء جدا » ـ ويكون في هذا القول الفصل .. ويبدو أنه كان ثمـــة اتفاق صامت على أن قضية تيرنر لاينبغي ان تعطى استفاضة وذيوعا لامبرر لهما عن طريق الثرثرة والاقاويل المتواترة .. وعلى الرغم من هذا كله ، فان الاقليم كان اقليما زراعيا ، حيث لاتتلاقى فيه تلك الاسر البيضاء المنعزلة بعضها عن بعض الا على فترات متبـــاعدة وهم في ظمأ للاتصال بأبناء جلدتهم ، يتبادلون الاحاديث ويتناقشون في كل شيء ، ويتناولون بالتشريح والتحليل شتى الاحداث ، متكلمين كلهم في وقت واحد ، مستغلين لقاء ساعة أو نحوها قبل عودتهم الى مزارعهم حيث لايشاهدون سوى وجوههم ووجوه خـــدمهم الزنوج على مدار الاسابيع بلا انقطاع .. فالطبيعي اذن أن تكون هذه الجريمة مناط النقاش مدى شهور متعاقبة ، وأن يغـدو الناس شاكرين ممتنين لطروء شيء يتحدثون عنه ويخوضون فيه ..

وقد يبدو في نظر الغريب عن الاقليم ان شخصا مثل تشارلي سلاتر المليء بالنشاط والحيوية قد تنقل من مزرعة الى مـــزرعة يطلب الى الناس أن يلتزموا الصمت والهدوء .. ولكن كان ذلك شيئا ابعد عن تفكيره .. فان الخطوات التى اتخذها « ومثله لايصدر عنه أي عمل خاطيء » كانت من وحي الغريزة ودونمـــا تخطيط واع .. والواقع ان أطرف شيء في الموضوع كله هو ذلك التوافق الصامت اللاواعي ، الذي كان فيه كل فرد يتصرف مثل سرب من الطيور التى تتواصل بعضها ببعض عن طريق نوع من التخاطر ..

ومنذ وقت طويل قبل ان يرتفع الستار عن جريمة القتل وتسلط الاضواء على اسرة تيرنر ، كانت الالسنة تتحدث عن الاسرة بأسلوب الاستنكار والتجريح وكأن أفرادها من المنبوذين والشواذ . والواقع انهم لم يظفروا بمحبة الناس ، على الرغم من ان القليلين من الجيران التقوا بهم أو شاهدوهم حتى على البعد . لكن ما الذى كان يدعو الى مثل هذا النفور ؟ كل ماهناك أن آل تيرنر كانوا يؤثرون العزلة . فلم يشاهدهم احد قط في حفلات الاقليم الراقصة او اجتماعات السمر او المسابقات الرياضية .. ولابد انه كان في حياتهم مايخجلون منه ــ كان ذلك هو الاحساس العام .. بل كان بمثابة لطمة في وجه المجتمع .. خصوصا حياتهم المنعزلة في مثل ذلك البيت الذى

يقطنون فيه وهو اقرب الى صندوق ! .. كان يغتفر لهم هذا لو كانت اقامتهم فيه مؤقتة ، وليست دائمة !.. وياللعجب !.. ان بعض الاهالى انفسهم « وان لم يكونوا كثيرين لحسن الحظ » كانوا يسكنون فى بيوت مماثلة ، وأى انطباع يكون لديهم اذا شاهدوا اناسا من البيض يسكنون مثلهم هكذا !..

ثم هناك من الناس من استخدم عبارة « البيض المساكين » وهو وصف أثار القلق فى النفوس .. ففى تلك الايام لم تكن ثمة فرص لجمع الثروات واكتناز الاموال « وذلك قبل عهد أباطرة مزارع التبغ » ، ولكن كان ثمة تفرقة عنصرية .. كانت الجالية الصغيرة ممن يطلق عليهم الافريقان » ــ وهم أهل الجنوب الافريقى من أصل أوربى ــ كانت تعيش حياتها الخاصة ، وكان البريطانيون يتجاهلونهم .. كان « البيض المساكين » هم « الافريقان » ،وماهم قط بريطانيين .. بيد أن من وصف آل تيرنر بأنهم من « البيض المساكين » تمسك بهذا الوصف فى عناد واصرار .. وما هو الفارق ؟ وماهو بديل « البيض المساكين » ؟ كان الفارق يكمن فى اسلوب الحياة ونمط المعيشة ، وما كان آل تيرنر بحاجة الا الى كثرة من الاطفال وتزايد فى الانجاب لكى ينطبق عليهم ذلك الوصف تماما ! ..

ومع ذلك ، وبرغم هذه النعوت التى كانت تلوكها بعض الالسنة ، فان آل تيرنر كانوا من البريطانيين مافى ذلك شك .

هكذا كان اهل الاقليم يعاملون آل تيرنر وفقا لناموس العصبية ، وهو اول قاعدة فى مجتمع الجنوب الافريقى ، وان كان آل تيرنر قد تجاهلوه تماما .. وهذا هو ماجعلهم محلا للكراهية ..

والواقع انه كلما فكر الانسان فى هذا ، كلما بدت له القضية اكثر غرابة .. لا من ناحية جريمة القتل ذاتها ، ولكن من ناحية مشاعر الناس حيالها ــ تلك المشاعر التى تجلت فى رثائهم لحال ديك تيرنر وغضبهم العنيف ضد مارى ، وكأنها كائن منفر وملتاث ، فكان القتل لها جزاء وفاقا !.. وعلى الرغم من هذا فانهم لاذوا بالصمت ولم ينحازوا الى السؤال والاستقصاء ..

وعلى سبيل المثال ، لابد أنهم راحوا يتساءلون من هو ذلك « المراسل الخاص » الذى بعث بالنبأ الى الصحيفة .. لابد أنه شخص فى الاقليم ، لان النبذة التى نشرت لم تكن تتضمن طابع

الاسلوب الصحفى .. لكن من هو ؟.. ان مارستون ، مساعد المزرعة ، قد بادر بالرحيل عن الاقليم عقب الجريمة مباشرة .. ربما كان دنهام ضابط الشرطة هو الذى كتب الى الصحيفة بصفته الشخصية ، وان لم يكن هذا محتملا .. بقى اذن تشارلى سلاتر ، وهو الذى يعرف من أحوال آل تيرنر أكثر مما يعرفه احد آخر ، وكان فى مسرح الجريمة يوم حدوثها .. ومن الممكن ان يقول الانسان انه راح يشرف عمليا على معالجة القضية ، بل انه كانت له الاسبقية على الضابط ذاته .. وكان شعور الناس هو ان هذا شىء جد سليم وملائم .. والا فمن ذا الذى يحفل ويهتم ، غير المزارعين البيض ، اذا استجلبت امرأة حمقاء على نفسها القتل على يد رجل من الاهالى لاسباب وبواعث قد يفكر فيها الناس ، ولكنهم ابدا لا يذكرونها ولا يفصحون عنها قط ؟.. فذلك طابع حياتهم ، ولهم أسر وزوجات ، والخطر ماثل من حولهم ..

ولكن الأجنبى عن الاقليم قد يستغرب ان يباح لتشارلى سلاتر ان يتولى زمام الاشراف على القضية ، وان يعمل على ان يمر كل شىء بأدنى قدر من التعقيب والبيان .. وقد يسأل سائل لماذا عمد سلاتر حينما حمل اليه عمال المزرعة نبأ الجريمة ، الى تسطير رسالة الى الضابط فى مركز الشرطة بدلا من استخدام التليفون ؟ .. ومع ذلك فان كل من عاش فى الاقليم كان يعرف ماهو حال التليفون هناك .. فالانسان يرفع السماعة بعد ادارة المقبض مرات عديدة فلا يسمع الا طقطقة تسرى فى كافة السماعات ، مصحوبة بأنفاس تتردد ، وحفيف اصوات ، وسعال مكتوم !..

كان سلاتر يقيم على بعد خمسة أميال من مزرعة تيرنر .. وقد هرع اليه عمال المزرعة عندما اكتشفوا الجثة .. وعلى الرغم من خطورة الحادث فقد تجاهل سلاتر التليفون ، وبعث برسالة شخصية مع احد الاهالى على دراجة الى الضابط دنهام فى مركز الشرطة على بعد اثنى عشر ميلا .. فبادر الضابط بايفاد ستة من افراد الشرطة الوطنيين الى مزرعة تيرنر ، للبحث عما يمكن ان يعثروا عليه .. وعرج الضابط بسيارته على مقر سلاتر اولا ، اذ ان اسلوب صياغة الرسالة أثار فضوله ، وكان ذلك هو سبب وصوله الى مسرح الجريمة متأخرا ..

ولم يضطر أفراد الشرطة الزنوج الى البحث بعيدا عن القاتل ..

فبعد القاء نظرة عامة على الجثة ، وتفقد المكان امام الربوة الصغيرة التى يقوم عليها المنزل ـ شاهدوا موسى ذاته ينهض من بين دغل من الاغصان الجافة فى مواجهتهم مباشرة .. وقد تقدم اليهم مستسلما .. فوضعوا القيود حول يديه ، ثم عادوا الى المنزل فى انتظار وصول سيارات الشرطة .. وهناك ابصروا ديك تيرنر يخرج من خلف الشجيرات الكثيفة قرب المنزل وفى أعقابه كلبان ينبحان .. كان مذهوب العقل ، يكلم نفسه بجنون ، هائما على وجهه بين الشجيرات جيئة وذهابا ويداه مليئتان بأوراق الشجر وتربة الارض .. ولكنهم تركوه طليق السراح مع مراقبته عن كثب فهو رجل ابيض ، وان كانت به جنة ، والزنوج لا يضعون أيديهم على الرجال البيض حتى ولو كانوا من افراد الشرطة ..

وقد تساءل الناس بفضول لماذا استسلم القاتل طواعية ... صحيح انه لم تكن ثمة فرصة كبيرة للهروب ، ولكن كانت الفرصة متاحة فعلا .. اذ كان بوسعه ان يهرب الى التلال ويختفى الى حين او كان يستطيع التسلل عبر الحدود الى المستعمرات البرتغالية .. بيد ان العالمين بتاريخ الاقليم يعرفون التفسير الشافى ـ خصوصا أولئك الذين اطلعوا على مذكرات ورسائل رجال الارساليات التبشيرية والمستكشفين الاوائل ، عن الاحوال فى المناطق التى يحكمها الملك لونجولا .. كانت القوانين صارمة .. وكل انسان كان يعرف مايمكنهم ان يفعلوه .. فاذا اقترف احد شيئا لايغتفر ، مثل ملامسة احدى نساء الملك ، عوقب عقابا ذريعا لامنجاة منه ولا عاصم ، وهو وضعه فوق « خازوق » على ربوة عالية .. وله ان يقول قبل انزال العقاب به : « اننى ارتكبت عملا خاطئا ، وانا اقر بهذا .. وعلى هذا فلينزل بى العقاب ..

وعلى اية حال فان تشارلى سلاتر حالما بعث بالاخطار المكتوب الى مركز الشرطة ، قصد الى مقر آل تيرنر ، مسرعا بسيارته الامريكية الكبيرة فى الطرقات الزراعية الوعرة ..

من يكون تشارلى سلاتر ؟.. هو القاسم المشترك الاعظم فى مأساة آل تيرنر ، من البداية الى النهاية .. انه يتجسم فى القصة طوال سياقها .. وبدونه كان يمكن الا تتطور الامور على النحو الذى تطورت اليه ، وان كان مقضيا أن ينكب آل تيرنر بما نكبوا به ، طال الزمان او قصر ، وعلى هذا الوجه او ذاك ..

كان سلاتر يعمل فى لندن مساعدا فى محل بقالة .. وكان

يجد لذة في ان يقول لاطفاله انه لولا وفرة نشاطه وسعة حيلته وجسارته لبقوا يتقلبون في أزقة لندن واحيائها الفقيرة في ملابس رثة وخرق بالية .. وقد ظلت طباع بيئته تلك تلازمه حتى بعد ان قضي عشرين عاما في افريقيا .. لقد هبط أليها تستحوذ عليه فكرة واحدة لا ثانية لها ، وهي ان يجمع ثروة .. وقد وفق في هذا ، وجمع مالا وفيرا .. وكان بفطرته رجلا فظا غليظ القلب ادنى الى القسوة وابعد عن الرحمة .. وكان يباشر الزراعة وكأنه يدير ذراع آلة تخرج له أوراق النقد من طرفها الآخر .. وكان قاسيا مع زوجته ، وكم عرضها لمشاق لا ضرورة لها في البداية .. وكان قاسيا مع اطفاله ، الى أن جمع ماله المنشود ، وبعدها أباح لهم كل مايشتهون .. وكان فوق كل شيء قاسيا مع العمال الاجراء في مزرعته .. كانوا وهم الاوز الذى يبيض له البيض الذهبى ، لا يزالون في تلك المرحلة التى لم يكونوا يعرفوا فيها ان هناك أنماطا اخرى للعيش غير انتاج بيض من ذهب للغير .. أنهم الآن قد عرفوا هذا ، وهم بسبيل هذه المعرفة ، ولكن سلاتر كان يؤمن بالزراعة المقترنة بالكرباج .. لقد علق على بابه الامامي ، وكان شعاره المعلن الذى يقول : « لن اتردد في القتل اذا لزم الامر » .. بل انه قتل عاملا من الاهالى ذات مرة في سورة غضب .. وكان جزاؤه غرامة قدرها ثلاثون جنيها .. ومنذ تلك المناسبة التزم كبح جماح غضبه .. ولكن الكرابيج أدوات طيعة في عرف آل سلاتر ، وان لم تكن كذلك في نظر أولئك الذين هم أقل منهم عزما .. وكان سلاتر هو الذى أخبر ديك تيرنر منذ عهد بعيد ، عندما ابتدأ ديك في ادارة مزرعته ، أن على المرء ان يشترى الكرباج قبل المحراث او المسحاة ، وان كان ذلك الكرباج لم يثمر خيرا لآل تيرنر ، كما سنرى ...

وكان سلاتر في تكوينه الجسدى رجلا قوى البنية ، عريض المنكبين ، ادنى الى القصر ، مفتول الذراعين ، تنم سمات وجهه عن الدهاء والمكر المقترنين بالحذر .. وكانت تعلوها منه خصلة شعر كثيف اشقر جعلت صورته اقرب الى سجين محكوم عليه .. بيد انه لم يكن ممن يبالون بالمظاهر .. وكانت عيناه الصغيرتان الزرقاوان لا تكادان تلوحان في وجهه بسبب طول تقطيبهما نتيجة للاعوام المتعاقبة في وهج شمس افريقيا الجنوبية ..

ولم يتمالك وهو يكاد يحتضن عجلة القيادة لفرط تعجله الوصول

الى بيت آل تيرنر ان راح يتساءل : كيف ان مارستون الذى كان رغم كل شيء موظفا عنده لم يحضر اليه للابلاغ عن الجريمة ، او على الاقل لم يبعث برسالة ..؟ فاين هو ؟.. ان الكشك الذى يسكنه لا يبعد أكثر من مائتى ياردة عن البيت ذاته .. لعله ارتعب من الموقف وهرب ؟.. ان كل شيء جائز من جانب هذا الطراز من الشباب الانجليزى ، كما فكر سلاتر .. كان يكن فى أعماقه احتقارا لبنى جلدته من الانجليز ذوى الوجوه الناعمة والاصوات المسترخية ممتزجا بالبهر من تربيتهم وسلوكهم .. ان ابناءه ، اولئك الذين شبوا الان وترعرعوا ، كانوا فى عداد « الجنتلمان » .. فهو قد انفق مالا كثيرا لكى يصبحوا هكذا .. بيد أنه كان يحتقرهم كذلك لنفس السبب .. ولكنه فى نفس الوقت كان فخورا بهم .. وهذا التناقض قد تجلى فى مسلكه حيال مارستون .. فسلك نصفه جفوة ولا مبالاة ، ونصفه احترام خفى .. اما فى لحظته الراهنة فلم يخامره سوى شعور الاستياء والمضض ...

ولم يلبث وهو فى منتصف الطريق أن شعر بالسيارة تهتز فتوقف .. فقد حدثت ثقوب فى أحدى العجلات ، بل فى عجلتين .. ووجد شظايا زجاج مكسور متناثرة فى الوحل الاحمر فى الطريق .. ولم يتمالك أن نفس عن استيائه بهذه الخاطرة اللاواعية « ليس غريبا على آل تيرنر ان يتناثر الزجاج المحطم فى طريق دارهم ! » .. وحين فكر أن تيرنر ذاته هو الآن أجدر بالرثاء والعطف لما أصبح فيه ، تركز استياؤه على مارستون ، مساعد المزرعة ، ذلك الذى راى سلاتر انه كان عليه ان يمنع وقوع الجريمة على نحو ما .. والا فما الفائدة من استخدامه ودفع أجره ؟.. ومع ذلك فان سلاتر ينبغى أن يكون منصفا ، خصوصا فيما يتعلق بأفراد من بنى جلدته .. هكذا تمالك مشاعره ، ونزل من السيارة لأصلح ثقبا فى احدى العجلتين وابدل اطار الثانية متجشما عناء الوحل المحمر ، حتى استغرقت منه هذه العملية ثلاثة أرباع الساعة ... وما ان فرغ فى النهاية والقى حطام الزجاج فى الغابة حتى كان العرق يغمر وجهه وشعره ..

وعندما وصل الى البيت فى النهاية ابصر وهو يقترب من خلال الشجيرات ست دراجات لامعة مسندة الى الحوائط .. ووقف تحت الاشجار امام المنزل ستة من أفراد الشرطة الوطنيين وبينهم موسى الزنجى ويداه مقيدتان امامه .. وكانت الشمس تبرق فوق

القيد الحديدى وفوق الدراجات وفوق أوراق الشجر المتكاثفة ..
كان هذا الصباح شديد الحرارة والرطوبة ، والسماء ملبدة بسحب مثقلة بنذر المطر ...

وتقدم سلاتر نحو أفراد الشرطة الذين بادروه بالتحية .. كانوا مطربشين لابسين زيا رسميا اقرب الى الملابس التنكرية ، وهو مالم يكن سلاتر يحبه ، اذ كان يفضل ان يرتدى عماله من الزنوج المئزر الوطنى .. وكان أفراد الشرطة الذين يختارون بعناية من ذوى اللياقة الموفورة يبدون فى تناسق بدنى طيب ، ولكنهم كانوا أدنى من موسى بكثير ، أذ كان شابا ماردا هرقليا ، وكان فاحما مصقولا كالابنوس ، مرتديا قميصا و « شورتا » يعلوهما بلل الرطوبة والوحل ...

ووقف تشارلى أمام القاتل مواجهة وراح يتفرس فى وجهه .. فرد الشاب تحديقه بمثله فى غير مبالاة ودون أن تنم عيناه عن شيء .. كانت نظرات سلاتر تشف عن التشفى والشماتة ، وان مازجها خوف مستتر .. لكن فيم الخوف ؟.. من موسى الذى كان فى حكم المحكوم عليه بالاعدام شنقا ؟.. غير أنه كان فى دخيلته يشعر بقلق واضطراب ، ثم مالبث ان نفض هذا الاحساس متمالكا نفسه ، والتفت فوقع نظره على ديك تيرنر الذى وقف على بعد خطوات قلائل ، ملطخا بالوحل ..

قال له سلاتر بلهجة الأمر : تيرنر ! ..

نظر ديك اليه ، وبدا أنه لايعرفه .. فامسك تشارلى بذراعه وجذبه نحو سيارته .. لم يكن وقتها يعرف أن الرجل قد أصيب بلوثة جنون لا شفاء منها .. وبعد آن أجلسه فى مقعد السيارة الخلفى دلف الى داخل المنزل .. فألفى مارستون واقفا فى الغرفة الامامية ويداه فى جيوبه وقفة الهدوء اللامبالى ، غير أنه بدا شاحب الوجه ظاهر الأجهاد ..

قال له تشارلي من فوره بلهجة الاتهام :

ـ أين كنت ؟ ..

فأجاب الشاب بهدوء :

ـ أن مستر تيرنر كان يوقظنى فى العادة .. ولكننى فى هذا الصباح نمت متأخرا .. وعندما دخلت الى المنزل وجدت مستر تيرنر ملقاة في الشرفة .. وبعد ذلك جاء أفراد الشرطة .. وبقيت انتظر حضورك ..

ولكن الشاب بدا فى حالة تخوف .. كان الخوف من المـوت هو الذى لابس نبرات صوته ، لا مثل الخوف الذى كان يشـيع فى تصرفات تشارلى ، لان الشاب لم يقم فى هذه البلاد المدة الطويلة التى تهيىء له ان يفهم سر خوف سلاتر الدقيق ...

فمغم تشارلى آستياء .. اذ كان لا يتكلم الا عند الضرورة ، وجعل ينظر الى مارستون طويلا فى استغراب ، وكأنما يريد ان يستخبر لماذا لم يتجه عمال المزرعة لاستدعاء رجل كان نائما على بعد ياردات قليلة من المنزل ، ولكنهم اتجهوا بوحي الغريزة لاستدعائه هـو شخصيا .. وعلى أية حال فان نظراته الى مارستون الان لم تكن مشوبة بالنفور أو الاحتقار .. كانت نظرات رجل الى شاب يحتمل أن يغدو شريكا له فى العمل اذا هو برهن على جدارته ..

وانثنى تشارلى ودخل الى غرفة النوم .. كانت مارى تيرنر جسدا متصلبا تحت ملاءة بيضاء متسخة .. وبرزت من أحـد طرفى الملاءة كتلة من شعر أصفر كالقش ، ومن الطرف الثانى قدم باهتة عجفاء .. ثم حدث الان شيء غريب .. فان الكراهية والاحتقار اللذين كانا من المتوقع أن يرتسما على وجهه عند نظره الى القاتل ، قد مسخا الان ملامح وجهه وهو يحدق فى مارى .. لقد قطب جبينه ، وزم شفتيه عاضا على أسنانه حتى كا نلتقلص سحنته طابع شرير .. ولولا انه وقف مديرا ظهره نحو مارستون لدهش الشاب لرؤيته على هذه الحال .. ثم لم يلبث تشارلى ان آستدار بحركة حادث غاضبة وغادر الغرفة ، دافعا الشاب أمامه ..

قال مارستون : كانت ممددة فى الشرفة .. فرفعتهـا الى الفراش .

وارتعد الشاب لذكرى ملمس الجسد البارد ، ومضى يقول :

ـ ... فقد بدا لى انه لاينبغى أن تبقى ملقاة على هـذه الصورة ..

وتردد برهة ، ثم اردف قائلا وعضلات وجهه تختلج :

ـ كان الكلبان يلعقان جسدها ..

اوما تشارلى براسه وهو يرمق الشاب بنظرة حادة ، فما كان يهمه أن تكون القتيلة فى أى موضع .. وفى نفس الوقت حمـد للشاب رباطة جاشه اذ قام بهذه المهمة الكريهة ..

واستطرد مارستون قائلا :

ـ كان الدم فى كل موضع .. فقمت بتنظيفه .. ثم خطر فيما

بعد انه كان يجب على ان اتركه للبوليس ..

فقال تشارلى سارحا : لا غرابة فيما فعلت ..

وجلس على احد الكراسى الخشبية الخشنة فى الغرفة الامامية ولبث مستغرقا فى التفكير وهو يصفر بخفوت من خلال أسنانه الامامية .. ووقف مارستون لدى النافذة ينتظر وصول سيارة الشرطة .. وبين فينة واخرى كان تشارلى يدير نظره حول الغرفة فى تحرز ، مجيلا لسانه على شفتيه .. وما عتم أن عاد الى التصفير الخافت ، الذى ثقل على أعصاب الشاب ..

واخيرا قال تشارلى بحذر ، وفى شبه نذير :

ــ ماذا تعرف عن هذا الحادث ؟..

استغرب مارستون لهجة تشارلى ، وتساءل فى نفسه ما الذى يعرفه هذا الرجل ذاته ؟.. كان متمالكا أعصابه ، وان احس بها متوترة .. وقد رد قائلا :

ــ لا اعرف .. لا شيء فى الواقع .. الموقف كله يبدو صعبا ..

وامسك مترددا وهو يتطلع الى تشارلى على نحو أقرب الى الاستعطاف ...

ان نظرة الاستعطاف اللينة هذه ضايقت تشارلى لصدورها عن رجل ، بيد انها سرته كذلك : فقد سره أن الشاب فى وجل منه .. انه ليعرف هذا الطراز من الشباب حق المعرفة .. كثيرون منهم جاءوا من انجلترا لتعلم الزراعة .. وكانوا عادة من خريجى المدارس العامة ، متعلقين بانجليزيتهم ، ولكنهم قابلون للتكيف الى حد بعيد ... وهذا التكيف فى نظر تشارلى يصلح من شأنهم ويقيل عثارهم .. وكان من الغريب ان يرى المرء بأية سرعة كانوا يعتادون هذا التطور الجديد ، ويندمجون فى هذه البيئة التى يألفوها من قبل ..

وعندما كان المستوطنون القدامى يقولون : « على الانسان أن يفهم هذه البلاد » ــ فانما كانوا يعنون « أن عليك أن تتعود على أفكارنا تجاه الأهالى » ... كانوا يقولون واقعا : « تعلم افكارنا وتشرب آراءنا والا فارحل عن هنا .. نحن لا نريدك بيننا » .. كان معظم هؤلاء الشبان الوافدين قد تربوا ونشئوا على أفكار مبهمة عن المساواة .. وبعد انقضاء اسبوع أو نحوه كانوا يصدمون بأسلوب معاملة الاهالى .. كانوا يشمئزون مئات المرات كل يوم من الأسلوب المستخف المهين

الذى يتحدث به المستوطنون عنهم ، وكأنهم قطعان من الماشية ، ناهيك بما يتعرضون له من ضرب او أذى .. كان أولئك الشبان على استعداد لمعاملة الاهالى لمخلوقات آدمية .. بيد أنهم لم يكونوا يستطيعون ان يقفوا فى مواجهة المجتمع الذى جاءوا ينضمون اليه وينخرطون فيه .. ثم لاينقضى وقت طويل حتى يصيبهم التغيير .. واذا هذا الشباب المهذب قد غلظت حواسه لتتكيف مع هذه البيئة القاسية القائظة التى جاءوا اليها .. وفى النهاية يحتذون اسلوبا جديدا فى معاملة الاهالى يضاهى مااستهدفوا له من وقدة الحر وتصلب الاجساد .

ولو أن مارستون قد اقام بضعة شهور اخرى فى البلاد لهان الامر ، كما كان تقدير تشارلى .. ومن اجل هذا كان يتطلع الى الشاب عابسا مستخبرا ، لا نظرة تحامل ولا ادانة ، ولكن نظرة الحذر والترقب ..

قال له تشارلي : ماذا تعنى بقولك ان الموقف كله يبدو صعبا ؟..

بدأ تونى مارستون محرجا متململا كأنما لا يستقر على رأى يأخذ به ويعرب عنه .. والواقع ان هذا كان حاله .. ان الاسابيع التى أمضاها فى جوار آل تيرنر بجوها المأساوى لم تكن مما يساعده على التماس تفكير سليم .. كان أمام معيارين ، احدهما الذى جاء به وثانيهما الذى تبناه ، مازالا يتصارعان فى دخيلته ... ثم هو قد آنس الآن فى لهجة تشارلى تحذيرا اثار التساؤل والعجب فى نفسه .. فما هذا الذى يحذره منه ؟.. كان الموقف كله غير عادى .. فأين رجال الشرطة ؟.. وبأى حق استدعى تشارلى وهو جار ، قبله هو ، مع أنه فى الواقع فرد من افراد البيت ذاته ؟ ... ولماذا كان تشارلى يمسك بزمام الموقف بهذا الهدوء ؟ ..

ان افكاره عن الحق والصواب قد اضطربت موازينها .. كان فى حالة تشوش فكرى .. ومع ذلك كانت له أفكاره الخاصةعن الجريمة ، تلك التى لايمكنه ان يصرح بها مباشرة ، هكذا ، وببساطة ... وعندما أخذ يعيد التفكير فى الموقف ، بدت له الجريمة منطقية بدرجة كافية .. وباستعراض ما سلف فى الايام القلائل الماضية ، كان بوسعه ان يرى أن شيئا كهذا كان لابد ان يحدث ، بل انه ليكاد يقول انه كان يتوقع حدوثه ، على نحو عنيف عاصف .. ان الغضب والعنف ، والموت ــ بدا كل هذا طبيعيا فى هذا البلد الشاسع

القاسي .. انه جعل يفكر كثيرا منذ ان جاء عفوا الى البيت في هذا الصباح ، متعجبا من ذلك التأخير الذى آنسه من الجميع ، لـكى يجد مارى تيرنر ملقاة مقتولة فى الشرفة ، وأفـراد الشرطـة فى الخارج يحرسون خادم البيت ، وديك تيرنر هائما على وجهه مجنونا وان كان جنونه فى الظاهر غير خطر .. ان الظواهر التى لم يكن فهمها من قبل ، قد فهمها الان ، وهو على استعداد للكلام عنها .. بيد انه كان فى جهل من اتجاه تشارلى .. ان حواليه شـيئا لم يستطع ان ينفذ الى كنهه ..

راح يقول فى النهاية ردا على تشارلى :

ـ المسألة هكذا .. اننى عندما وصلت الى هنا لاول مرة ، لم اكن اعرف كثيرا عن البلد ..

فقال تشارلى بتهكم بالغ القسوة :

ـ شكرا عن هذا الايضاح ...

ثم اردف على الاثر :

ـ هل عندك اية فكرة . لماذا قتل هذا الزنجى مسز تيرنر ؟..

ـ حسن ... عندى فكرة ما .. نعم ..

ـ الافضل أن نترك الامر للضابط اذن ، عندما يصل ..

كان هذا بمثابة صد له عن الكلام ، والجام فمه .. وهكذا امسك تونى لسانه ، غاضبا ، ولكن متحيرا ..

ـ وعندما جاء الضابط وقف برهة يتطلع الى القاتل ، ثم ألقى نظرة على ديك من خلال نافذة سيارة سلاتر ، وبعدها دخـل الى المنزل .. وقال مخاطبا تشارلى :

ـ اننى ذهبت الى مزرعتك ياسلاتر ...

وفى نفس الوقت اوما براسه الى تونى وهو يرمقه بنظرة حادة ... ثم أنتقل الى غرفة النوم .. كانت انطباعاته مماثلة لانطباعات سلاتر : الكراهية والحقد تجاه القاتل ، والرثاء لديك ، والاحتقـار المشوب بالغضب والمرارة حيال مارى ...

كان الضابط دنهام قد امضى فى البلاد سنين عديدة .. وحين لمح تونى التعبير المرتسم على وجهه احس بصدمة .. بل أن وجهى الرجلين وهما واقفان يحدقان فى الجثة جعلاه يشعر بالقلق ، وحتى بالخوف .. انه هو نفسه كان يخامره اشمئزاز يسير .. لـكن

ذلك لم يكن شعوره الغالب .. وانما كان تأثره ورثاؤه وهو يعرف ماعرفه ..

ومالبث الرجال الثلاثة ان انتقلوا الى غرفة الجلوس صامتين ... وقد وقف تشارلى سلاتر والضابط دنهام جنبا لجنب مثل قاضيين وكأنما قد أتخذا هذا الموقف عن عمد .. ووقف تونى فى مواجهتهما .. وكان رابط الجأش متمالك الاعصاب ، بيد أنه شعر بتأثم غريب يستحوذ عليه ، لا لشيء سوى وقفتهما تلك ، وقد راحا يتطلعان اليه بوجهين فيهما من التحفظ المزوج بالدهاء مالم يستطع ان يسبر اغواره ويتأدى الى مراميه ..

ثم قال الضابط دنهام باقتضاب :

ـ قضية سيئة ...

لم يجب احد .. ففتح الضابط دفتر احوال كان بيده وشرع قلمه ، قائلا لتونى :

ـ مجرد أسئلة قليلة ، اذا لم تمانع ..

وعندما أومأ الشاب برأسه أضاف الضابط :

ـ منذ متى أنت هنا ؟..

ـ منذ حوالى ثلاثة أسابيع ..

ـ هل كنت تقيم فى المنزل ؟..

ـ لا .. فى كشك فى آخر الدرب ..

ـ هل كنت ستشرف على هذه المزرعة مدة سفرهما ؟..

ـ نعم .. لمدة ستة شهور ..

ـ وبعد ذلك ؟..

ـ بعدها كنت أنوى أن أنتقل للعمل فى احدى مزارع التبغ ..

ـ متى عرفت بأمر هذه الواقعة ؟..

ـ انهم لم يستدعونى ... فقط استيقظت من النوم ، ثم عثرت على مستر تيرنر ...

أبان صوت تونى الآن أنه قد وقف موقف الدفاع .. لقد شعر انه جرحت كرامته واهين اذ لم يستدعه أحد ، واكثر من هذا لان هذين الرجلين بدأ انهما يريان أنه لشيء طبيعى وصواب اذ يتجاهلونه على هذه الصورة ، وكأن حداثة عهده بالبلاد لا تؤهله لاى نوع من المسئولية .. ثم انه استاء من الكيفية التى يجرى بها استجوابه فما من حق لهما ان يفعلا هذا ، ومن ثم بدأ الغضب يعتمل فى صدره ـ ذلك وان كان يعرف تماما انهما على غير وعى بالقوامة

البادية في مسلكهما ، وان من الخير له أن يحاول وان يفهم المعنى الحقيقى لمــا يدور الان ، لا ان يقف متحفـزا للدفـاع عـن كرامته ..

ــ هل كنت تتناول طعامك مع الاسرة ؟..

ــ نعم ..

ــ بغض النظر عن هذا ، هل كانت لك هنا ــ اتصالات اجتماعية ان جاز هذا التعبير ؟ ..

ــ كلا ، بتاتا .. انني كنت مشغولا بتعلم مهنتهى الجديدة ..

ــ هل كنت على صلة طيبة مع تيرنر ؟ ..

ــ نعم .. اظن هذا .. اقصد ، انه لم يكن من السهل التعرف به .. كان شديد الانهماك في عمله .. وكان من الواضح انه لم يكن سعيدا قط بمفارقة المزرعة ..

ــ نعم .. هو مسكين فعلا .. وشـد ما كان يعـانى من جـراء ابتعاده عن المزرعة ..

كانت لهجة الضابط تشف عن التعاطف والرثاء ، رغم حدة كلماته ثم لم يلبث أن أطبق فمه اطباقا ، وكأنمـا يريد ان يحتفظ بمظهره الجاف ..

خيم صمت طويل .. ثم أطبق الضابط دفتر الاحوال .. بيـد انه لم يتم بعد مهمته ... فقد راح يتأمل تونى بحذر ، مفكرا فى كيف يصوغ سؤاله التالى .. او هذا هو مابدا لتونى ، الذى راى أن اللحظة قد حانت للدخول فى صميم القضية .. والواقع ان ذلك لاح فى وجه تشارلى ، الذى شفت ملامحه عن تحفز مشوب بالحذر والدهاء ، والتخوف أيضا .. فى حين قال الضابط دنهام بلهجة اصطنع فيها العفوية :

ــ هل رأيت شيئا غير عادى اثناء وجودك هنا ؟..

ــ نعم .. رأيت ..

اندفع هذا الرد من تونى ، الذى صمم فجأة الا يستجيب للضغط أو التخويف ، اذ ايقن أنه الآن عرضة لهذا فعلا .. وقد تطلع اليه الرجلان مقطبين ، وتبادلا نظرة سريعة ثم تباعدت أعينهما على الاثر كأنما خافا أن يبدو تواطؤهما ..

ــ وما الذى رأيته ؟.. آمل انك تدرك مافى هـذه القضية من نواح لا تبعث على الارتياح ؟..

كان السؤال في الواقع أقرب الى الرجاء .. وقد رد توني بجفاء :

ـ أن اية جريمة قتل فيها قطعا مالا يبعث على الارتياح ..

ـ عندما تبقى في هذه البلاد مدة طويلة كافية ، فسوف تفهم اننا لا نحب أن يعمد الزنوج الى قتل نساء من البيض ..

لم يتمالك توني ان غضب لتكرار عبارة « عندما تبقي في هذه البلاد مدة طويلة كافية » التي وجهت اليه اكثر من مرة ، وود أن يندفع من فوره للكشف عن الحقيقة في غير لف ولا دوران .. لكن المسألة لم تكن بهذه البساطة .. ان الحقيقة التي عرفها ، او تكهن بها ، عن ماري ، تلك الحقيقة التي الفى هذين الرجلين يتساءلان الآن لتجاهلها يمكن أن يذكرها في غير غباء .. لكن ماكان يعنيه قبل هذا كله ، هو أن يفهم الجوانب الخلفية ، والظروف والطباع المتعلقة بذلك وماري ، ونسيج حياتهما .. وهذا مالم يكن من السهل بلوغه .. انه قد توصل الى الحقيقة بصورة غير مباشرة ، ولا مفر أن يكون بيانها بهذه الصورة .. وكان احساسه الغالب الان ، وهو الرثاء لكل من ماري وديك والزنجي ، الى جانب السخط على الظروف كلها ـ هو ماجعل من الصعب عليه أن يعرف من اين يبدأ البيان ...

قال اخيرا : اسمعوا ... سأقول لكم كل ما أعرفه منذ البداية ، فقط سوف يستغرق هذا بعض الوقت .. انني اخشى ..

ـ تقصد أنك تعرف لماذا قتلت مسز تيرنر ؟

كان السؤال مشوبا بالمكر وكأنه ضربة وقائية .. فقال توني :

ـ لا ... ليس هذا ما اقصد ... فقط بامكاني أن أكون نظرية ..

ـ اننا لا نريد نظريات .. نريد حقائق .. وعلى اية حال عليك أن تفكر في حالة ديك تيرنر .. أن ماحدث ويحدث هو شيء كريه . جدا بالنسبة اليه ... يجب أن تتذكر ـ هذا المسكين ..

هكذا أعادوا الكرة برجائهم المبطن المجافي للمنطق ..

وبدأ توني يفقد أعصابه ، فقال باستياء :

ـ هل تريدون أو لا تريدون أن تسمعوا ماعندي ؟..

ـ تكلم .. تذكر فقط انني لا اريد أن أسمع تخيلاتك .. اريد ان أسمع حقائق .. هل رأيت شيئا « محددا » يمكن ان يلقى

الضوء على هذه الجريمة ؟.. على سبيل المثال ، هل رايت هـذا الولد يحاول السطو على مجوهراتها ، او شيئا من هذا القبيل ؟.. نريد شيئا محددا .. لا شيئا في الهواء ..

ضحك تونى ، حتى نظر اليه الرجلان بحدة .. فقال :

ــ انتم تعرفون كما اعرف أن هذه القضية ليست شيئا يمكن تفسيره بشكل مباشر هكذا .. تعرفون هذا تماما ..

بدا كأنهم امام طريق مسدود .. واخيرا تكلم الضابط دنهام مقطبا وكأنه لم يسمع ماقاله تونى :

ــ على سبيل المثال ايضا ، كيف كانت مسز تيرنر تعامل هـذا الولد ؟.. هل كانت تعامل خدمها معاملة حسنة ؟..

رغم شعور تونى بالغضب من هذا الموقف ، فقد تعلق بهذا السؤال كبداية للكلام ، وقال :

ــ الحقيقة أنها كانت تعاملهم معاملة سيئة ، فيما أظن .. ذلك وان كان من ناحية أخرى ..

ــ كانت تضايقه ، مثلا ؟.. لا بأس .. الحقيقة ان النساء فى هذه البلاد على هذه الشاكلة ، غالبا .. ألسن كذلك ياسلاتر ؟.. ان زوجتى ذاتها تثير جنونى احيانا من هذه الناحية .. ليست لديهن أية فكرة عن أسلوب التعامل مع الاهالى ..

فقال تشارلى : ان التعامل معهم يحتاج الى رجل .. انهم لا يفهمون ان يتلقوا الاوامر من النساء .. وهم يلزمون نساءهم بالطاعة والخضوع ..

وضحك تشارلى .. وضحك الضابط ... والتفت كلاهما الى صاحبه ، والتفتا بدورهما الى تونى ، سعيا الى تلطيف حدة الموقف ... هكذا انفرج التأزم ، وزال الخطر .. ومرة اخرى ألفى الشاب نفسه بلا حول .. وانتهت المقابلة كما يبدو ، وهو لا يكاد يصدق حواسه ...

قال الشاب : لكن استمعا منى ...

ثم توقف عن اتمام كلامه . واستدار الرجلان يتطلعان اليه بنظرات رصينة تشف عن الاستياء .. وكان فيها من التحذير مالا تخطئه العين .. تحذير من النوع الذى يوجه الى انسان غير قليل الخبرة يوشك أن يقول شيئا اكثر مما ينبغى ، فيتعرض للخذلان .. كان هذا فى الحق اكثر مما يستطيع تونى احتماله .. وهكذا غلب على أمره .. وغسل يديه من القضية ، خصوصا وقد

الفى الرجلين متضامنين تماما فى موقفهما منه ، متفاهمين قلبـا وقالبا ، دون ان يشعرا بأية غرابة فى هذا المسلك ، او خروج على القانون .. وهل ثمة شيء خارج على القانون على اية حال ؟! .. ان مادار بينهم كان أقرب الى حديث عابر ، بعيدا عن الطـابع الرسمى بعد اقفال دفتر الاحوال !...

وفى النهاية التفت تشارلى الى الضابط قائلا :

ـ الافضل نقل الجثة من هنا .. الانتظار أكثر من ذلك لايتفق مع حرارة الطقس ...

فقال الضابط : نعم ...

وتقدم لاصدار الاوامر اللازمة لذلك ..

وكانت هذه الاشارة العابرة الى شخص مارى المنكودة هى آخـر ماصدر فى حقها .. وهل من غرابة فى هذا ولم يكن مادار سوى حديث ودى بين المزارع الذى كان اقرب جار لها ، وبين ضـابط الشرطة الذى كان يمر بالبيت فى طوافه كمجرد ضيف عابر ، ثم مساعد المزرعة الذى لم يلبث فيها اكثر من اسابيع معدودة ؟..

لم تكن اذن هذه مناسبة رسمية ، وهكذا تعلق ـ تونى بهذا الخاطر انتظارا للتحقيق الذى سيعقد فى المحكمة ، والذى ستدور اجراءاته بصورة اقوم واكثر دقة ..

وما لبث الضابط ان قال وكأنما يفكر بصوت مسموع ناظرا الى تونى :

ـ ان القضية ستكون امام المحكمة كمجرد اجـراء روتينى بالطبع ...

ووقف الضابط قرب سيارة الشرطة يراقب رجاله وهم ينقلون جثة مارى تيرنر التى لفت بملاءة الى المقعد الخلفى .. كانت الجثة متيبسة وقد امتد منها ذراع متصلب حال دون ادخالها من الباب الضيق بعد جهد .. واخيرا نجحت المحاولة واغلق باب السيارة .. ثم قامت مشكلة اخرى .. فلم يكن من الممكن وضع موسى القـاتل معها فى نفس السيارة ، اذ ليس من المقبول ، ان يودع فيها رجل اسود قرب امراة بيضاء ، حتى لو كانت ميتة وهو قاتلها ..! ولم تكن هناك سوى سيارة تشارلى ، وفيها ديك تيرنر ، جالسـا يحدق مختبلا فى مقعدها الخلفى .. فلم يبق اذن سوى ان يمشى موسى على قدميه فى حراسة افراد الشرطة فوق دراجاتهم ، الى مركز البوليس ..

وبعد أن تمت هذه الترتيبات كلها ، سادت فترة توقف ..
لقد وقفوا قرب السيارتين ، فى لحظة الافتراق ، ينظرون الى البيت المشيد بالآجر الاحمر ذى السقف الذى تشع منه الحرارة ، وما حوله من اشجار الغابة المتكاثفة ، وقد تحرك أفراد الشرطة السود مبتعدين تحت الاشجار فى مسيرتهم الطويلة .. وفى هذا كان موسى جامد الملامح ، تاركا لهم آن يوجهوه دونما حركة من جانبه .. كان وجهه فارغا من الملامح .. وبدا انه يحدق مباشرة فى الشمس .. ترى هل كان يفكر أنه لن يراها كثيرا بعد الان ؟.. مستحيل أن يقال فى هذا أى شيء .. أهو الندم ماكان يفكر فيه ؟ لم تكن ثمة أدنى علامة على ذلك - اهو الخوف ؟ لم يبد أن الامر هكذا - وكان الرجال الثلاثة ينظرون الى القاتل مخلدين الى خواطرهم الخاصة ، متأملين ، مقطبين ، ولكن دون أن يبدو أنه أصبح يهمهم امره الان فى شيء .. كلا .. كان غير ذى اهمية - كان مجرد فرد من الاهالى ، يسرق ، ويهتك الاعراض ، ويقتل ، لو سنحت له اقل فرصة .. وحتى بالنسبة الى تونى فلم تعد له أهمية ، وكان مبلغ معرفته بعقلية مثله ضئيلا الى الحد الذى لا يهيىء له اساسا للتأمل والتصور ...
وما لبث تشارلى ان قال لصاحبه وهو يومىء بابهامه الى ناحية ديك تيرنر :
- وماذا بخصوص هذا ؟ ..
وكان المعنى الذى اراده هو : اين مكانه فيما يختص بالتحقيق القضائى ؟ ..
فأجاب الضابط الذى كانت له خبرة موفورة فى مسائل الوفاة والجريمة والجنون :
- يبدو لى انه لا رجاء منه فى اى شيء ...
كان الشيء المهم عندهما هو مارى تيرنر .. ولكن بعد نهايتها على هذه الصورة ، فانها لم تعد مشكلة .. وانما كانت الحقيقة الوحيدة التى بقيت ماثلة تتطلب التعامل معها هى وجوب المحافظة على المظاهر .. وكان الضابط دنهام يفهم هذا حق الفهم ، فذلك جزء من عمله ، وهو ان لم يكن مدونا فى اللوائح والتعليمات ، فهو مفهوم ضمنا فى روح البلاد التى يعمل فيها ، منغمسا حتى الصميم ... ولم يكن هناك من يفهم ذلك اكثر من تشارلى سلاتر .. وهكذا وقفا معا متضامنين فى تلك اللحظات الاخيرة ، وكانما يحركهما دافع

واحد ، ومشاعر متبادلة من الأسف أو الخوف ــ قبلمـا غادرا المكان ، موجهين تحذيرهما الاخير الصامت الى تونى ، ناظرين اليه فى جد ورصانة ...

وهاهو ذا قد بدأ يفهم الآن .. لقد عرف ، على الاقل ، ان تلك المواجهة الصامتة التى دارت رحاها فى الغرفة التى غادروها لم تكن لها علاقة بالجريمة فى حد ذاتها .. آن الجريمة نفسها لم تكن شيئا .. ان الصراع آلذى تم حسمه فى سياق مادار من كلمـات قلائل ، أو بالاحرى فى لحظات الصمت بين الكلمات ، لم تكن له صلة بالمضمون السطحى للواقعة .. وهو خليق أن يفهم كل شىء فهما أفضل فى غضون شهور قلائل ، بعد ان « يصبح معتادا على هذه البلاد » ــ وعند ذلك سوف يبذل قصارى جهده لنسـيان ماعرفه ، ذلك لان معايشة التفرقة العنصرية بكل مضامينها ، تعنى أن يغمض المرء عينيه ويغلق عقله على اشياء كثيرة ، آذا أراد المرء أن يبقى عضوا مقبولا فى هذا المجتمع .. ولكن فيما بين ذلك ، سوف تعرض له لحظات قصيرة يرى فيها الاشياء بوضوح ، ويفهم « الحضارة البيضاء » التى تقاتل للدفاع عن نفسها هى التى كانت كامنة فى مسلك تشارلى سلاتر والضابط دنهام ــ « الحضـارة البيضاء » التى لن تقر بأية حال ان شخصا أبيض ، وعلى أخص الخصوص امراة بيضاء ، يمكن ان تنشأ له علاقة انسانية ، سـواء كانت خيرة او فاسدة ، مع شخص اسود .. ذلك لانها ما ان تقـر ذلك حتى تنهار ، ولا شىء يمكن ان ينقذها .. وعلى هذا فلايمكن ، فوق كل شىء ، أن تسمح بالفشل والتردى ، مثل الذى كان من آل تيرنر ..

ومن الممكن ان يقال ، فى لحظات الوضوح والصفاء تلك ، وبسبب ماعرفه تونى من خفايا الجريمة ، انه كـان الشـخص الوحيد بين الحضور ، الذى تقع على عاتقه مسئولية كبرى فى ذلك اليوم ــ اذ لا يمكن بأى حال ان يخطر ببال أى من سلاتر او الضابط دنهام انهما على خطأ وهما يؤمنان ايمانا عميقا بمسئوليتهما فى نطاق مسئوليتهما حيال موضوع التفرقة العنصرية .. غير ان تونى كان يريد هو أيضا ان يكون مقبولا فى هذه البيئة الجديدة التى وفد اليها .. لامناص امامه من أن يتكيف معها ؛ فان لم يفعل كان النبذ منها مصـيره المحتوم .. القضية واضحة لذى عينين .. لقد سمع عبارة « التعود على افكارنا » تردد أمامه بلا انقطاع بحيث لم يكن يستطيع أن يخدع

نفسه بالاوهام .. ثم لو أنه عمل بوحى افكاره المضطربة من الصواب والخطأ ورؤيته لما يدور أمام عينيه من ظلم وطمس للحقيقة ـ فما جدوى هذا فيما يتعلق بالقاتل ؟.. ان موسى سوف يعدم شنقا على أية حال .. فهو قد ارتكب جريمة قتل ، وهذه حقيقة واقعة ... فهل ينوى ان يمضى فى الكفاح فى الظلام من اجل المبدأ ؟ .. واذا كان هذا ، فأى مبدأ ؟ .. لو انه تقدم وقتها ، كما اوشك ان يفعل ، عندما صعد دنهام فى النهاية الى السيارة ، وقال : اسمع : اننى لن اقفل فمى من هذه المسألة » ـ فما الذى كان يجنيه ؟.. من المحقق أن الضابط ماكان ليفهمه .. انما كان وجهه يتقلص ، ويقطب استياء ، ويقول له : « تقفل فمك عن أى شيء ؟.. من طلب منك ان تقفل فمك ؟ » .. ولو أن تونى غمغم كلاما عن المسئولية لنظر الضابط نظرة معنوية الى تشارلى وهز كتفيه .. ولربما استمر تونى فى كلامه متجاهلا تلك الهزة ومافيها من دلالة على الامعان فى الفساد والتمادى فى الانحراف من الحق ، ورد عليه قائلا : « اذا كان لابد من القاء اللوم على أحد ، فلتختص مسز تيرنر بالملام .. لا يمكنك أن تأخذ بالوجهين .. اما ان يكون الناس البيض مسئولين عن تصرفاتهم ، أو غير مسئولين .. لابد لجريمة قتل من اثنين ـ كجريمة من هذا النوع .. ذلك وأن كان المرء لا يسعه ان يلومها هى أيضا .. فهى لا تستطيع ان تكون الا كما هى وكما طبعت عليه .. أقول لك اننى اقمت هنا،وهو مالم يفعله أحدكما والمسألة كلها بالغة الصعوبة حتى ليستحيل القول بمن هو أولى باللوم » .. وعند ذلك كان يمكن أن يرد الضابط قائلا : « بامكانك أن تقول ماتظنه صوابا أمام المحكمة فى التحقيق القضائى » ... نعم .. هذا ماكان يمكن ان يقوله الضابط ، وكأن القضية لم يبت فيها طبقا لما دار ، وأن لم يذكر هذا علانية بالطبع ، منذ عشر دقائق لا اكثر .. بل ربما اضاف الضابط قائلا : لا ليست المسألة مسألة القاء اللوم والتبعة على احد .. فهل ذكر احد شيئا عن توجيه أى لوم ؟.. لكن لن يمكنك ان تتهرب من حقيقة أن هذا الرجل قد قتلها .. هل يمكنك هذا حقا ؟ » ..

هكذا لم يقل تونى شيئا . وانطلقت سيارة الشرطة مبتعدة خلال الاشجار .. وتبعها تشارلى سلاتر فى سيارته مع ديك تيرنر .. وبقى تونى وحده فى الفناء المكشوف الخلوى ، مع بيت خاو ...

ولم يلبث أن دلف الى الداخل متباطئا ، تستحوذ عليه صورة واحدة جلية هي التي ظلت معه بعد احداث الصباح ، والتي بدت له المفتاح للقضية كلها : تلك هي النظرة التي ارتسمت على وجهي الضابط وسلاتر عندما نظر الى الجثة ، تلك النظرة الهستيرية التي كان قوامها الكراهية والخوف ....

جلس توني واضعا يده على راسه الذي مسه صداع اليم ، وما لبث أن نهض ثانية وجاء من رف ترب في المطبخ بزجاجة مكتوب عليها « براندي » وشربها عن آخرها .. لقد شعر بخلخلة في الركبتين والفخذين .. وكان مبعث تخاذله هو النفور الشديد من هذا البيت الصغير الاشوه الذي بدا أنه يضم بين جدرانه ، وحتى في صميم بنيانه من الاجر والاسمنت ، الرعب والهول المتولدين من جريمة القتل . وخالطه فجأة احساس بأنه لن يقوى على احتمال البقاء في هذا البيت ، ولو مدى لحظة اخرى ..

ولم يتمالك ان تطلع الى السقف ذي الصاج العاري المشقق ، والى الاثاث البالي الكالح ، والى الارضية الحجرية الترابة المغطاة بجلود الحيوانات الممزقة — فتملكه العجب من كيف استطاع ذانك الاثنان : ماري وديك تيرنر ، احتمال العيش في مثل هذا المكان ، على مدار تلك السنين الطوال ؟!.. ياللعجب حقا !.. أنه حتى الكشك الصغير — المسقوف بالقش الواقع خلف المنزل الذي يقيم فيه كان أفضل من هذا البيت !.. ما الذي جعلهما يمضيان في حياتهما دون حتى اقامة سقف مشيد ؟ .. ان الحرارة في هـذا المكان كفيلة بأن تسلم اي انسان الى الجنون !..

وعند هذا الحد خالط عقله تشوش يسير بفعل البراندي الذي ضاعفت الحرارة من مفعوله ، غير أنه مضى في تاملاته ليتساءل كيف بدات هذه الاحداث كلها ، ومتى نجمت هذه المأساة ؟ ... ذلك لانه تشبث بعناد بيقينه الراسخ على الرغم من كل ماقاله سلاتر والضابط ، من دوافع الجريمة لابد من التماسها والبحث عنها في الماضي البعيد ، وأن هذه الدوافع هي البالغة الاهمية .. ترى اى نوع من النساء كانت ماري تيرنر ، قبلما جاءت الى هذه المزرعة ، ثم رويدا رويدا فقدت توازنها بفعل الحرارة ، والوحـدة ، والفقر ؟ .. وديك تيرنر ذاته — ماذا كان كنهه ؟.. والقاتل ؟.. ولكن هنا توقف تفكيره لقصور معرفته .. انه لم يستطع حتى ان يتصور ماهية عقل مثله ..

ومر بيده على جبينه في محاولة أخيرة يائسة للتوصل الى لون من الرؤية الواضحة التى تستخلص الجريمة من تعقيدات هـذا الصباح ، وتجعل منها شيئا بارزا محدد المعالم .. بيد أنه أخفق في محاولاته .. فقد كانت الحرارة مشتدة .. ثم انه كان لايزال حانقا في مسلك الرجلين .. وشعر بدوار فى رأسه .. لابد ان درجة الحرارة فى هذه الغرفة جاوزت المائة ، حتى لم يتمالك ان نهض من مقعده رغم تخاذل ساقيه .. مالهذه البلاد !.. لماذا يحدث له هذا ، ويتورط فى قضية معقدة كريهة مثل هذه القضية ، وهو حديث العهد بالوصول والاقامة هنا ، وهو لا يستطيع ان يقوم فى القضية بدور القـاضي والمحلفين ليصـل الى القرار الفصـل ؟! ..

مشي متعثرا الى الشرفة ، حيث ارتكبت الجريمة فى الليـلة الماضية .. وقع نظره على لطخة محمرة على الارض ، وبركة صغيرة من مياه المطر يخالطها لون وردى .. وشاهد الكلبين الكبيرين يلعقان حوافى المياه ، وما ان صاح بهما تونى حتى تراجعا خانعين ..

ولم يلبث أن وقف مستندا الى الحائط وجعل يحدق فى اوراق الشجر التى بدت زاهية الخضرة فى أعقاب المطر الذى تدفق طوال الليل .. وخيل اليه أن أشجار الغابة تضج بأصوات خفية ظلت تطن فى سمعه حتى أرهقت اعصابه وقال لنفسه فجأة : « سأرتحل من هذا المكان .. سأذهب الى الطرف الاقصى لهذا الاقليم .. اننى أغسل يدى من هذه الواقعة .. ليفعل عشرات من أمثال سـلاتر ودنهام ماهم فاعلوه ــ فما شأنى بهم وما شأنهم بى ؟! » ..

وفى هذا الصباح حزم متاعه وقصد الى مزرعة سلاتر ليخبره أنه لن يبقى .. فبدا تشارلى غير مكترث ، بل أقرب الى الارتياح ... فقد تراءى له أنه لم تعد هناك حاجة الى مدير أعمال بعـد أن تحتم الا يعود ديك الى مزرعته ..

وبعد ذلك أصبحت مزرعة تيرنر تستخدم مراعى لمواشى تشارلى سلاتر .. أما البيت فقد ظل خاويا على عروشه .. ولم يمض وقت طويل حتى تهدم ..

وعاد تونى ادراجه الى المدينة حيث اصبح يتردد على البارات والفنادق حينا من الوقت ، منتظرا أن يسمع عن عمل يناسبه .. بيد ان قابليته السالفة للعمل لم تلبث ان فارقته ، وغدا عصـيا متمردا .. وقد زار عدة مزارع ، ولكنه كان ينسحب فى كل مرة ، اذ فقدت اعمال المزارع بريقها فى نظره .. وفى جلسة المحـاكمة

التى جرت كما قال الضابط دنهام انها ستكون مجرد اجراء رسمى أدلى تونى بالاقوال التى كانت منتظرة منه .. وقيل فى الجلسة ان الزنجى قد قتل مارى تيرنر وهو فى حالة سكر بحثا عن نقود ومجوهرات ..

وبانتهاء المحاكمة مضى تونى يطوف هائما بلا هدف الى أن نفدت نقوده .. فكان عليه أن يفعل شيئا لكى يجد القوت .. وقد التقى برجل من روديسيا الشمالية أخبره عن مناجم النحاس وما فيها من أجور عالية مدهشة .. فبدا هذا الكلام مغريا له حتى أنه استقل القطار فى اليوم التالى الى منطقة مناجم النحاس وفى نيته أن يقتصد من النقود مايهيىء له القيام بعمل لحسابه الخاص .. لكن ما أن وصل الى هناك حتى بدا أن المرتبات ليست فى المستوى المرتفع الذى سمع به على البعد .. ثم ان تكاليف المعيشة كانت باهظة ، والى جانب هذا كان الكل يفرطون فى شرب الخمر .. ولم يمض وقت طويل حتى ترك العمل فى المناجم واشتغل بالاعمال المكتبية التى جاء الى أفريقيا لتحاشيها .. بيد ان الامور لم تكن الى هذا الحد من السوء ، وكان عليه ان يتقبل الواقع على علاته ، فالحياة لايمكن أن تكون على مايشتهى الانسان .. وهذا فى الواقع ماكان يقوله لنفسه كلما تملكه الانقباض والغم واستعرض طموحاته السابقة ..

وقد غدا فى نظر ابناء الاقليم الذين عرفوا بامره سماعا ، ذلك الشاب الوافد من موطنه فى انجلترا الذى لم يجد عزما للصمود اكثر من أسابيع قلائل فى اعمال المزارع ، وكان ينبغى له أن يعتصم بالجلد والصبر الى النهاية ..

الفصل الثانى

على امتداد خطوط السكك الحديدية وتقاطعاتها فى كافة أرجاء جنوبى افريقيا ، قامت على مسافات قصيرة لاتتجاوز عدة أميال مراكز صغيرة كانت تبدو للمسافر مجرد مجموعة من الابنية الرثة ، ولكنها كانت مراكز ربط للمزارع المنتشرة فى أنحاء الاقاليم ، اذ تضم محطة سكة الحديد ، ومبنى البريد ، واحيانا احد الفنادق ، ولكن المتجر دائما ...

ولو أراد الباحث أن يلتمس شعارا يعبر عن جنوبى افريقيا — تلك التى انشأها ارباب رءوس الاموال واقطاب المناجم ، والتى استكشفها الرواد الاوائل ومن تلاهم من رجال الارساليات التبشيرية ممن كان يروعهم ما آلت اليه مكتشفاتهم — لما وجد الباحث شعارا غير « المتجر » .. ان المتجر قائم فى كل مكان .. ولو قاد الانسان سيارته مسافة عشرة اميال من متجر لوصل الى المتجر التالى .. ولو أطل المسافر براسه من احدى مركبات القطار لشاهد المتجر ماثلا أمامه ... كل منجم له متجره ، وكل مجموعة مزارع لها متجرها ...

والمتجر فى كل مكان عبارة عن مبنى واطىء من طابق وحيد ، مقسم الى أقسام صغيرة مثل قطعة الشيكولاته ، تشمل قسم البقالة ، وقسم الجزارة ، وقسم المشروبات ، يضمها سقف واحد من الحديد المتعرج .. وفيه منضدة عالية من الخشب ، خلفها رفوف تضم كل شيء : من المشروبات الكحولية الى فرش الاسنان ، مختلط بعضها ببعض .. وعن كثب منها علقت ملابس قطنية رخيصة ذات الوان زاهية ، وتكدست الى جانبها علب أحذية ، او دواليب زجاجية تضم روائح عطرية ومطريات ، وربما حلوى منوعة ... وتنبعث من المتجر على الدوام روائح لايخطئها الانف : روائح الورنيش والجلود المجففة ، والفواكه المحفوظة : والدم الجاف المنبعث من الذبح خلف المتجر ، والصابون النفاذ الرائحة ... ويقف خلف المنضدة شخص يونانى ، او يهودى ، او هندى ... وفى أحيان كثيرة يلعب أولاد هذا الرجل — المكروه دائما من المنطقة

كلها كمستغل واجنبي – يلعبون بين الخضراوات المزروعة ، لان مساكنهم قائمة خلف المتجر ..
والمتجر عند الوف الناس فى جنوبى آفريقيا هو الخلفية الدائمة لطفولتهم ، وما اكثر الاشياء التى تتركز حوله .. وعلى سبيل المثال ، ذكريات تلك الليالى عندما تتوقف السيارة بعد مسيرة طويلة لا نهاية لها في الظلام القارس المشبع بالاتربة ، تتوقف فجأة امام مربع مضاء قبع فيه الرجال عاكفين على كئوس بين أيديهم ، وحيث يدلف القادمون الى المشرب الباهر الضياء لاحتساء رشفات من سائل نارى « يدفع عنهم الحمى » ... او هو المكان الذى تلم به السيارة مرتين في الاسبوع لاخذ البريد الوارد ، والالتقاء بجميع اصحاب المزارع على مبعدة اميال فيما حول المكان لابتياع البقوليات وقراءة الرسائل الاتية من ارض الوطن ، متكئين على رفرف السيارة غير عابئين فى لحظاتهم تلك بوقدة الشمس او التفاف الكلاب بين الاتربة الحمراء تنهش كالذباب ما ألقى اليها من اللحم ، وزمر الاطفال السود يحملقون عن كثب – تلك اللحظات التى تعود بأصحاب الرسائل الى ارض الوطن الذى يعتلج فى صدورهم الحنين اليه اشد الحنين ، وأن كانوا لايرتضون العودة اليه اختيارا وطواعية ، واذ يقول اولئك الذين قضوا على أنفسهم بالنفى : « أن الجنوب الافريقى يستحوذ عليك استحواذا » – يقولونها رغم ذلك فى مضض ..
اما لدى مارى ، فان كلمة « الوطن » التى تتردد باشد الحنين ، كان معناها انجلترا ، على الرغم من أن أبويها كانا من مواطنى الجنوب الافريقى ، ولم تطأ اقدامهما قط أرض انجلترا .. كان معناها انجلترا نتيجة لايام تلقى رسائل البريد تلك ، عندما كانت تتسلل ألى المتجر لمراقبة السيارات فى قدومها ، ثم فى ارتحالها محملة بالمؤن والرسائل والمجلات الواردة من وراء البحار ..
ولدى مارى كان المتجر محور حياتها ، بل كان أهم لديها مما كان لمعظم الأطفال .. وبداية فانها عاشت دائما فى مدى النظر منه فى أحد تلك المساكن الصغيرة المغبرة .. وكانت دائما تهرع اليه لاحضار رطل من الخوخ المجفف او علبة سالمون لامها ، او للبحث ان كانت الجريدة الاسبوعية قد وصلت .. وكانت تلبث هناك ساعات ، تحدق فى أكوام الحلوى ذات الالوان ، ناظرة خلسة الى البنت اليونانية الصغيرة التى لا يسمح لها بأن تلعب معها ، لان أمها

قالت ان أبويها من المخلطين .. ثم انها فيما بعد وقد كبرت ، اصبح
للمتجر لديها معنى آخر .. فهو المكان الذي كان أبوها يبتاع منه
شرابه .. واحيانا كانت امها يشتد بها الانفعال والسخط وتسعى
الى « البارمان » شاكية من انها لا تستطيع التوفيق بين كافة
المطالب وهذا زوجها يبذر « ماهيته » في الشراب .. وكانت ماري
تعرف ، حتى وهي طفلة ، ان امها كانت تشكو بقصد التنفيس
واستعراض احزانها ، وانها في الواقع كانت تستطيب تلك المواقف
هناك في المشرب ، بينما الشاربون العابرون ينظرون اليها بتعاطف
.. كانت تستطيب التشكي بصوت محزون صارم من زوجها ،
قائلة : « كل ليلة بعد الى البيت من هنا .. كل ليلة .. ويطلب
مني أن أقوم بترتيب ثلاثة أرباع من النقود الباقية عندما تعود له
العودة الى البيت ! .. » وبعدما تقف جامدة في مكانها تنتظر
المواساة من الرجل الذي يستولي على النقود التي تعدها من حقها
لكي تنفقها على الاطفال .. بيد انه يقول لها في النهاية : « لكن
ماذا يمكنني أن افعل .. لا يمكنني أن ارفض بيع المشروب له ،
هل هذا بامكاني ؟ » .. وفي النهاية ، وبعد أن تؤدي هذا المشهد
وتنال كفايتها من العطف ، تنقلب عائدة أدراجها وئيدة الخطو ، مجتازة
ساحة الاتربة الحمراء الى دارها ، ممسكة بيد ماري — وكانت
امرأة طويلة القامة عجفاء تقدح عيناها البرتقالتان شررا .. لقد
اتخذت من ماري وهي في مستهل صباها خدينة لها .. وكانت
تجلس الى ماكينة الخياطة تسكب الدموع الغزار ، فلا تملك ماري
الا أن تواسيها وهي في كرب من الامر ، وبودها لو تستطيع فرارا ،
وان شعرت باهميتها أيضا ، وقد تمقت اباها ..

ولم يكن معنى هذا أنه كان يفرط في الشراب حتى الثمل ؛
فقليلا ماكان مخمورا مثل بعض الرجال الذين كانت ماري تشاهدهم
خارج البار فيلقون في قلبها الرعب من هذا المكان .. كان يحتسي
من الشراب كل ليلة مايقضي به الى لون من الخدر ممزوج باللين ،
ثم يعود الى البيت متأخرا لتناول عشاء بارد ، يأكله وحيدا ...
وكانت زوجته تعامله ببرود وقلة اكتراث .. وكانت تستبقي
استخفافها به وسخريتها منه الى حين يفد اصدقاؤها لتناول
الشاى ، وكأنما كانت لا تريد أن تمنح زوجها الارتياح لمعرفة انها
تهتم به على اي وجه من الوجوه ، أو تشعر بأى شيء من اجله ،
حتى ولا بالاحتقار والاستهزاء .. كانت تتصرف وكأنه غير موجود

فى دائرة حياتها .. ومن الناحية العملية فقد كان كذلك .. كان يأتى بالنقود الى البيت ، وهى لم تكن بالكافية .. وفيما عدا ذلك كان بمثابة صفر فى المنزل ، وكان يعرف هذا .. وكان فى تكوينه رجلا قصيرا ، أشعث الشعر ، محتقن الوجه ، ثقيل المزاح .. وكان يلقب اصاغر الرسميين بلقب « سيدى » ، ويصرخ فى وجوه العاملين تحت امرته من الاهالى .. وكان عاملا فى السكك الحديدية لتزويد القطارات بالمياه ...

ولقد كان المتجر بالنسبة لمارى ايضا ، فضلا عن كونه مركز النشاط فى الاقليم ومصدر سكر أبيها - كان المكان المرهوب العاتى الذى يبعث بالفواتير آخر الشهر .. لم يكن من الممكن سداد الفواتير كاملة ، وكانت أمها دائما تستعطف صاحب المتجر لمنحها مهلة شهر آخر للسداد .. وكان أبوها وامها يتشاجران بسبب هذه الفواتير اثنتى عشرة مرة فى العام ... ولم يكن هذا الشجار يثور بينهما الا من اجل النقود .. واحيانا كانت امها تنوه بجفاء قائلة انه كان بوسعها ان تزيد الحال سوءاً لو انها احتذت مثال مسز نيومان التى انجبت سبعة اطفال ، ولكنها اقتصرت على ثلاثة أفواه فقط لاطعامهم .. وقد مضت فترة طويلة قبلما ادركت مارى مغزى هذا التعريض ، فلم يبق سوى فم واحد لاطعامه ، هو فمها ، لان اخاها واختها توفيا بالدوسنتاريا فى احدى السنوات العاصفة بالاتربة .. وفى ذلك الحين خيم الوفاق على ابويها فترة قصيرة بسبب الحزن الذى جمع بينهما ، وان كانت مارى قد تنفست الصعداء بل خامرتها السعادة اذ اصبحت تعيش فى بيت خلا من المشاجرات فجاة .. على ان هذه المرحلة لم تدم طويلا ، وان كانت فى نظرها اسعد فترة فى طفولتها ..

ثم تنقلت الاسرة ثلاث مرات قبلما ذهبت مارى الى المدرسة ، بيد أنها فيما بعد لم تستطع التمييز بين الاماكن الثلاثة التى أقامت فيها .. تذكرت فقط قرية مكشوفة تربة قامت من خلفها صفوف من اشجار الصمغ وامامها ساحة ترابية تثور فيها الاتربة وتهبط على الدوام بسبب العربات المارة التى تجرها الثيران ، ويلفها هواء حار راكد كانت تشقه مرارا كل يوم صرخات القطارات الكسيحة .. اتربة ودجاج .. اتربة واطفال واهال رحل .. اتربة ومتجر .. المتجر دائما ..

وبعد ذلك أرسلت الى مدرسة داخلية ، فتغيرت حياتها .. لقد

غدت سعيدة غاية السعادة ، بل بلغ من فرط سعادتها انها اصبحت تجزع من العودة الى البيت فى العطلات ، الى أبيها المخمور ، وامها المروة ، والدار الصغيرة التى كانت أقرب الى صندوق خشبى أقيم على طوآلة ..

وعندما بلغت ماري السادسة عشرة تركت المدرسة والتحقت بعمل في مكتب بالمدينة ، وكانت واحدة من تلك المدن الصغيرة المتناثرة مثل زبيب فى كعكة جافة على بنيان جنوب أفريقيا ... ومرة أخرى كانت سعيدة غاية السعادة .. وبدا كأنها ولدت لممارسة العمل على الآلة الكاتبة والاختزال والمحاسبة وباقى الأعمال المكتبية الروتينية .. كانت تحب الاشياء التى تتم بيسر وامان فى تعاقب مرسوم .. وما أن بلغت عامها العشرين حتى كان لها عمل طيب ، وأصدقاء شخصيون ، وركن تأوى اليه فى حياة المدينة ..

وبعدئذ توفيت أمها وأصبحت وحيدة تماما فى الدنيا ، اذ كان أبوها يبعد عنها مسافة خمسمائة ميل ، بعد أن نقل الى محطة سكة حديد أخرى .. وهى لم تكد تراه الا نادرا ، وكان هو فخورا بها ، بيد أنه « وهذا أهم شىء » تركها وشأنها .. بل انهما لم يتبادلا الرسائل ، أذ لم يكونا من طراز الاهل المتراسلين .. وقد سرت مارى بالخلاص منه .. ولم يروعها قط انها أصبحت وحيدة فى الحياة ، بل انها أحبت هذا .. وبدا كأنها باسقاط أبيها من حسابها قد انتقمت على نحو ما لعذابات أمها .. ولم يدر بخلدها قط أن اباها ربما نال نصيبا من المعاناة أيضا ، ولو قيل لها هذا لردت بقولها « وفيم كان عذابه ومعاناته ؟.. هو رجل ، أليس كذلك ؟.. وفى قدرته أن يفعل مايحب » .. ولقد ورثت عن أمها أنوثتها المجدبة ، تلك التى لم تكن لها فى حياتها أى معنى على الاطلاق ، اذ كانت ذلك الوجود المريح المبهج لامرأة وحيدة فى الجنوب الافريقى ، ولم تكن تعرف الى أى حد هى محظوظة ... وانى لها أن تعرف ؟... انها لم تفهم شيئا من الاحوال فى البلاد الاخرى ، ولم يكن لديها معيار لتقييم حياتها على هديه ...

ولم يخطر ببالها قط ، على سبيل المثال ، أن تفكر ولو لحظة فى أنها وهى ابنة العامل البسيط فى السكك الحديدية ، والمرأة التى كانت تعانى الشقاء بسبب الضغط الاقتصادى ــ لم يخطر ببالها أن فى استطاعتها أن تعيش الآن كما يحلو لها ، وان تتزوج ،

اذا رغبت ، اي انسان تريد .. ان هذه الأمور لم تدر في خاطرها قط ...

ولقد ظلت حتى الخامسة والعشرين من عمرها دون أن يحدث اي شيء ينال من الحياة الرتيبة المريحة التي عاشتها .. ثم توفي أبوها .. فأدى ذلك الى ازالة الحلقة الاخيرة التي كانت تقيدها بطفولة كانت تمقت أن تتذكرها .. ولم يبق الآن شيء يربطها بالبيت الصغير الكئيب القائم على طوالة ، وبالقطارات الزاعقة ، وبالاتربة ، وبالشجار الدائم بين أبويها .. لا شيء بتاتا .. لقد غدت مرة .. وبعد أن انتهت جنازة ابيها عادت الى المكتب الذي تعمل فيه ، وراحت تتطلع الى حياة تستمر كما عهدتها من قبل .. كانت سعيدة كل السعادة ولعل هذه الخصيصة كانت سمتها الايجابية الوحيدة ، اذ لم يكن بها من سمات أخرى تميزها عن غيرها ، على الرغم من أنها كانت في سن الخامسة والعشرين هذه في أوج ملاحتها .. فان محض الرضا بحياتها تلك قد أضفى عليها نضارة موفورة ... كانت فتاة نحيلة الجيد ، ذات شعر غزير أدنى الى الشقرة ، وعينين زرقاوين جادتين ، وملابس أنيقة .. وكان أصحابها يصفونها بالشقراء الانجليزية ، وكانت تصطنع أزياء نجوم السينما الفتيات ...

وعندما بلغت الثلاثين من عمرها لم يحدث لها أي تغيير .. وفي عيد ميلادها الثلاثين خامرتها دهشة مبهمة لم تبلغ منها حد القلق — اذ لم تشعر بأي اختلاف في شيء — من أن الاعوام قد انطوت بمثل هذه السرعة .. سن الثلاثين ! .. بدا لها أنه عمر طويل .. بيد أن هذا لم يكن يعنيها في شيء .. وفي نفس الوقت لم تكترث بالاحتفال بعيد ميلادها ذاته .. لقد تركته وراءها نسيا منسيا .. بل لقد اسخطها او كاد أن تفعل شيئا عمدا ، تلك التي لم يخطر لها انها تختلف في شيء عن ماري ابنة السادسة عشرة ..

كانت حتى ذلك الحين سكرتيرة خاصة لرئيسها ، وكانت تنال مرتبا طيبا .. ولو أنها أرادت ، لاستطاعت أن تكون لها شقة خاصة ولعاشت حياة مرفهة .. ولم يكن ثمة شيء يحول دون ان تعيش وحدها ، تقود سيارة خاصة ، وتستمتع بوقتها في دائرة محدودة .. بيد أن ذلك كان ضد فطرتها ..

فقد اختارت أن تعيش في ناد للفتيات ، كان قد انشيء في الواقع لمساعدة النساء اللاتي لا يستطعن كسب نقود كثيرة ، غير انها اقامت في النادي مدة طويلة الى حد ان احدا لم يفكر في أن يطلب اليها

مغادرته .. وكان اختيارها لهذا النادي لأنه كان يذكرها بالمدرسة الداخلية ، وهي التي كانت تكره مغادرة المدرسة .. فقد كانت تحب جموع الفتيات ، وتتناول الطعام في قاعة الطعام الرحبة .. وفي النادي كانت شخصا له أهميته ، فقد كانت أكبر سنا من الاخريات ، وغدت بينهن اقرب الى شخصية العمة العانس التي يسعين اليها للافضاء بالمتاعب الشخصية .. اما هي فلم يكن لديها ماتكاشف به أحداً ، اذ بدا وكأنها بحاجة من اسماعهن والمشاحنات والمنازعات التي يتقلب فيها كثيرا .. واكثر ما كان يوجعها أن تكون لها صلات خاصة مع أحد .. وكانت مجرد بين كل أولئك الشابات بتحفظ كان ينطق بجلاء : « لن يحدث لي أبدا أن اكون مثلكم » ...

هكذا كانت جد سعيدة في النادي ...

وفي خارج نادي الفتيات ، وفي خارج المكتب ، حيث كانت لها اهميتها أيضا نتيجة للاعوام الطويلة التي قضتها تعمل فيه ، كانت تعيش حياة مليئة بالنشاط والحيوية .. ومع ذلك كانت حياة سلبية في بعض نواحيها ، اذ كانت تعتمد كلية على الغير تماما ... فهي لم تكن المرأة التي تدعو الى الحفلات ، او تغدو مركز الدائرة في الاجتماعات .. كانت لاتزال مجرد الفتاة التي تدعى ، تستجيب ..

كانت حياتها في الحق خارجة عن المألوف ، ولم تلبث الظروف التي افرزتها أن بدأت في التغير ، وعندما يبلغ هذا التغير مداه ، لا تلبث المرأة أن تنظر اليها وكأنها « العصر الذهبي » المولى ...

كانت ماري تستيقظ من نومها في وقت متأخر ، لتذهب الى المكتب في الموعد المقرر .. وكانت تعمل بكفاءة واقتدار حتى موعد الغداء الذي كانت تتناوله في النادي .. وبعد عمل ساعتين آخريين في فترة بعد الظهيرة كانت تغدو حرة ، فتلعب التنس والهوكي أو تمارس السباحة .. ودائما كان يحدث هذا مع رجل ، وهو واحد من أولئك الرجال العديدين الذين يدعونها الى صحبتهم ويعاملونها كأخت ، وفي هذا كانت ماري نعم الرفيقة .. وكما بدا أن لها مائة من الصديقات ، دون أن تختص احداهن بصداقة خاصة كذلك بدا أن لها مائة صديق يدعونها لصحبتهم ، أو الذين تزوجوا ثم اصبحوا يدعونها الى بيوتهم .. هكذا كانت صديقة تنصف

البلدة .. وفي الامسيات كانت تذهب دائما الى الحفلات الخاصة التى كانت تدوم الى منتصف الليل ، او ترقص ، أو تذهب الى دور السينما .. واحيانا كانت تذهب الى دور السينما خمس أمسيات في الاسبوع .. وهكذا لم تكن تأوى الى الفراش قط قبل الثانية عشرة ليلا أو اكثر .. وعلى هذه الوتيرة مضت حياتها ، يوما بعد يوم ، وأسبوعا بعد اسبوع ، وسنة بعد سنة ..

بيد أنها لم تلعب دورها الحقيقي .. اذ أنها لم تتزوج ..

وكرت السنون تباعا .. وتزوج أصدقاؤها .. وقامت بدور اشبينة العروس مرات عديدة .. وكان أطفال الاخرين يشبون ويكبرون ، بيد أنها مضت فى حياتها رفيقة طيبة وجلية محبوبة ، تؤدى عملها بجد وداب ، مستمتعة بحياتها فى المكتب ، ودون ان تكون وحيدة مدى لحظة واحدة ، الا حين تدلف الى مخدعها للنوم ..

ولقد بدا أنها لا تهتم بالرجال ، عاطفيا .. ومع ذلك كانت حياتها ، خارج النادى والمكتب ، تعتمد كليا على الرجال على الرغم من أنه لو قيل لها هذا لبادرت بنفى هذا الاتهام ساخطة حانقة .. هكذا كانت ماري ظاهرة فريدة ، امراة فى الثلاثين بغير حب ، بكل ملحقاته من الصداع أو الارق أو الاضطرابات العصبية والنفسية ... بل لم تكن تعلم أنها طراز نادر المثال بين بنات حواء ...

كانت لاتزال تعد نفسها واحدة من « الفتيات » .. كانت اذا جاء فريق لعب الكريكيت الى البلدة ومست الحاجة الى شركاء فى اللعب ، بادر منظمو الدورة الى الاتصال بمارى تليفونيا ، فتسارع الى تلبية الدعوة ..

وفى خلال ذلك كانت لاتزال ترسل شعرها على كتفيها كما تفعل البنات ، وترتدى فساتين زاهية الالوان كالتى يرتدينها ، وتبدو فى صورتها المتحفظة المستحيية الساذجة .. ولو أنها تركت لشأنها لمضت فى حياتها على هذه الوتيرة ، مستمتعة بهذه الحياة الامتاع كله — الى ان يصبح الناس ذات يوم فيجدونها قد استحالت دون أن تدرى الى واحدة من تلك النساء اللاتى مسهن الكبر وعدت عليهن الشيخوخة دون المرور بفترة منتصف العمر : عجوز متغضنة متيبسة الاطراف ، عطوفة المشاعر ، مواظبة على التدين وصحبة الكلاب الصغيرة ..

وعندئذ يختصونها بالعطف والترفق ، لانها « فقدت احب مباهج

الحياة » .. ومع ذلك فكم في الحياة من اناس لايريدون هـــذه المباهج منذ البداية .. فقد كانت ماري تتذكر « البيت » او « عش الزوجية » في صورة ذلك الصندوق الخشبي القائم على طوالة وهو يهتز من قواعده كلما مرت به القطارات ، وتتذكر من الزواج صورة ابيها وهو عائد الى البيت مخمورا محتقن العينين ، وتتذكر من الاطفال صورة أمها ومعالم وجهها وهي تشيع طفليها الاخــرين الى مثواهما الاخير ، وجه جزوع يمزقه الاسى والتفجع وان بدا كقطعة صخر جلمود .. كانت ماري تحب اطفال الاخرين ، غير انها كانت ترتعد لدى التفكير في أن يكون لها طفل من احشائهـا .. كان يعتلج في صدرها الحنين في حفلات الزفاف ، بيد أنها كانت تحس بكراهية عميقة لما يسمونه « الجنس » ... واذا كانت قد عرضت لها مناسبات عاطفية قليلة في بيتها ذاك ، فقد حرصــت أشد الحرص على نسيانها منذ عهد بعيد ..

ومن المؤكد أنها كانت تشعر ، في بعض الاوقات ، بقلق وعدم ارتياح مبهم كانا ينالان من مباهج أنشطتها الاجتماعية في بعض الفترات .. فمثلا ، كانت تذهب الى الفراش بعد سهرات السينما وهي راضية قريرة العين ، عندما تقول لنفسها فجأة : « يوم آخر مضى » ! .. فلا تلبث أن تشعر بشيء من الفزع ، وكأن دعامة غير مرئية قد سحبت من تحتها .. ولكنها لا تلبث بفكرها العقــلاني واقتناعها بأن التفكير في الذات أمر يجلب الغيم ، أن تدلف الى الفراش وتطفيء أنوار غرفة النوم .. ومع ذلك كانت لا تتمالك قبل ان تستسلم لسلطان الكرى ان تتساءل : « أهذا كل شيء ؟ .. عندما أصير عجوزاً ، هل سيكون هذا هو كل مااسترجعه مـــن الماضي ؟ » .. لكن ما ان يحل الصباح حتى تنسى هذا ، وتتعاقب الايام تباعا ، وتعود سعيدة كما كانت .. ذلك أنها لم تكن تعــرف ماتريده .. كان يخطر لها على نحو مبهم انه شيء أكبر من هـــذا واحفل ، لون من الحياة مختلف تماما عما عهدت .. بيد ان هذا العارض لم يكن يستمر طويلا ، واذا هي من جديد راضية بعملها في المكتب ، ومع اصدقائها الذين تعول عليهم ، وبحياتها في النـــادي ، وبرفاقها الذين كانوا يعاملونها معاملة مبراة كانت على الدوام خلوا من حكاية « الجنس » السخيفة ...

غير ان كل النساء يلابسن ذات يوم ، عاجلا أو آجلا ، ذلك

الضغط القاهر الدفين ، بأن ترتبط بالزواج .. ولكن ماري التي ظلت دريلا في منعة من هذا ، لم تلبث أن ووجهت به فجأة ، وعلى نحو غير سار ..

فقد كانت يوما في زيارة صديق متزوج ، وفيما هي جالسة في الشرفة وحدها ومن خلفها غرفة مضاءة يدور فيها بين الجالسين حديث خافت ، إذ سمعتهم يذكرون اسمها ... فنهضت لكي تدخل عليهم وتعلن عن وجودها ، إذ لم تستسغ أن يشعر أصدقاؤها أنها كانت تسترق السمع .. ثم لم تلبث أن عدلت عن ذلك وعادت الى الجلوس انتظارا للحظة مناسبة حتى تتظاهر بأنها جاءت توا عن طريق الحديقة .. فاستمعت الى هذا الحديث الذي جعل وجهها يلتهب احمرارا ويديها تلتصقان عرقا :

ـ انها لم تعد في سن الخامسة عشرة .. هذا شيء مضحك !.. ينبغي ان يكلمها احدهم عن ملابسها الصبيانية !..

ـ كم عمرها ؟..

ـ لابد أن تكون فوق الثلاثين .. انها كانت تعمل منذ فترة طويلة قبل ان بدأت انا العمل ، منذ اكثر من اثنتي عشرة سنة ..

ـ لماذا لا تتزوج ؟.. لابد انها سنحت لها فرص كثيرة ..

وفي ضحكة جافة كان الجواب :

ـ لا اظن هذا .. ان زوجي ذاته كان مهتما بها مرة ، لكنه يظن انها لن تتزوج ابدا .. انها ليست من هذا النوع ، ليست من هذا النوع بأي حال .. هناك شيء ماينقصها !..

ـ آه ، لا أعرف ..

ـ أن تغيرا كثيرا طرأ عليها ، على أي حال .. منذ فترة قصيرة صادفتها في الشارع وكدت لا أعرفها .. هذه حقيقة .. انظروا اليها وهي تمارس تلك الالعاب الكثيرة ، فان بشرتها صارت مثل ورق « السنفرة » ، وقد زاد نحولها ..

ـ لكنها فتاة لطيفة جدا ..

ـ ان برودها لن يذكي نارا على أي حال ..

ـ لكن ماري ستكون زوجة لا بأس بها .. فهي من النوع الذي يصلح للزواج ..

ـ ينبغي لها أن تتزوج رجلا اكبر منها سنا .. ان رجلا في الخمسين مناسب لها .. سوف ترون : سوف تتزوج شخصا

مناسبا بما فيه الكفاية لكي يصبح أبا لها ذات يوم ..
ـ ليس بامكان احد ان يتنبأ بالمستقبل !..

وتلت ذلك ضحكة أخرى ، من القلب في الواقع ، ولـكنها بدت خبيثة في سمع ماري .. لقد صعقت واهينت في الصميم ، ولكنها شعرت بجرح عميق اذ يعمد أصدقاؤها الى التحدث عنها بهذا الاسلوب .. لقد كانت سليمة الطوية الى حد كبير ، وغير مدركة لنفسها بالنسبة للغير ، حتى لم يدر بخلدها قط ان الناس يمكن أن يتناقشوا في أمرها من خلف ظهرها .. ويالتلك الاشياء التي قالوها عنها !.. لقد جلست في مكانها تتلوى وتبصر يديها .. ثم لم تلبث ان تمالكت وتقدمت الى الغرفة للانضمام الى أصدقائها الغادرين ، اولئك الذين حيوها بحفاوة وكأنهم منذ لحظـات لم يغمدوا الخناجر في قلبها ولم يفقدوها كل توازن ، حتى أصبحت لا تستطيع ان تعرف نفسها في الصورة التي صوروها بها ..

ان تلك الحادثة اليسيرة التي يمكن الا يكون لها تأثير على شخص له معرفة قليلة بطبيعة العالم الذي تتقلب هي فيه ، كان لها تأثير عميق على ماري .. فقد أصبحت وهي التي لم تجد أي وقت للتفكير في نفسها ، تجلس في غرفتها ساعات كل مـرة تتساءل : « لماذا قالوا عني هذه الأشياء ؟ .. ماذا جرى لي وما الذي دهاني ؟ ماهو قصدهم عندما قالوا « انني لست من هذا النوع » ؟.. وذهبت تتطلع في حذر وفيما هو اقرب الى التوسل في وجوه أصدقائها لكي ترى ان كان يمكن أن تجد فيها آثارا لتحاملهم عليها والتنديد بها .. بل كانت اشد انزعاجا واكثر شقاء لانهم بدوا كمألوف عادتهم حيالها ، يعاملونها بصداقتهم العادية .. وبدات تتشكك وتستنبط معاني مزدوجة في حيث مالا يقصد ان يكون كذلك ، وتتوسم سوء النية في نظرة أي شخص لا يكن لها غير المودة ..

وفي تقليبها لمعاني الكلمات التي استرقت السمع اليها بمحض الصدفة ، جعلت تفكر في طرق لتحسين حالها .. فنزعت من شعرها الشريط الذي كانت تحيطه به ، وأن فعلت هذا على أسف ومضض ، اذ كانت تظن انها كانت تبدو أوفر ملاحة بلفائف الشعر الغزير حول محياها المستطيل النحيل .. وابتاعت لنفسها ملابس جاهزة لم تعد تشعر فيها بالراحة السالفة ، اذ كانت تحس انهـا أقرب الى طبيعتها في الفساتين و « الجونلات » النباتية ...

ولاول مرة في حياتها بدأت تحس بالحرج مع الرجال ... كسان

يخالطها من قبل قدر يسير من الاحتقار لهم ، لم تكن على وعي كامل به ، وهو الذى درأ عنها فكرة « الجنس » وكأنما هى مخلوق شاذ حقا .. فلم يلبث ذلك الاحساس السالف ان ذاب ، وفقدت تماسكها امام الرجال .. وهكذا بدأت تبحث فيما حولها عن رجل تتزوجه .. مادام أصدقاؤها يظنون انه ينبغى لها ان تتزوج ، فقد يكون فى هذا مايبتغونه لها .. وكان اول رجل سمحت لنفسها ان يقترب منها ، ارملا فى الخامسة والخمسين ، له أطفال صغار .. ذلك لانها شعرت انها ستكون أكثر امانا معه ـ اذ لم تكن تربط مسألة العناق والقبلات وفورة العاطفة برجل فى منتصف العمر يغدو مسلكه معها اقرب الى الأبوة ..

وكان الرجل ذاته يعرف تماما مايريد : اما لاطفاله ، وانسانة تشرف على شئون بيته .. وهو قد وجد فى مارى رفيقا طيبا ، وكانت رحيمة بأطفاله .. وفى الواقع ماكان يتهيأ شيء اكثر ملاءمة ومادام قد تعين عليها أن تتزوج ، فهذا هو نوع الزواج الذى يناسب حالتها اكثر من سواه ..

لكن الامور تطورت الى عكس ماكان يراد ، حين بدأ الرجل يطارحها الحب .. فقد انتابها نفور عنيف حتى لقد هربت منه .. كان ذلك وهما جالسان فى غرفة المعيشة المريحة فى بيته ، وعندما بدأ يقبلها هربت من البيت الى ظلام الليل ، وظلت تجرى فى الشوارع الى النادى .. وهناك ارتمت فوق الفراش وانخرطت فى البكاء .. وما كان احساسه حيالها بالذى يذكيه مثل هذا النوع من الحماقة ، وأن كان شاب أصغر منه سنا ويحبها حبا جسديا قد يجد فيه طرافة واثارة .. وفى صباح اليوم التالى لم تتمالك ان ارتاعت لمسلكها ، وهى التى كانت على الدوام مسيطرة على اعصابها ولا تخشى شيئا اكثر من الفضيحة .. وهكذا اعتذرت اليه ، غير ان ذلك كان نهاية القصة ..

والآن ألقت نفسها نهبا للحيرة والاضطراب ، لا تدرى ما الذى تريده ـ لقد بدا لها أنها هربت منه لانه « رجل مسن » ـ تلك هى الصورة التى رتبها عقلها .. ولكنها ذهبت ترتعد ، واخذت تتحاشى الرجال الذين هم فوق سن الثلاثين .. انهـا هى نفسها كانت فوق هذه السن ، ولكن كانت تخـال أنها لا تزال فى عـداد البنات ..

وطوال الوقت ، وعلى غير وعى منها ، كانت تتطلع الى زوج ، وان لم تعترف لنفسها بهذا ..

وخلال تلك الاشهر القلائل قبل زواجها ، كان الناس يتحدثون عنها بكيفية كانت قمينة بأن تثير فى نفسها المضاضة والالم لو انها تفطنت الى ذلك .. فان القصة المروعة والمضحكة معا لهربها تلك الليلة من عاشقها المسن ، مالبثت ان انتشرت فى دائرة اصدقائها الواسعة ، وأن كان من المستحيل ان يقول أحد من هو الذى عرف بأمرها .. ولكن ما ان تسامعوا بها حتى استقبلوها بهز الرءوس والضحك وكأنما جاءت مصداقا لشىء كانوا يعرفونه منذ عهد طويل . باللعجب !.. امرأة فى الثلاثين تتصرف هذا التصرف !.. لقد ضحكوا ، وان كان ضحكهم خلوا من البهجة ، من أن يكون هـذا مسلكها فى هذا العصر الذى أصبح فيه « الجنس » مسألة علمية . ضحكوا منها ولم يغفروا لها ، وبدا لهم انهـا تستحق ماجرى لها ..

ومن بواعث الاسف أن هذه المرأة التى بلغت سن الثلاثين ونالت حظا طيبا من التعليم وكانت تستمتع بحياتها فى بيئة حضارية ولها أطلاع جيد على أحوال عصرها ـ لم تكن تعرف عـن نفسها الا القليل ، أو اقل القليـل ، وهـكذا تفقـد توازنها على هذه الصورة .. لان بعض النساء الثرثارات قلن انه لابد لهـا من الزواج ..

ثم لم تلبث ان التقت بذيك تيرنر .. كان يمكن أن يكون اى شخص آخر .. أو بالاحرى كان هو أول رجل التقت به يعاملها وكأنهـا رائعة وفريدة فى نوعها .. كـانت فى أمس الحـاجة الى شىء كهذا ... كانت حاجتهـا اليـه لاستعادة احساسها بتفوقهـا على الرجال ، وهو ما كان يهجس فى أعماقها طوال سنى حياتها الماضية ..

كان لقاؤهما عرضا فى دار السينما .. كان دخوله الى الدار فى يوم جاء فيه الى البلدة من مزرعته .. وكان مجيئـه اليهـا من المناسبات النادرة ، الا اذا كان عليه أن يبتاع السلع التى لا يمـكنه الحصول عليها فى المتجر المحلى ، وهو ماكان يحدث مرة او مرتين فى العام .. وفى هذه المناسبة التقى مصادفة برجل لم يره منـذ سنوات ، وقد أغراه بتمضية الليل فى البلدة وارتياد السينما .. والواقع انه عجب من نفسه او كاد لقبول هذه الدعوة ، اذ كان كل

هذا أبعد مايكون عن مألوف عاداته .. وقد ترك سيارة النقـــل الخاصة بمزرعته والمحملة بأكداس من أكياس الحبوب وبمسحاتين لتسوية التربة خارج دار السينما رغم مظهرهما النابى عن المكان .. وفى الحق ان ديك تيرنر كان يكره البلدة ، اذ كان يعانى مـن « الكلوستروفوبيا » أو الخوف المرضى من الاماكن الضيقة والمقفلة بعكس الفضاء الرحيب الذى يتقلب فيه وهو فى المزرعة ، ومن ثم كان حريصا على الهروب من البلدة بأسرع مايستطيع عائدا الى مزرعته حيث يشعر أنه فى مثواه الحقيقى ..

وفوق هذا كله كان ديك يكره السينما .. وعندما وجد نفسه فى داخل الدار فى هذه المناسبة ، عجب ما الذى دهاه حتى وافق على الدخول .. ولم يستطع أن يجعل عينيه مركزتين على الشاشة وألفى الممثلات الفارعات الناعمات الوجوه يثرن ملله ، وبدت له القصة بلا معنى .. وكان الطقس حارا وخانقـا .. وبعـد برهـة تجاهل الشاشة تماما وراح يدير النظر فى المتفرجين .. من أمامه وفيما حوله ومن خلفه صـفوف وصفوف من النـاس يحدقون فى الشاشة – مئات من الناس « طـاروا » من اجسادهم وغدوا يعيشون حيوات أولئـك البلهاء الماثلين امامهم ، حتى زاد قلقـا وضيقا ! ..

ثم أشعل سيجارة ، وجعل يحدق فى الستائر المخملية التى تحجب أبواب الخروج ... وبينما هو ينظر على امتداد الصـف الذى جلس فيه ، أبصر شعاعا من الضوء سقط من مكان ما فوقه ، كشف عن استدارة خد ولفائف من شعر نسائى أشقر لامـع .. لقد بدا له الوجه كأنه يطفو ، مشبعا فى تطلعه بالحنين ، مموها بلون وردى مذهب فى الشعاع المخضر الغريب .. فلم يتمـالك أن وكز صاحبه وسأله : « من هذه ؟.. » .. فأجابه متبرما بعد نظـرة قصيرة : « مارى » .. لكن هذا الاسم لم يشف غليل ديك ، ومضى يحدق فى ذلك الوجه السابح الجميل والشعر المرسل ، وبعد انتهاء العرض راح يبحث عنها مسرعا فى غمار الخارجين من دار السينما ..

بيد أنه لم يستطع رؤيتها ، وتصور على نحو غامض انها ذهبت مع شخص ما ... وفى النهاية اركبوا معه فى السيارة فتـــاة لايصالها الى منزلها لم يكد يوجه اليها نظره ، وان بدت له ملابسها وكعبها العالى الرنان مثيرة للضحك .. وفى الطـريق نظـرت

الفتاة من فوق منكبها الى الاكوام المكدسة فى السيارة خلف المقعد الامامى وسألته بكلمات متسارعة ولهجة متكلفة :

ـ ماهذه الاشياء العجيبة فى الخلف ؟..

فقال لها :

ـ ألم تر فى حياتك مسحاة لتسوية التربة ؟ ..

ولم يلبث ان أنزلها ، غير آسف فى المكان الذى تقيم فيه ـ مبنى كبير مليء بالأنوار والناس .. وعلى الاثر نسيها تماما ..

غير انه غدا يحلم بالفتاة ذات المحيا الفنى المتطلع والشعر المموج اللامع .. كان ترفا أن يحلم بامرأة ، وهو الذى حرم على نفسه شيئا كهذا .. لقد بدأ العمل فى مزرعته منذ خمس سنوات ، ولم يستطع حتى الان أن يجعلها تدر عليه أى كسب .. وقد اصبح مدينا لبنك الاراضى ، وغدت المزرعة مرهونة ، اذ لم يكن لديه رأس مال على الاطلاق عندما بدأ العمل .. ثم انه تخلى عن التدخين والشراب وكل شيء نسيا عدا الضروريات .. وراح يشتغل بكل طاقته منذ السادسة صباحا حتى السابعة ليلا ، متناولا طعامه فى الحقول ، مركزا كل جهده على المزرعة .. وكان حلمه الأوحد هو أن يتمكن من الزواج ويكون له أطفال ، لولا أنه لم يكن باستطاعته أن يطلب من امرأة مشاركته مثل هذه الحياة .. واول ماينبغى عليه هو أن يتخلص من الديون ، ويقيم له بيتا ، وتتهيأ له بعض مناعم الحياة اليسيرة .. وبعد ان تحامل على نفسه واضناها فى هذا العمل الشاق كان الحلم الذى ظل يراوده هو أن تكون له زوجة يدللها .. وفى خلال ذلك كان يعرف تماما نوع البيت الذى يريد أن يبنيه : ليس من نوع تلك الابنية المكتلة التى تلصق فوق سطح التربة الزراعية ، وانما هو بيت فسيح الارجاء به شرفات مكشوفة فى الهواء الطلق ، وسقوفه من اعواد الحشائش الفارعة التى تجاوز اطوال الرجال .. ولكن بدا له احيانا انه بعيد كل البعد عن تحقيق مايريده .. فقد كان سوء الحظ حليفه الدائم حتى اطلق عليه جيرانه فى المزارع المجاورة اسم « ايوب المبتلى » ، اذ كانت الرياح اذا هبت تلقى هو عنفوانها قبل الآخرين ، وكانت الامطار اذا هطلت غزيرة غدت مزرعته مثل أرض المستنقعات .. فاذا قرر ان يزرع القطن لاول مرة كسدت سوق القطن فى عامه ذاك ، واذا لاحت نذر اسراب الجراد فى الجو ايقن بقدرية غريبة انها ستهاجم اول ما تهاجم

بشائر حقل الذرة في مزرعته .. ثم ان حلمه أصبح في العهد الاخير ابعد منالا واقل بهرا .. كان وحيداً ، ويريد زوجة ، وفوق كل شيء اطفالا ، وطبقا لما كانت الامور تسير أمامه فلسوف تمضي سنوات قبل ان يتم له مايريد ..

ومع ذلك فقد خامره الامل بانه لو استطاع أن يسدد بعض ديونه ويضيف غرفة في بيته ويقتني بعض الاثاث ، فربما تهيأ له ان يفكر في الزواج .. وفي خلال ذلك كان يفكر في فتاة السينما .. فقد اصبحت بمثابة البؤرة في عمله وتصوراته .. وراح يلغى نفسه من اجل هذا ، اذ كان يعرف ان التفكير في النساء ، وخاصة امراة بعينها ، هو من المحاذير الخطرة مثل معاقرة الخمر .. وبعد مضى شهر على زيارته للبلدة ، الفى نفسه يخطط لزيارة أخرى .. ولم يكن ذلك ضروريا وكان يعرف هذا .. ولكنه استسلم لهذا الاغراء .. وفي البلدة اتم بسرعة المهمة اليسيرة التى جاء من أجلها وراح يبحث عمن يدله على اسم ماري كاملا ..

وعندما اوقف سيارته أمام المبنى الكبير عرفه في الحال ، بيد أنه لم يربط الفتاة التى اوصلها الى مقرها تلك الليلة بالفتاة التى استأثرت بلبه في السينما .. وحتى عندما خرجت الفتاة الى باب المبنى ووقفت في الردهة لترى من جاء يسال عنها ، فانه لم يعرفها ... رأى أمامه فتاة طويلة نحيلة ذات عينين زرقاوين وشعر معقود حول رأسها ... وكانت الفتاة ترتدى بنطلونا ، وهو يرى ان النساء لابسات البنطلون تبدين في نظره ابعد عن الانوثة بعدا شاسعا .. فهو من ارباب العقلية القديمة .. ثم سمعها تقول له :
« هل تبحث عنى ؟ » ..

لقد قالتها في حيرة واستحياء ، وفي الحال تذكر ذلك الصوت الساذج الذى ساله عن مسحاة تسوية التربة في السيارة حتى جعل يحدق اليها غير مصدق .. لقد شعر بخيبة أمل بالغة حتى بدأ يتلعثم ويتململ في وقفته .. ولم يلبث أن بدا له أنه لا يستطيع الوقوف هكذا الى الابد ، متحملقا فيها ، فسألها أن تركب معه فترة للنزهة .. ولم تكن الامسية وقتها طيبة .. وقد خامره الغضب لانخداعه وضعفه .. واما هي فكانت مزهوة ولكن مندهشة تتساءل لماذا سعى الى صحبتها في السيارة ، مذ رأته الآن لا يتكلم ، واخذ يقود السيارة في غير وجهة ولا هدف حول البلدة .. لكنه اراد ان يجد فيها الفتاة التى ظل طيفها يراود خياله ، وقد تحقق

له هذا وهو بسبيل اعادتها الى مقرها .. والواقع انه راح يختلس النظر اليها وهما يمران بمصابيح الشوارع ، وبدا له الآن كيف ان شعاع ضوء خادع قد خلق شيئا جميلا وغريبا من فتـاة عادية وليست موفورة الجاذبية .... ثم لم يلبث ان بدأ يميل اليها .. كان لازما له أن يحب امرأة ، فهو لم يدرك قبل الآن مدى وحدته .. وعندما تركها فى تلك الليلة كان ذلك على أسف منه ، كمدا أنه سيعود مرة أخرى قريبا ...

وبعودته الى المزرعة اخذ فى العمل اخذا شاقا عنيفا ... ان مافعله خليق ان ينتهى به الى الزواج ان لم يلزم الحذر ، وهو مالا يحتمله .. فهذه اذن هى نهاية المغامرة ، وله أن ينسى الفتاة ، وينزع المسألة كلها من ذهنه .. وفضلا عن هذا ، فما الذى يعرفه عنها ؟.. لا شىء بتاتا !.. فيما عدا مابدا له ظاهريا من أنها فتاة مدللة مرفهة ! .. هى من النوع الذى لايمكن أن يشارك مزارعا فى حياته العاتية الشاقة .. بهذا راح يجادل نفسه ، متفانيا فى العمل بأشق مما فعل فى أى وقت مضى ، مناجيا نفسه أحيانا بمثـل هذا التفكير : « على أى حال ، اذا جاء المحصول طيبا هذه السنة ، فقد أعود اليها واراها » .. ودرج فى خلال ذلك على السير عشرة أميال فى ارجاء المروج محتقبا بندقيته بعد انتهاء عمله اليومى لكى ينهك نفسه .. فنال منه هذا حتى غدا ناحلا كأنه انسان مأخوذ .. وظل شهرين يكافح نفسه ويغالبها ، الى أن ألفاه أخيرا ذات يوم وهو يعد السيارة للذهاب الى البلدة ، وكان كل ما أضنى به نفسه لم يكن الا درعا يخفى به عن نفسه نيته الحقيقية ومقصده المستتر الكامن .. وفيما كان يرتدى ملابسه راح يصـفر فى مرح شابه الخجل ، وانطبعت على وجهه ابتسامة يسيرة تشـف عن الانهزام ...

أما عن مارى فان ذينك الشهرين كانا بمثابة كابوس طويل .. انه جاء طول الطريق من المزرعة بعد أن قابلها مرة مدى خمس دقائق، وبعد ان امضى معها امسية واحدة ، رأى انها لا تستحق أن يعود اليها .. الا ان اصدقاءها على حق ، فهناك شىء ينقصها .. هناك شىء مختل عندها .. غير أنها تعلقت بالتفكير فيه ، على الرغم ممـا كانت موقنة منه من انها مخلوقة فاشلة مضحكة لايريدها احد .. وقد عدلت بعد عن الخروج فى الامسيات ، ولزمت غرفتها تنتظر أن يزورها .. وكانت تجلس الساعات والساعات وحدها ، مشلولة

التفكير شقاء وضنى .. وفي الليل كانت تخالطها أحلام قاتمة ترى فيها نفسها وهي تكافح لشق طريقهـــا بين الرمال ، أو ترتقي سلالم لا تلبث أن تتهادى بهـا اذا وصلت الى القمـة ، منحـدرة الى القاع ..!

فاذا استيقظت في الصباح كانت مكدودة مغمومة ، لا قوة لها لمواجهة نهارها .. وما كان من رئيسها الذي اعتاد منها النشـــاط والدأب الا ان طلب اليها ان تأخذ اجازة والا تعود الا بعد ان تشعر بأنها احسن حالا .. فتركت المكتب شاعرة بأنها طردت « وان كان مسلكه مثال الكياسة حيال تدهور حالتها على هذه الصورة » ، وبقيت طول نهارها في النادي .. فلو أنها مضت في أجازة فقد تفقد ديك تيرنر .. ومع ذلك ، فما هو ديك بالنسبة اليها حقا ؟.. لا شيء .. انها لم تكد تعرفه .. هو مجرد شاب نحيـل لفحت الشمس وجهه ، اقتحم عليها حياتها كحادث مفاجيء ، وهذا هو كل مايمكن أن تقوله عنه .. ومع ذلك فلها أن تقول انه من أجله صيرت نفسها الى هذه الحال والى هذا السقم .. ان كل ماهي فيه من قلق واضطراب أعصاب يتركز حوله ، وعندما ساءلت نفسها في اشد الحزع لماذا يكون هو بالذات وليس أي أحد غيره من الرجـال الذين تعرفهم ، لم تجد جواباً شافياً مرضياً ..

وبعد أسابيع تخلت عن الامل ، وذهبت الى الطبيب بعد أن قيل لها انه لابد لها من اجازة في الحال اذا أرادت أن تتفادى انهيارا كاملا .. والواقع أنها وصلت الى درجة من التعاسة جعلت مـن المستحيل عليها أن تقابل أي واحد من أصدقائها القدماء ، بسبب ما استحوذ عليها من اعتقاد جازم بأن صداقتهم ليست سوى رداء يخفي تقولاتهم الخبيثة ونفورهم الحقيقي منها — وعند ذلك فقط دعيت الى باب النادي ذات مساء مرة أخرى .. وقتها لم تـكن افكر في ديك .. وعند مشاهدته استعانت بكل ماتملك من رباطـة جاش لكي تحييه بهدوء .. فلو أنها ابدت أي تأثر او انفعال فربمـا نفض يديه منها .. والواقع أنه اقنع نفسه بأنها انسانة عملية قابلة للتكيف ، لن تحتاج الا الى اسابيع قلائل في المزرعة لكي تصبـح مايريدها أن تكون عليه .. ولو أنها قابلته بدموع هستيرية لصدمته وافسدت صورتها عنده ...

وهكذا عرض عليها الزواج بعد أن تجلى له هدوؤها وطوالعها الاموية .. وكان امتنانه لا حد له عندما قبلته زوجا .. وتم عقـد

زواجهما بعد اسبوعين من ذلك اللقاء الاخير .. والواقع ان ما أبدته من رغبة فى التعجيل بالزواج قد اثار دهشته ، اذ كان يرى فيها امراة ذات ارتباطات اجتماعية مرموقة ، وقدر أنها ستحتاج الى بعض الوقت لترتيب شئونها .. وكانت فكرته هذه عنها جزءا من جاذبيتها له .. غير ان الزواج العاجل صادف هوى عنده وكان مطابقا لخططه .. اذ كان يكره فكرة الانتظار فى البلدة ريثما تنهمك العروس فى اعداد الملابس واختيار المدعويين .. بل انهما استغنيا عن شهر العسل .. فقد صارحها بأنه من العسر وضيق ذات اليد بحيث لا تحتمل موارده هذا التقليد المتوارث ، ذلك وان أصرت ، فهو على استعداد لبذل كل مافى طوقه .. لكنها لم تصر .. وكان ارتياحها بالغا للافلات من شهر العسل ..

الفصل الثالث

كانت المسافة بين البلدة والمزرعة طويلة بالغة الطول ، تزيد على مائة ميل .. وعندما أخبرها انهما وصلا أخيرا ، كان الوقت في ساعة متأخرة من الليل .. فاستيقظت ماري حيث كانت نصف نائمة لمشاهدة المزرعة .. ابصرت أشكالا قاتمة لاشجار راطئة ، وفيما بعدها سماء غائمة تناثرت بين غيومها النجوم .. ان الجهد العصبي الذي استهدفت له خلال الشهور الاخيرة قد استحال الى لون من اللامبالاة ، وقد رحبت الآن بأن تعيش في سكينة وهدوء ولو التماسا للتغيير .. وقالت لنفسها بعزم أن الحياة قرب الطبيعة وبين احضانها كفيلة بأن تنسيها متاعبها الماضية .. ومهما يكن من هواجسها ، فسوف تكون على اي حال سيدة نفسها ومالكة زمام أمرها .. فهذا هو الزواج ، وهو ماقال اصدقاؤها انهم تزوجوا من أجله : ان يكون للانسان بيته الخاص ، والا يكون لاحد سلطان عليه يطالبه بأن يفعل هذا ويدع ذاك .. ولسوف تكون سعيدة بالزواج حقا ..

وتوقفت السيارة أخيرا ، فنشطت نفسها .. كان القمر قد احتجب خلف سحابة كبيرة بيضاء مضاءة ، وساد ظلام كثيف فجأة ... وقامت في كل ماحولها أشجار قصيرة النمو التفت حول الساحة الصغيرة المكشوفة التي وقفت فيها السيارة لدى بيت صغير مربع يعلوه سقف من صاج معرج اخذ يبرق الان في ضوء القمر البازغ وئيدا من خلف السحب ويغمر الساحة بضيائه .. فنزلت ماري من السيارة ووقفت تراقبها وهي تستدير الى خلف البيت ، وراحت تجيل النظر حولها وهي ترتعد يسيراً بهبوب لفحة خفيفة من هواء لا بارد سرى من بين الاشجار .. ورغم السكون السائد فقد ترامى الى سمعها اصوات صغيرة لا عداد لها منبعثة من صميم الغابة القريبة ، وكأنها جحافل من الكائنات الغريبة كانت صامتة تراقب قدومهم ثم استأنفت سيرتها الاولى في الطنين والازيز ..

وعادت بنظرها الى البيت ، فبدا لها موصدا ومظلما ومحتبسا فى ذلك الضياء المتدفق من القمر .. ولمحت سداً من احجار تبرق امامها ، فتقدمت بمحاذاته ، مبتعدة عن البيت فى اتجاه الاشجار التى بدت متطاولة باقترابها منها .. وفجأة انبعث صوت طائر غريب ، صوت ليلى وحشى ، فلم تتمالك أن قفزت عائدة أدراجها مرتاعة ، وكأنما اجتاحتها هبة انفاس عاتية جاءت من عالم آخر ، من بين الاشجار .. وفيما هى تتعثر فى خطاها بكعوبها العالية فوق الارض غير الممهدة وتستعيد توازنها ، تعالى نقيق دواجن ايقظها انوار السيارة ، فكان فى هذه الاصوات المنزلية ما أذهب عنها الروع ورد اليها السكينة ..

وتوقفت امام البيت ثم مدت يدها لملامسة اوراق نبات قائم فى علبة معدنية فوق حاجز الشرفة . وعندما جذبت يدها كانت مشبعة بأريج « الجيرانيوم » الاحمر .. وعلى الاثر لاح ضوء مربع فى حائط البيت ، وابصرت قوام ديك الطويل منحنيا فى الداخل ، مظللا فى ضوء الشمعة التى أمسك بها امامه .. فارتقت درجات السلم الى الباب ، ووقفت تنتظر .. ومالبث ديك أن اختفى مرة ثانية ، تاركا الشمعة فوق الطاولة .. وبدت الغرفة فى الضوء المصفر القاتم صغيرة جدا ، وواطئة جدا ، ومن حولها انبعثت رائحة عطنة قوية ، كأنها رائحة حيوانات .. ومالبث ديك ان عاد ممسكا بعلبة كاكاو عتيقة مجعولة عند حافتها كقمع ، وصعد الى ما فوق الكرسى تحت المصباح المعلق لمئه .. وفى هذا تساقط زيت البرافين منسكبا الى الارض ، حتى شعرت مارى بالغثيان من قوة الرائحة . ثم اتقد الزيت وتراقص اللهب بعنف ، الى ان استقر فى صورة شعلة صفراء معتدلة .. واستطاعت مارى الآن ان تبصر جلود الحيوانات المتناثرة فوق طوب الارضية الاحمر : جلد قط وحشى او فهد صغير ، وجلد وعل ضخم .. ولم تلبث أن جلست وهى فى حيرة من غرائب هذا كله .. وكان ديك يراقب وجهها ، كما ايقنت توقعا لعلائم خيبة الامل ، فتكلفت الابتسام ، وان شعرت بالضنى من هذه النذر : هذه الغرفة الضئيلة الفاسدة الهواء ، وارضية الطوب العارية ، والمصباح الزيتى المتسخ كانت كلها شيئا لم تكن تتصوره ...

واما ديك الذى خامره الارتياح فيما يظهر ، فقد ابتسم لها امتنانا ، وقال :

ـ سأعد الشاى ..

واختفى مرة أخرى .. وعندما عاد كانت واقفة ، قرب الحائط تنظر الى صورتين معلقتين فوقه .. احداهما صورة سيدة بيدها وردة مما يلصق فوق علب الشيكولاته والثانية صورة طفلة تناهز السادسة ، منتزعة من تقويم ..

لقد احمر وجهه حين رآها ، وانتزع الصورتين قائلا وهو يمزقهما :

ـ أنا لم انظر اليهما منذ سنوات ..

فعاجلته قائلة :

ـ لكن دعهما ..

لقد شعرت أنها أقحمت نفسها على حياة هذا الرجل الخاصة .. ان هاتين الصورتين زودتاها لاول مرة بنظرة نفاذة الى دخيلته والى وحدته ، وجعلتاها تفهم لهفته للتقرب منها وحاجته العمياء اليها .. بيد أنها شعرت بالغربة نحوه ، وبعدم القدرة على ان تكيف نفسها طبقا لحاجته .. وعندما نظرت الى الارض ورأت صورة وجه الطفلة الجميل تحف به خصلات الشعر ملقاة على الارض ، لم تتمالك الا أن التقطتها ، مقدرة انه لابد أن يكون شغوفا بالأطفال .. انهما لم يتناقشا فى موضوع الاطفال ، فلم يكن أمامهما وقت لمناقشة الكثير .. وقد اتجهت بنظرها للبحث عن سلة للأوراق المهملة ، اذ كان يسوؤها أن ترى القصاصات على الارض ، ولكن ديك أخذ الصورة منها ، وكورها والقى بها فى الركن ، قائلا فى خجل :

ـ بالأمكان أن نضع بديلا للسلة ..

هكذا بدا أمامها خجولا ، متوقيا كل شيء أمامها ، مستعطفا ، وهو ما يجعلها لا تفكر فيه كرجل تزوجته وله حقوق عليها ومطالب منها ..

ثم جلست فى هدوء امام الصحفة التى جاء بها ، وجعلت تراقبه وهو يصب الشاى .. كانت الصحفة يعلوها مفرش ممزق ملوث ، وقدحان كبيران مشققان .. ومن خلال ماخامرها من امتعاض جاءها صوته قائلا :

ـ لكن هذه مهمتك الآن ..

فاخذت منه أناء الشاى وصبته وهى شاعرة بانه يراقبها مزهوا مغتبطا ..

الآن وهى هنا ـ المرأة ـ تكسو بيته الصغير العارى بوجودها ،

فانه لا يستطيع ان يملك نفسه من الفرح والابتهاج .. ولقد بدا له انه كان احمق اذا انتظر طوال ذلك الوقت ، عائشا بمفرده ، يتفكر فى مستقبل تحقق مناله بمثل هذه السهولة ..

ثم مالبث أن نظر الى ملابسها التى هى ملابس اهل المدن ، والى كعوبها العالية ، والى اظافرها المصبوغة ، واذا القلق ينتابه من جديد .. واخفاء لما عراه فقد راح يتحدث عن البيت ، فى اشفاق ، بسبب فقره ، وهو لايرفع عينيه عن وجهها لحظة ، فحدثها كيف بناه بنفسه واقام احجاره رغم أنه لايعرف شيئا عن البناء ، اقتصادا لاجور البنائين من الاهالى ، وكيف اثثه تدريجا ، اولا بسرير ينام فيه وصندوق امتعة يأكل فوقه ، وكيف ان جارا له اعطاه طاولة ، وآخر كرسيا ، وشيئا نشيئا اخذ المكان طابع البيت .. كانت الدواليب صناديق بترول طليت وغطيت بستائر من قماش مزخرف بأزهار .. ولم يكن هناك باب بين هذه الغرفة والتى تليها ، ولكن علقت مكانه ستارة من الخيش كستها زوجة تشارلى سلاتر صاحب المزرعة المجاورة بصوف أحمر واسود .. وهكذا وهكذا .. لقد جعل مارى تستمع الى تاريخ كل قطعة أثاث وقد رأت ان مابدا لها تافها وزهيدا كان عنده بمثابة انتصارات حققها ضد الشظف والمعاناة ، وبدأت تشعر انها ليست جالسة فى هذا البيت مع زوجها ، وانما كانت عبر الماضى مع امها ، تراقبها وهى تعمل بلا انقطاع على الترقيع والرتق والاصلاح — الى أن مجت هذا الكلام ونهضت فجأة قائلة بصوت أجش :

— لنذهب الى الغرفة المجاورة ..

فنهض ديك بدوره فى شيء من الدهشة والتأذى بعد أن قوطع فى أبان روايته لتاريخه ...

كانت الغرفة المجاورة هى غرفة النوم .. وكان بها دولاب معلق ، من الخيش المكسو أيضا ، وعدد من الرفوف ، وصناديق بترول اسندت مرآة فوق احدها ، والسرير الذى اشتراه ديك لهذه المناسبة ... كان السرير من الطراز العتيق ، مرتفعا وضخما — فهذه هى فكرته عن الزواج ... لقد اشتراه فى مزاد ، شاعرا وهو يدفع الثمن انه يقتنى السعادة بعينها ..

ولما ابصرها واقفة هناك ، تجيل النظر فيما حولها بوجه شارد

مؤثر ، واضعة يديها بلا وعى على خديها كانما هى فى حالة ألم ، خامره الاسف لحالها ، وتركها وحدها لكى تخلع ملابسها .. وفيما وقف هو خلف الستار لنزع ملابسه ، لم يتمالك أن شعر من جديد بلذعة تأثم مرير .. الا لم يكن له حق فى الزواج ، لم يكن له حق ، لم يكن له حق !.. بل قال هذا لنفسه همسا لكى يعذب نفسه بالتكرار .. وعندما نقر باستحياء على الحائط ودخل ليجدها راقدة فى الفراش مديرة ظهرها الى ناحيته ، اقترب منها بمزيج من الافتتان والخجل ، وهى البادرة الوحيدة التى يمكن ان تحتملها منه ...

وفى النهاية شعر ديك بالمهانة لما بدا له من فتور عواطفها ... وعندما استدار لاطفاء النور ، كرر لنفسه مرة أخرى قولته السابقة لم يكن لي حق ! ..

أما مارى فقد جعلت ترأقب لهب المصباح الخابى متراقصا فوق الحوائط والسقف وزجاج النافذة البارق ، ولم تلبث أن استسلمت للنوم ممسكة بيده . كما تمسك بيد طفل شعرت أنها جرحته ..

الفصل الرابع

عندما استيقظت ماري ألفت نفسها وحيدة في الفـراش ، وسمعت قرع ناقوس في مكان ما خلف البيت .. وصافح بصـرها ضوء رقيق ذهبي فوق الاشجار من خلال النافذة ، مع بقع خفيفة وردية من ضوء الشمس فوق الجدران البيضاء كشفت عن الطلاء المحبب الخشن ... ولم تمض دقائق حتى عاد ديك تيرنر مـرتديا بيجامته ولامس خدها بيده حتى لقد شعرت في بشرتها بلذع برودة الصباح المبكر ..

ـ هل نمت جيدا ؟..

ـ نعم .. شكرا ..

ـ سيأتي الشاي حالا ..

كان مسلكهما حيال بعضهما موسوما بالادب ، والتحفظ من جراء ماكان في ليلتهما الفائتة .. ومالبث ان جلس على طرف الفراش وهو يأكل بعض البسكويت .. وبعد برهة جاء زنجي متقدم في السن حاملا صفحة وضعها على الخوان .. فقال له ديك :

ـ هذه هي السيدة الجديدة .. وهذا هو سامسون ياماري ..

ظل الخادم خافضـا بصره الى الارض وهو يقول : صباح الخير ياسيدتي ..

ثم أضاف قائلا لديك وكأنما كان منتظرا أن يقولها :

ـ لطيفة جدا .. لطيفة جدا يا « ريس » ..

فضحك ديك قائلا :

ـ انه سيقوم بمطالبك .. هو خنزير لا باس به ..

تأذت ماري بهذه اللهجة السوقية ، ثم أدركت أنه مجرد حديث معتاد ، وعادت الى هدوئها .. على ان ذلك لم يدفع عنها السخط في دخيلتها ، اذ قالت لنفسها : « ومن يكون هو نفسه ، حتى يكون هذا هو رايه في الناس ؟ .. » .. ولكن ديك كان غافلا عما خامرها وكان سعيد بغفلته ...

وقد شرب قدحين من الشاي في عجلة ، ثم خرج لارتداء ملابسه

وعاد لابسا قميصا وبنطلونا قصيرا من الخاكى لكى يودعها قبل ذهابه الى أراضي المزرعة ..

وبعد ذهابه نهضت ماري هى أيضا وراحت تدير النظر فيمـا حولها .. كان سامسون ينظف الغرفة التى دخلا اليها أولا فى الليلة الماضية بعد ان نقل كل أثاثها الى الجزء الاوسط ، وهكذا مـرت بجانبه الى الشرفة الصغيرة التى كانت مجرد امتداد للسقف الحديدى مدعما بثلاثة أعمدة من الطوب ومسورة بحائط واطىء .. وكان بها بعض صفائح البترول مطلية بلون اخضر مشـــقق ، وبهـا بعض الشجيرات المزهرة ومنها ازهار الجيرانيوم .. وفيما أمام ســور الشرفة امتدت رقعة من الرمال الباهقة ، ثلثها منطقة شـجيرات قصيرة اخذت تنحدر عند حافتها الى مرج مكسو بأعشاب طـويلة زاهية الخضرة ، ومن وراء المرج امتدت الشجيرات القصيرة متدرجة حتى الافق .. ولم تتمالك ماري أن قالت لنفسها : « ســيكون الطقس حارا هنا ، فى هذه المنطقة المحتبسة » ... وفى خلال ذلك لم تنقطع الطيور عن الزقزقة بأصوات جماعية حادة لم تسمع ماري مثلها من قبل ..

ودارت ماري حول البيت حتى وصلت الى الجانب الخلفى .. كان المطبخ خلف الغرفتين اللتين رأتهما فى الواجهة الامامية ، بالاضافة الى مخزن التموين والحمام ودورة المياه .. وفى جـانب من المكان قامت حظيرة دجاج مسورة بالاسلاك مليئة بدجاج ابيض وعن كثب منها رقعة ارض جرداء تناثرت فيها ديوك رومية تروح وتغدو باختيال ...

واخيرا دخلت الى البيت عن طريق المطبخ ، حيث كان يضم موقدا خشبيا وطاولة ضخمة من خشب الغابة شغلت نصف ارضية المكان ... وكان سامسون فى غرفة النوم يرتب السرير ..

ان ماري لم يسبق لها من قبل أن احتكت بالاهالى احتكاكا مباشرا كمخدومة مستقلة .. وكان لدى أمها خدم من هؤلاء حظر عليها ان تكلمهم .. وفى النادى كانت تعامل الخدم معاملة طيبة .. ولكن « مشكلة الزنوج » كانت بالنسبة اليها شكاوى النساء الاخريات من خدمهن فى حفلات الشاى .. كانت بالطبع تخافهم ، وكل امرأة فى جنوب افريقيا كانت تربى على هذا الخوف .. وفى طفولتهـا كانت ممنوعة من الخروج وحدها ، ولما سألت عن السبب كان يقال لها بلهجة متكتمة وصوت خفيض انهم أناس اردياء وربمـا اعتدوا

عليها اعتداء بشعا ...

وهاهي ذي الان قد تعين عليها أن تواجه هذه المشكلة : مشكلة التعامل مع الاهالي ، وعلى مسئوليتها .. بيد أنها لم تجد مفرا من معاملة سامسون باللين ، اذ كان دمث الخلق مطواعا يبدي لهـا الاحترام .. وقال لها لدى دخولها الى غرفة النوم :

هل تحب سيدتي أن ترى المطبخ ؟..

كانت ماري تؤمل ان يريها ديك نفسه المكان ، ولكنها عنـدما آنست اهتمام الخادم ولهفته لم تملك الا ان توافق .. فتقدمها سامسون بقدميه الحافيتين وصحبها الى خلف البيت ، وهناك فتح لها مخزن المئونة .. كان المستودع مرتفع النوافذ تسوده العتمة ، مليئا بالمئونة من كافة الانواع ، وبه أوعيـة كبـيرة للسكر والدقيق والاذرة ، مصفوفة على الارض ..

ولما قال لها ان المفاتيح مع السيد فهمت أن هذا الاحتياط لم يتخذ الا ضد السرقة ...

كان بين ديك وسامسون تفاهم تام .. فقد اغلق ديك كل شيء بالمفتاح ، ولكنه ترك للاستعمال بعض المقادير من كل شيء لـكي يستخدمه سامسون ، وان لم يكن ثمة مايستحق السرقة في بيت هذا الاعزب ، بيد أن سامسون توسم خيرا بعد مجيء امرأة الى البيت ...

وفي احترام ولباقة راح سامسون يفرج ماري على مفروشات البيت المتواضعة ، وعلى الاواني ، وكيفية تشغيل الموقد ، ثم مخزون حطب الوقود في الجانب الخلفي ــ كل ذلك بأسلوب المشرف الامين اذ يسلم المفاتيح الى المالك الشرعي .. كما أراها بعد سؤال منها قرص المحراث القديم المعلق في غصن شجرة غليظ مع قضيب حـديدي صدىء لقرع القرص به ــ وكان ذلك هو الناقوس الذي سـمعت ماري رنينه المدوي في الصباح ، وكان يقرع في الخامسة والنصف صباحا لايقاظ عمال المزرعة في الساحة المخصصة لنومهم قـرب البيت ، وفيما بين الثانية عشرة والنصف والثانية لفترة الغداء .. وكان للناقوس دوي متجاوب الاصداء في أرجاء الغابة ..

وعادت ماري الى البيت بينما كان الخادم يعد طعام الافطـار وقد خفتت اصوات الطيور مع تزايد الحرارة .. وما ان وافت الساعة السابعة صباحا حتى شعرت ماري بالرطوبة تعلو جبينهـا وباللزوجة في اطرافها ...

وبعد نصف ساعة عاد ديك مسرورا برؤيتها ، وان بدا منشغل البال .. فمر بداخل البيت الى الجانب الخلفى مباشرة ، وسمعته مارى يصرخ لسامسون فى المطبخ بلغة البانتو الافريقية التى لاتفهمها ثم عاد اليها قائلا :

ــ ان هذا العجوز المغفل قد سرح الكلبين مرة أخرى ، مع أننى قلت له الا يفعل هذا !..

ــ أى كلبين ؟ ..

ــ ان الكلبين يحرنان ويشردان وحدهما الى خارج البيت للصيد اذا لم أكن هنا ، وقد تركهما يخرجان ــ وفى الغابة يتعرضان للمتاعب بحثا عن الفرائس ، لان هذا العجوز اللعين يتكاسل عن اطعامهما ! ...

وجلس متثاقلا صامتا خلال الطعام .. وعندما تكلم كان كلامه شكوى متصلة مما يعانى من المصاعب فى أعمال المزرعة ، فلم تستطع مارى ان تقول شيئا ، لان كل ماسمعته كان غريبا عنها ..

وعقب الافطار أخذ ديك قبعته من المقعد وخرج مرة ثانية .. وبحثت مارى عن كتاب للطهى حتى وجدته وذهبت الى المطبخ .. وعند الضحى عاد الكلبان الضخمان فى حالة انتعاش وجعلا يتمسحان بسامسون اعتذارا عما كان منهما ، غير أنهما تجاهلا وجودها باعتبارها غريبة عن المكان .. وبعد أن شربا الى حد الافراط انسحبا والماء يقطر منهما فى المطبخ للنوم على الجلود فى الغرفة الامامية ورائحة دماء الصيد الذى فازا به فى الغابة تفوح من حولهما قوية نفاذة ..

وانتهت أخيرا تجارب مارى فى المطبخ ، تلك التى كان سامسون يراقبها فى حياء وادب ... وبعدها جلست فوق الفراش وبيدها كتاب عن اللغة المحلية ، اذ كان واضحا الان ان هذا اول شىء يتعين عليها أن تتعلمه ، بعد أن تعذر عليها التفاهم مع سامسون ..

الفصل الخامس

اشترت ماري بمالها الخاص المدخر اقمشة موشاة بالزهـــور ووسائد مكسوة ومفارش وستائر وبعض قطع الخزف .. وشيئا فشيئا تغير مظهر الفقر الكالح الذي كان عليه البيت واكتسى مسحة من الرونق المتواضع زانتها الستائر وبعض الصور .. وفي ذلك كانت ماري تعمل بجهد ودأب ، وقد راقها مابدا على وجه ديك من الدهشة والارتيــــاح كلمـا عاد من عمله ورأى كـــل تغيير جديد يطرأ على البيت ... وبعد شهر من وصولها طافت بأرجائه ، فلم تجد شيئا جـديدا يمكن اضافته ... ثم ان النقود لم يبـق منها شيء ..

لقد اندمجت بسهولة ويسر في حياتها الجديدة ، وكان التغيير الذي طرأ على حياتها شاملا حتى خيل اليها انها استحالت الى شخص جديد ...

كانت تستيقظ كل صباح على صوت الناقوس المصطنع ، وتشرب الشاي مع ديك في الفراش .. وبعد ذهابه الى المزرعة كـانت تخرج مقادير البقول اللازمة لطعام اليوم .. وكانت تدقق في هـذا تدقيقا شديدا الى حد ان سامسون وجد الامور تسوء بدلا من ان تتحسن ، فان نصيبه من المئونة الذي كان يترك له ضـمنا قـد رفع ، والفى ماري تعلق مفاتيح المخزن في حزامها ...

وبانتهاء موعد الافطار كان كل عمل يلزمها أداؤه قد تم ، فيما عدا الطهي .. لكن سامسون كان امهر منها في هذا ، وبعـد فترة تركت له هذا العمل .. وهكذا كانت تخيط طيلة الصباح حتى موعد الغداء ، ثم تستأنف الحياكة بعد ذلك ، وبعد العشاء تمضي الى الفراش مباشرة ، فتنام مثل طفل طيلة الليل ..

وفي الفترة الاولى من هذا النشاط والعزم شعرت بانها تستمتع بهذه الحياة الجديدة ، وطاب لها على الاخص ماكان يبديه ديك من ارتياح واستحسان لعملها ، اذ لم يكن يصدق بأن بيته الموحش يمكن ان يبدو بهذا الطابع المبهج . والواقع ان زهوه وامتنانه لهذا التطور

الجديد فى حياته قد طغى على احساسه بخيبة الامل والاحباط اللذين لابسهما في ليلته الاولى .. وعندما كانت مارى تلمح علامات المضض والحيرة التى كانت ترتسم على وجهه ، كانت تعرض عن التفكير فى مدى مايقاسيه من جراء ذلك ، اذ كانت الذكرى تجعله مبعث نكورها وكراهيتها من جديد ..

وبعد أن فعلت كل ما أمكنها فعله للبيت ، بدأت فى صنع ملابس لها .. فاعدت جهاز عروس كاملا ، وأن لم يكن مكلفا .. ثم وجدت بعد شهور قلائل من الزواج انها لا تجد شيئا آخر تفعله .. ألفت نفسها فجأة غير مشغولة بشيء يوما بعد يوم .. وباحساس غريزى بخطورة الكسل والفراغ عادت الى ملابسها الداخلية ، وكان هذا ينقذ حياتها من الضياع .. وكانت فى الحق ماهرة فى الحياكة والتطريز ، وقد توصلت الى نتائج باهرة ، حتى أن ديك اطرى عملها ، اذ كان يتوقع فترة صعبة قبلما تستقر مارى فى حياتها الجديدة ، ظنا منه بأنها ستجد هذه الحياة الموحشة المتوحدة شاقة عصية على الاحتمال .. بيد انها لم تظهر اية دلائل على شعورها بالوحدة ، وبدا انها راضية تماما بأن تعكف على الحياكة طوال النهار ... وخلال هذه الفترة كان يعاملها معاملة الاخ لاخته ، اذ كان رجلا وافر الاحساس ، وكان ينتظر منها ان تثوب اليه من تلقاء نفسها وبدافع من عواطفها ..

وفى الحق ان ارتياحها الذى لم تستطع اخفاءه من ان اعزازه لها لم يكن أكثر من مودة وتعاطف قد آذى شعوره عميقا ... بيد أنه ظل يفكر أن الامور ستعود الى مسارها الطبيعى فى النهاية ....

ثم انتهت عملية الحياكة والتطريز هى الاخرى ، ومن جديد الفت نفسها خالية اليدين .. فراحت تتلفت حولها التماسا لشيء تفعله ... وقد قر قرارها على أن حوائط البيت قذرة ، وان بامكانها أن تقوم بطلائها بنفسها اقتصاداً للنقود .. وهكذا ، طوال أسبوعين كاملين ، كان ديك كلما عاد الى البيت وجد الاثاث مكوما فى وسط الغرف ، ودلاء الطلاء الأبيض مصفوفة على الارض .. ولكنها كانت دقيقة منتظمة فى مهمتها ، اذ كانت لا تبدأ العمل فى غرفة الا بعد أن تفرغ من الغرفة التى شرعت فى طلائها ... وفى حين أنه اعجب بمقدرتها وتمكنها من العمل الذى اتقنته رغم عدم سابقة معرفتها وخبرتها به ، فقد انتابه القلق والانزعاج ايضا .. فما الذى

سوف تفعله وهي بهذا القدر من النشاط والاقتدار ؟.. والواقع أن ذلك نال من طمانينته وضاعف من هواجسه ، اذ شعر في قرارة نفسه ان صفاتها تلك هي ماكان ينقصه .. وسرعان مابدت الحوائط كلها زاهية باللونين الابيض والازرق ، بفضل ماري التي امضت أياما متواصلة واقفة فوق سلم خشبي ..

والآن لم تلبث أن تملكها التعب ، وحلا لها ان تكف فترة وان تمضي وقتها جالسة على الاريكة مشبكة اليدين .. غير ان هذا لم يدم طويلا .. فقد أنتابها القلق ، واشتد بها الى حد انها لم تدر ماذا تفعل بنفسها .. واخيرا عمدت الى فك ربطة الروايات التي جاءت بها وأخذت تقلبها .. كانت هذه هي الكتب التي جمعتها على مدار السنين وقراتها عشرات المرات حتى حفظتها عن ظهر قلب ، وكانت قراءتها في الماضي بمثابة مسكن لها وملطف لاعصابها ... اما الان وهي تقلب صحائفها فقد تملكها العجب من انها فقدت متعتها السالفة .. كان ذهنها يشرد وهي تقلب الصفحات ، ولم تلبث بعد قراءة نحو ساعة ان ادركت انها لم تستوعب كلمة واحدة ... فالقت الكتاب من يدها ، وجربت كتابا آخر ، ولكن بنفس النتيجة .. ومضت أيام تناثرت فيها الكتب في أرجاء البيت ..

اما ديك فقد سر من هذا .. لقد ازدهاه انه تزوج امرأة تقرا الكتب .. وذات مساء تناول كتابا بعنوان « السيدة الجميلة » وفتحه في منتصفه ليقرا فيه على مسمع من ماري ، غير انه القاها تحدق في السقف ساهمة ، ثم ابتدرته متململة :

ــ الا ايمكن أن يكون لنا سقف طبيعي ياديك ؟..

فاجاب متشككا :

ــ أن هذا سيكلفنا الكثير .. ربما نفعل هذا في السنة الاتية ، اذا تحسنت الاحوال ..

مهما يكن فما هي الا ايام قلائل حتى جمعت ماري الكتب ووضعتها جانبا ، فلم تكن هي ماتريده .. وعادت الى كتاب الطهو مرة أخرى تمضي كل وقتها عاكفة عليه ، مجربة وصفاته في المطبخ ، مضايقة سامسون بانتقادات لا تنقطع ..

بيد أن سامسون بدا يشقى بهذا .. فقد ألف ديك واعتاد اطواره وكان بين الاثنين تفاهم طيب .. صحيح ان ديك كان يسخط عليه احيانا ، ولكنه كان يضحك معه فيما بعد .. اما هذه المرأة فلا تضحك ابدا .. بل كانت تدقق وتقتر في تقدير مقادير الذرة والسكر

مما يلزم لاعداد الوجبات ، ثم تراقب المتبقى منها فى حرص بالغ حتى ولو كان قطعة بطاطس او كسرة خبز ، سائلة عنهـــا اذا افتقدت وجودها ...

واذ نغصت عليه هذوءه على هذا النحو فقد خامره الضـيق والضجر ، وتكرر الشجار فى المطبخ ، حتى جاء يوم وجد فيه ديك زوجته دامعة العينين .. فقد اعدت مقدارا كافيا من الزبيب لعمل « بودينج » ، ولكن عند الاكل لم تكد تجد زبيبا كافيا .. وانكر سامسون انه سرق الزبيب ..

فقال ديك متفكها :

ـ ياللسماء ! .. حسبت ان شيئا جسيما حدث !..

فقالت مارى منتحبة :

ـ ولكننى متأكدة انه سرق الزبيب ..

ـ ربما فعل هذا .. لكنه خنزير طيب برغم كل شيء ..

ـ سأخصم القيمة من أجرته ..

فقال ديك وقد ادهشه انفعالها هذا ، اذ كانت هذه هى المرة الاولى التى رآها فيها تبكى :

ـ اذا رايت ان هذا ضرورى ...

وعلى هذا فقد تم فعلا خصم شلنين من أجر سامسون الذى كان يحصل على جنيه فى الشهر .. وقد تلقى البيان بوجه عابس دون ان يقول لها شيئا ، متجها باستعطافه الى ديك ، الذى قال له ان عليه ان يتلقى الاوامر من مارى .. وفى مساء نفس اليوم أخطرهما سامسون بانه ذاهب ، على اساس ان ذويه فى حاجة الى وجوده .. فأخذت مارى تستجوبه مشددة عن سبب هذه الحــاجة ، بيد ان ديك لمس ذراعها محذرا ، هازا راسه ...

فقالت له مارى :

ـ ولماذا لا اساله ؟.. انه يكذب .. اليس كذلك ؟..

فأجاب ديك مستاء :

ـ هو يكذب طبعا .. لكن هذا ليس لب الموضوع .. لا يمكنك استبقاءه ضد رغبته ..

فقالت مارى :

ـ ولماذا يجب ان اقبل كذبه .؟. لماذا ؟.. لماذا لايقول صراحة انه لا يحب الشغل معى ، بدلا من الكذب بخصوص أهله ؟..

هز ديك كتفيه وهو ينظر اليها بنفاد صبر .. انه لم يستطع ان

يفهم الحاحها غير المعقول .. كان يعرف كيف يتعامل بنجاح مع الاهالى ... ان التعامل معهم كان أحيانا شيئا طريفا ، واحيانا اخرى كان عملية تثير الضيق ، يتبع كل طرف فيها اساليب غير مكتوبة ..

رد عليها ديك بمضض ، ولكن فى مودة :

ـ لو جاوبك بصراحة لاغضبك .

والواقع أنه لم يستطع ان يعاملها بجدية ، اذ كانت تبدو له كطفلة عندما تتصرف على هذا النحو .. ثم انه كان محزونا حزنا صادقا من ان هذا المواطن الكهل الذى عمل له كل هذه السنين سيتركه الآن ...

قال لها اخيرا مفلسفا الموقف :

ـ كان يجب على أن اتوقع هذا .. كان يجدر بى ان استخدم شخصا جديدا منذ البداية .. هناك دائما متاعب مع تغيير الرئاسة ..

وقفت مارى فى المدخل تراقب مشهد الرحيل لدى السلم الخلفى وقد تملكها العجب ، بل النفور .. لقد بدا لها ديك محزونا وهو يرى نهاية هذا الخادم .. انها لم تستطع ان تفهم ان يشعر اى شخص ابيض بشعور ذاتى حيال احد الاهالى ، وقد استبشعت هذا من ديك .. ثم سمعته يقول للرجل :

ـ عندما تنتهى عمليتك هناك ، الا تعود الينا وتعمل لنا من جديد ؟ .

فرد الرجل قائلا وهو يستدير للابتعاد :

ـ نعم يا « ريس » ....

ورجع ديك الى داخل البيت صامتا مكتئبا وهو يقول :

ـ انه لن يعود ..

فقالت مارى بحدة وسخط :

ـ هناك الكثيرون غيره ، اليس كذلك ؟..

فوافقها قائلا :

ـ نعم .. نعم بالطبع ..

ومضت عدة ايام قبلما جاء طاه جديد عارضا نفسه للعمل ، وتولت مارى ذاتها شئون البيت .. لقد وجدتها ثقيلة بصورة لم تكن تتوقعها ، وان لم يكن ثمة عمل كثير فى الواقع .. ومع ذلك فقد احبت الاحساس بوجودها وحيدة طوال النهار ، ومسئولة عن

البيت .. وهكذا راحت تكنس وتمسح وتلمع ... وكان العمل المنزلى شيئا جديدا جدا عليها ، اذ ظلت طوال حياتها والخدم يقومون عنها بالعمل في صمت وخفة وكأنهم أطياف .. ولان هذا العمل كان جديدا ، فقد استطابته حقا ونعمت به .. ولكن بعد ان أصبح كل شيء نظيفا ولامعا ، والمطبخ عامرا بالطعام ، غدت تجلس على الاريكة العتيقة المبقعة فى الغرفة الامامية فى حالة تهالك مفاجىء وكأن قدميها قد استنزفت منهما كل قوة .. ثم كان الحر شديداً الى ابعد الحدود .. انها لم تتصور قط ان تبلغ الحرارة هذا المبلغ .. كان العرق يتدفق على جسدها طوال النهار .. كانت تشعر به ينحدر فوق أضلاعها وفخذيها تحت الملابس ، وكأنما هي نمال تزحف على بدنها .. كانت تجلس جامدة ، جامدة ، مغمضة العينين ، شاعرة بالحرارة تهبط من حديد السقف فوق رأسها .. وكم هو سيء ان تضطر الى لبس قبعة حتى فى البيت .. الا لو ان ديك كان يقيم نهاره فى هذا البيت ، بدلا من وجوده فى المزرعة طوال يومه ، اذن لعمل على اقامة سقف مبنى .. من المؤكد ان سقفا كهذا لن يكلف الكثير جدا ! .. وبمرور الايام جعلت تفكر متململة انها كانت حمقاء لانفاق نقودها المدخرة على الستائر بدلا من سقف مشيد .. لعلها لو سألت ديك مرة أخرى وبينت له مايعنيه ايجاد هذا السقف بالنسبة لها ، فربما تلين قناته ويعمل على تدبير النقود ؟ .. بيد انها كانت تعرف أنها لن تستطيع سؤاله بسهولة ، فتثير عنده تلك النظرة المعذبة التى تنطبع على وجهه .. ذلك وان كانت فى الواقع تحب فى أعماقها أن يحدث له هذا ، بعد ان ألفت تلك النظرة واستطابتها .. الم تره يمسك بيدها فى اعزاز ، ويقبلها فى خضوع ، ويقول لها مستعطفا : « حبيبتى ، هل تكرهيننى لاننى اتيت بك الى هنا ؟ » .. فتقول له : «لاياحبيبى انت تعرف أننى لا اكرهك » .. كانت تلك هى المرة الوحيدة التى تتحامل فيها على نفسها مستخدمة كلمات الاعزاز له ، اذ تشعر بانتصارها عليه وصفحها عنه .. أن تلهفه لهذا الصفح وتذلله بين يديها كان فيهما الترضية الكبرى لها ، وأن خامرها الاحتقار له من أجل هذا ..

لكن اشتداد الحرارة غدا فوق طاقة الاحتمال .. لقد تصدع رأسها ، وثقلت اطرافها ، وتصلبت عضلاتها .. ثم لاتلبث أن تتحامل على نفسها وتدلف الى غرفة النوم وتأخذ فى فحص ملابسها لترى

ان كان بها مايدعو الى التطريز او التغيير .. وبعدها تنتقل الى ملابس ديك التماسا لشيء تصلحه او ترقعه بيد أنه لم يكن يلبس شيئا سوى القمصان والبنطلونات القصيرة .. فان لم تجد ماتفعله جلست في الشرفة حينا حتى يبهر عينيها الضياء والوهج وتشعر برأسها يدور وكأنه يسيح ، فترتد الى داخل البيت لشرب كوب من الماء ..

وبعدئذ جاء الخادم عند الباب الخلفي ، طالبا العمل .. اراد سبعة عشر شلنا في الشهر .. ولكنها أنقصته شلنين ، شاعرة بالسرور لانها أنتصرت عليه .. كان قادما لتوه من « الكوال » وهي وحدة القرية في جنوب افريقيا ، وكان فتى لا يجاوز العشرين ، ناحلا شديد النحول ربما بطول المشي خلال الغابات من موطنه في نياسالند ، على بعد مئات الاميال .. وبدا عاجزا عن فهم كل ماتقول بادي اضطراب الاعصاب ، متصلب العضلات ، ظاهر الخنوع ، لا يكاد يرفع عينيه عنها .. لقد ضايقها خنوعه حتى كان صوتها جافا معه .. وقد طافت به ارجاء البيت ، ركنا ركنا ، تريه كل شيء ، بلغة المطبخ المحلية التي اتقنتها ... ووقفت تشرف عليه وهو يعد المائدة ، وأمضت طيلة بعد الظهر وهي تدربه وتشرح له وتستحثه وتنهره .. وفي تلك الليلة اعد المائدة لطعام العشاء اعدادا سيئا ، فحملت عليه بشدة في صورة أستياء وغضب حتى ان ديك جلس يراقبها في قلق .. وعندما خرج الخادم قال لها :

ـ لابد أن تأخذي الأمور بهوادة ، مع خادم جديد ..

ـ لكنني نبهته !.. اذا كنت نبهته مرة واحدة ، فهذا يوازي تنبيهه خمسين مرة ! ..

ـ لكن ربما كانت هذه هي المرة الاولى التي يعمل فيها في بيت رجل ابيض !..

ـ لا يهم .. قلت له مايجب أن يفعل .. فلماذا لا يفعل ما قلت له ؟ ...

نظر اليها مليا وقد قطب جبينه وزم شفتيه .. لقد بدت له مستاءة ساخطة الى حد كبير ، وفي غير حالتها المعهودة تماما .. وقال :

ـ ماري .. اصغي الي برهة .. اذا استسلمت للغضب بسبب الخدم ، فقد انتهى امرك .. لابد لك أن تتنازلي عن معاييرك بعض الشيء .. لابد أن تتساهلي .

ــ لن اتنازل عن معاييري .. ابدا !.. وما الذي يضطرني الى هذا ؟.. يكفيني سوءا أن ...

وترننت عن اتمام عبارتها . كانت توشك أن تقول : « يكفيني سوءا أن اعيش في مربط خنازير مثل هذا .. » ..

لقد أحس أن هذا هو ماكانت تنوى قوله ، فنكس راسه وجعل يحدق فى طبقه .. غير انه لم يعمد هذه المرة الى استرضائهـا واستعطافها .. فقد تملكه الغضب ، ولم يشعر بضرورة للخضوع او انه مخطىء ، وعندما اضافت تقول بحدة عمياء وصوت مكدود : « انني قلت له كيف يرتب المائدة » ــ لم يتمالك أن نهض عن الطعام وخرج من الغرفة ، ولمحت قدح ثقاب ووهج سيجارة اشعلت على عجل ... أهكذا !؟.. هل استاء وبلغ من استيائه أنه خالف وعده بعدم التدخين الا بعد الفراغ من العشاء ؟ .. لا بأس . له ان يستاء ماشاء له الاستياء ..

وفى اليوم التالى اسقط الخادم اثناء الغداء طبقا نتيجة ارتباك عصبى ، فبادرت مارى الى طرده فى الحال ..

ومرة اخرى كان عليها أن تقوم هى بأعمال البيت .. وفى هـذه المرة انتابها الحزن والكراهية ، والقت اللوم على الخادم الذى طردته دون أن تدفع له شيئا .. وهكذا راحت تنظف وتلمع الموائد والكراسى والاطباق فى حال من الكراهية لا مزيد عليها .. وفى نفس الوقت اضمرت فى سريرتها الا تكون مسرفة فى تحاملها على الخدم اذا وجدت واحدا آخر منهم .

وكان الخادم مختلفا تماما .. كانت له خبرة سنوات فى العمل لدى نساء البيض اللاتى كن يعاملنه وكأنه آلة ، وقد تعلم هـو ان يجعل ملامح وجهه حيادية لا تنم عن شىء ، وان يرد بصوت رقيق حيادي أيضا .. ولقد الفته يرد بصوت رقيق على اى شىء تقوله ، بعبارة : « نعم ياسيدتى ، نعم ياسيدتى » وذلك دون ان ينظـر اليها .. ولكن أثار غضبها أنه لايرفع عينيه الى عينيها ، دون أن تدرى ان هذا نوع من التأدب فى حق المخدوم .. بل ظنت ان هذا دليل آخر على طبيعة أمثاله فى الخداع والخيانة .. واحنقها انه بدا كآلة متحركة على استعداد لتنفيذ اوامرها ، حتى لقد ودت لو تأخذ طبقا وتقذفه فى وجهه لكى تجعله آدميا ومعبرا ، حتى عـن الالم ... غير انها التزمت السداد هذه المرة التزاما صارما .. وعلى الرغم من أنها لم تدعه يغيب عن عينيها لحظة واحدة ، وكانت تتبع

حركاته بعد انجاز العمل ، وتستعيده لرؤية ذرة اتربة او ادنى تبقع ـ فانها حرصت فى كل هذا على عدم التمادى الى حد بعيد .. وقالت لنفسها ان هذا الفتى يجب الاحتفاظ به .. ولكن ارادتها لم تنثن لحظة واحدة ـ مصممة على ان يفعل كل ماتقوله ، وطبقا لما تريد ، حتى فى اصغر الامور .. '

وكان ديك يرى كل هذا فى توجس متزايد .. ترى ما الذى دهاها ؟.. معه كانت تبدو على سجيتها ، هادئة ، شبه أموية .. ومع الخدم كانت مثال المشاكسة والتسلط .. ولقد سألها ، لكى يبعدها عن البيت ، أن تذهب معه الى المزرعة لترى كيف يعمل ـ اذ شعر أنها لو جاءت بقربه ولابست مشاكله ومتاعبه ، لتوثقت العلاقات بينهما .. وفضلا عن هذا فقد كان يعانى الوحدة وهو يمضى الساعات المتعاقبة فى طوافه بأرجاء المزرعة بمفرده يراقب العمال وهم يباشرون اعمالهم ..

لقد وافقت وهى أدنى الى التشكك ، اذ لم تكن تحب أن تذهب ... وفى النهاية اخذت قبعتها وصحبته فى السيارة ..

وامضت طيلة الصباح وهى تتبعه من حقل الى حقل ، وبين جماعات العمال ، وطوال ذلك كانت تشغلها فكرة واحدة ، وهى أن الخادم الجديد كان وحده فى البيت ، مطلق العنان لكل الوان العبث والسوء .. من المؤكد انه يسرق فى غيابها .. وربما أخذ يعبث بملابسها ، منقبا فى اشيائها الشخصية .. وفيما ذهب ديك يشرح لها بصبر كل مايتصل بشئون التربة الزراعية والمساقى والمصارف واجور العمال ، كانت تفكر بنصف عقلها فى ذلك الخادم وحيداً مع متعلقاتها الشخصية .. وعند عودتها فى موعد الغداء كان اول شىء فعلته هو الطواف بأرجاء البيت بحثا عن أى عمل لم يقم به ، وتفتيشا لادراجها ، التى بدأ أنها لم تمس .. ومع ذلك ، فمن يدرى ، وهو اهل للمكر والخداع ؟!..

وفى اليوم التالى ، عندما سألها ديك أن كانت تريد مرافقته مرة أخرى ، قالت له بعصبية :

ـ لا ياديك ، اذا لم تتضايق .. الحر هناك شديد جدا .. وانت معتاد عليه ..

ولكن الحرارة كانت تضنيها فى البيت ، الى حد الغثيان .. غير أنه كان لها ماتعمله فى البيت ، وهو الاشراف على الخادم ..

ويمضى الوقت كانت الحرارة لاتطاق .. حتى أن الكلبين النشيطين

كانا يتمددان طوال النهار فى الشرفة ، متنقلين من موضع الى موضع بتزايد حرارة الطوب من تحتهما .. وعندما كانا يقتربان منها لوضع رأسيهما على ركبتيهما ، كانت تبعدهما عنها ساخطة .

وفى فترة الضحى كانت تطلب من الخادم أن يحمل اليها صفيحة مملوءة بالماء ويضعها فى غرفة النوم .. وبعد ان تتأكد من ابتعاده عن البيت كانت تتجرد من ملابسها وتقف فى طشت على الارض وتصب الماء على جسدها .. وكانت قطرات الماء تتساقط على الطوب المسامى فيكون له تشيش من شدة الجفاف ..

وقالت يوما لديك :

ــ متى ينزل المطر ؟..

ــ آه .. ليس اقل من شهر ..

قال لها هذا فى يسر ، ولكن فى دهشة من سؤالها .. من المؤكد انها تعرف متى يحتمل نزول المطر ، وهى التى أقامت فى هذه البلاد اكثر منه ...

ويوما آخر قال لها ديك مقطبا :

ــ ان الماء يتناقص بسرعة ..

كان الماء يجلب مرتين فى الاسبوع من البئر الكائنة عند قاع التل فى عربة يجرها ثوران قويان ، وكثيرا ماكانت مارى تسمع صياح سائقها وهو يستحث الثورين البطيئين بسوطه الذى يدور فى الهواء دون أن يلمسهما فعلا ..

ولم يلبث ديك ان اضاف قائلا :

ــ فيم تستعملين الماء ؟ ..

فاخبرته .. فقطب وجهه .. ونظر اليها بارتياع وهو لايصدق سمعه ، وكأنما اقترفت جرما .. ثم قال :

ــ ماذا ؟ .. أتبددين الماء هكذا ؟.

فقالت ببرود :

ــ انا لا أبدده .. اننى أشعر بشدة الحرارة حتى لا يمكننى احتمالها ..

اريد أن ارطب نفسى ..

ابتلع ديك ريقه محاولا الاحتفاظ بهدوئه ، وراح يقول لها : ــ

ــ أصغى الى !.. فى كل مرة آمر باحضار الماء للبيت فى عربة المياه ، يكون معنى هذا تكليف سائق ، وعاملين للعربة ، وثورين ،

والجميع يتركون عملهم الاصلى صباحا كاملا .. ان جلب الماء يكلف نقودا .. وبعدئذ تقومين انت بتبديد المياه هكذا ! .. لماذا لا تملئين حوض الحمام بالماء وتنزلين فيه ، بدلا من تبديده ونثره هباء في كل مرة ؟ ..

اشتد سخطها .. هذه هي هشته الاخيرة التي قصمت ظهر الدابة .. فهاهي ذي تقيم هنا دونما شكوى ، تقاسي هذه المصاعب ومع ذلك لا تستطيع أن تستخدم جالونين من المياه !.. لقد فتحت فمها لكي تصرخ في وجهه ، ولكن قبلما أتيح لها ذلك ، اذا هو يتملكه الندم بسبب الاسلوب الذى أحتذاه في الكلام معها ، واعقب ذلك واحد من تلك المشاهد الصغيرة التي كانت تسرى عنها وتهون عليها هو يعتذر ويتذلل ، وهي تصفح وتعفو .

ولكن بعد ذهابه اتجهت الى الحمام والقت نظرة عليه وما زالت تمقته من اجل ماقاله .. كان الحمام ذاته حوضا ضحلا من الزنك فوق قاعدة من الطمى الجاف .. وكان سطحه كثير الخدوش ، تراكمت فيه على مدار السنين بقع من الشحم جعلته بادى القذارة ، حتى ان مارى جعلت تحدق اليه بنفور بالغ .. وعندما اقدمت على الاغتسال فيه ، ولم يكن ذلك اكثر من مرتين في الاسبوع بسبب مشاكل وتكاليف جلب المياه ، كانت تجلس منكمشة على نفسها في طرفه الاقصى ، متحاشية لمسه قدر أستطاعتها ، هاربة منه بأسرع مايمكنها .. كان الحمام عندها أشبه بالدواء الذى لابد من اخذه ، وليس متعة يستطيبها الانسان ..

ومن اجل هذا كلفت الخادم أن يحك الحوض حتى يتم تنظيفه . فظن انها تقصد الحك المعتاد ، وفرغ من المهمة بعد خمس دقائق .. وعندما ذهبت الى الحوض ووجدته على حاله أمرت الخادم ان يستمر في الحك والتنظيف الى أن يلمع تماما ..

كان ذلك حوالى الحادية عشرة صباحا ..

ولكنه كان يوما منحوسا عند مارى .. ففى هذا اليوم تم أول اتصال بينها وبين « المنطقة » في شكل تشارلى سلاتر وزوجته .. ومما يجدى في هذا المقام ان نبين بشىء من التفصيل ماحدث في ذلك اليوم ، اذ يعيننا على فهم الكثير على ضوء ماتطورت اليه القصة .. فقد توالت اخطاء مارى وعثراتها واحدة تلو الاخرى بصلابة مسلكها وشموخها وتصميمها على عدم ابداء اى ضعف او هوادة .. فعندما عاد ديك يومها وجدها تطهو في المطبخ وهى

بادية الغضب والانفعال وقد احمر وجهها وتشعث شعرها .. فسالها من سبب قيامها بعمل الخادم قائلا :

ـ أين الولد ؟..

فردت باقتضاب والكلمات تتدافع من فيها مشبعة بالغضب :

ـ ينظف الحمام ...

ـ ولم هذا الآن ؟ ..

ـ لانه قذر ..

قصد ديك الى الحمام ، فوجد الخادم منحنيا فوق الحوض وهو منهمك فى حك المعدن دون نتيجة ظاهرة .. فرجع الى المطبخ وقال لها :

ـ ولماذا هذه العملية الان ؟.. أن الحوض ظل كذلك مدى سنوات .. هكذا احواض الزنك دائما .. ليست هذه قذارة ياماري فى الحقيقة .. هو تغير اللون ..

ودون ان تنظر اليه ملأت صحفة بالطعام وانتقلت الى الغرفة الامامية قائلة :

ـ الحوض قذر .. أننى لن استخدمه ابدا حتى يصبح نظيفا بمعنى الكلمة ! .. لا استطيع ان أفهم كيف تترك أشياءك بهذه القذارة ...

فقال بجفاء وهو يخرج سيجارة بحركة آلية ويدسها بين شفتيه:

ـ انك استخدمت الحوض عدة أسابيع دون شكوى ..

بيد أنها لم ترد ..

وعندما قالت ان الطعام جاهز هز راسه وخرج عائدا الى الحقول مناديا الكلبين فى أثره .. فعندما يراها فى هذه الحال لم يكن يطيق ان يبقى عن كثب ..

ورفعت مارى الطعام دون ان تأكل هى أيضا ، وجلست تنصت الى صوت حك الحوض بالفرشاة فى الحمام ، وظلت مكانها هكذا مدى ساعتين وهى تشعر بصداع وتنصت بكل جارحة من جوارحها المتأزمة .. وعند منتصف الساعة الرابعة ساد سكون مفاجىء ، فاستقامت فى جلستها متأهبة للذهاب الى الحمام والزام الخادم بأن يبدأ العملية من جديد .. بيد أن الباب فتح ودخل .. وقال انه ذاهب الى كوخه لكى يأكل شيئا ، وانه سيواصل تنظيف الحوض عندما يرجع ...

انها نسيت كل مايتصل بطعامه .. وهى لم تفكر قط فى الاهالى بوصفهم بشراً لابد أن يأكلوا او يناموا .. فهم أما موجودون ، او غير موجودين .. اما عن كنه حياتهم عندما يغيبون عن بصرها فهى لم تتوقف لحظة واحدة للتفكير فى هذا ..

مهما يكن فقد اومأت براسها ، تأثما .. ثم خنقت تأثمها وهى تناجي نفسها : « الذنب ذنبه لعدم ابقائه الحوض فى حالة نظافة دائمة فى أول الامر » ...

وبهذا خفت حدة تأزمها العصبى بطول الانصات الى عملية التنظيف والحك ، وخرجت لكى تتطلع الى السماء .. كانت خلوا من السحب تماما .. كانت قبة واطئة من الزرقة الشاملة .. وكانت التربة الرملية الباهتة أمام البيت تعكس وهجا ضوئيا يخطف البصر ... فنقلت عينيها الى الاشجار الطابية والى ماوراءها من افدنة الحشائش المتموجة البارقة الممتدة الى التلال ... كانت حرائق المروج مشتعلة منذ اسابيع ، حتى كان بوسعها أن تذوق الدخان فوق لسانها .. وكانت أعمدة الدخان ترتفع على البعد ، فى شكل لفائف كثيفة مزرقة معلقة فى الفضاء ساكنة ، مكونة صورا معمارية معقدة فى الهواء الراكد ..

وفى الاسبوع الماضي أكتسح حريق جزءا من مزرعتهم ، فدمر حظيرتين للبقر ومساحة فدادين من مراعى الماشية ...

ولم تتمالك أن اشاحت بعينيها بعيداً عن هذا المشهد ، اذ لم ترد أن تفكر فى النقود التى ضاعت بددا ، عندما استرعى نظرها عند منعطف من الطريق سحب من الاتربة المحمرة .. وما ان انقشع الغبار حتى تبينت على البعد سيارة قادمة نحوهم ، وتملكها الارتياع ... زائرون ؟ .. لكن ديك قال لها أنها لابد ان تتوقع قدوم الناس اليهم .. وهكذا أسرعت الى خلف البيت لتطلب الى الخادم ان يعد الشاى .. فلم تجده .. كانت الساعة وقتها الرابعة .. وتذكرت انها منذ نصف ساعة سمحت له بالانصراف .. فركضت الى موضع الناقوس وقرعته عشر مرات وهى الاشارة التى يشعر الخادم أنه مطلوب .. وعلى الاثر عادت الى البيت .. كان الموقد مطفأ ، وقد وجدت صعوبة فى اشعاله ، ولم يكن بالبيت مايؤكل .. ففتحت لفافة من البسكويت المحفوظ ، وبعدها نظرت الى فستانها .. لم يكن من اللائق أن يراها القادمون بهذه الصورة الزرية .. لكن فات الاوان .. كانت السيارة تهدر عبر التل .. فهرعت الى الجانب

الامامي وهي تعصر يديها .. ولو رأى احد مسلكها لتصور انها ظلت معزولة مدى سنوات عن مقابلة الناس ، لا امرأة لم تكن على مـــدار الاعوام وحيدة منعزلة .. ثم ابصرت السيارة تتوقف ويهبط منهـا رجل وامرأة .. كان الرجل قوى البنية رملى اللون قصير القامة ، وكانت المرأة مليئة سوداء الشعر مليحة الوجه ... فوقفت مارى تنتظرهما باسمة فى استحياء ردا على البشاشة البادية فى وجهيهما .. ثم سرى عنها عندما لمحت سيارة ديك ترتقى التل !.. لم تتمالك ان حمدت له هذه اللفتة اذ جاء لمساعدتها فى هذه الزيارة الاولى ... لقد شاهد هو ايضا الغبار المتصاعد من خلال الاشجار فى أثر السيارة واسرع بالحضور ..

صافحها الرجل والمرأة واحتفيا بها .. ولكن ديك هـو الذى دعاهما الى الدخول .. وجلس الاربعة فى الغرفة الضيقة حتى بدا انها زادت ضيقا باجتماعهم ، واتخذ ديك وتشارلى سلاتر مجلسهما فى جانب ، وجلست مارى ومسز سلاتر فى الجانب الاخر ... وكانت مسز سلاتر امرأة طيبة القلب ، وقد أسفت فى دخيلتها من اجل مارى اذ تزوجت رجلا لا وزن له مثل ديك .. سمعت أنهـا كانت بنت مدن ، وكانت هى نفسها تعرف ماهية المعاناة والوحدة هنا ، وان كانت قد تجاوزت مرحلة الكفاح فى حياتها .. فان لها الان بيتا كبيرا ، وثلاثة أبناء فى الجامعة ، وهى تنعم بحياة رغدة ... ولكنها تتذكر جيدا عذابات الفقر ومذلاته .. وقد راحت تنظر الى مارى برقة صادقة ، متذكرة ماضيها هى ، وكـــانت على استعداد لمصادقتها .. غير أن مارى كانت بادية الجفاء والاستياء ، اذ لاحظت مسز سلاتر وهى تدير نظرها فى الغرفة فاحصة مدققة فى قطع الاثاث ، خصوصا الطلاء والستائر ...

ــ انك جعلت من هذا شيئا جميلا جدا ..

قالت مسز سلاتر هذه الكلمات باعجاب حقيقى ، مقدرة مبلـغ الجهد فى صنع ستائر من اكياس دقيق مصبوغة ، ودواليب مـن صفائح بترول مطلية .. غير أن مارى أساءت فهمها .. ولم ترد أن تلين بأى حال .. وماكان لها أن تناقش امور بيتها مع مسز سلاتر التى جاءت متفضلة بالرعاية والعطف .. وهكذا راحت تتحدث فى شئون اخرى بصوت متباعد متحفظ ...

ثم جاء الخادم بالشاى ، فكابدت مارى عذابا جديدا بسـبب

الفناجين والصحفة .. وحاولت ان تتناقش فى شىء لا علاقة له بالمزرعة .. افلام السينما ؟.. لقد راحت تستعرض فى ذاكرتها مئات الافلام التى شاهدتها فى الاعوام القلائل الماضية ، فلم تستطع أن تتذكر اكثر من ثلاثة او اربعة أفلام .. وعلى اى حال فان مسز سلاتر ربما لم تذهب الى السينما الا مرتين فى العام ، عندما كانت تقصد الى البلدة فى رحلات التسوق والشراء .. أم تتكلم عن الحوانيت والمحلات فى البلدة ؟.. كلا .. هذه المسألة متصلة بالنقود ايضا ، وهاهى ذى تلبس فستانا من القطن حائل اللون كم هى خجلة منه !...

وتطلعت الى ديك مستنجدة ، غير أنه كان منهمكا فى الحديث مع تشارلى ، يتناقشان فى المحاصيل والاسعار واجور العمال الزراعيين من الاهالى .. فما اجتمع مزارعون بعضهم مع بعض الا كان مدار الحديث والنقاش هو الشكوى من هؤلاء العمال ومن عدم اهتمامهم برفاهية الرجل الابيض .. اما تحقيق مصالح العمال انفسهم وكفالة حقوقهم ورعايتهم كبشر فذلك كان خارج تفكيرهم ..

وكانت مارى تنصت الى حديث الرجلين فى عجب .. فتلك كانت المرة الاولى التى سمعت فيها الرجال يتحدثون فى شئون المزارع والزراعة ، واسترعى نظرها أن ديك كان منهوما لهذا الحديث مشغوفا به أى شغف ، حتى لقد احست انها تافهة ازاء هذا القصور من جانبها لندرة معلوماتها ، وعجزها عن مساعدته والتخفيف من أعبائه بمناقشة شئون المزرعة معه ..

فعادت تلتفت الى مسز سلاتر ، التى كانت صامتة ومتأذية لان مارى لم تتقبل ما ابدته نحوها من مشاعر العطف والمساعدة ..

وفى النهاية وصلت الزيارة الى نهايتها ، على أسف من جانب ديك ، وارتياح من ناحية مارى ... وخرجت هى وزوجها لتوديع الضيفين ، ووقفت تراقب السيارة الكبيرة الغالية الثمن وهى تهبط فى منحدر التل ، ثم تبتعد بين الاشجار بين مثار الغبار الاحمر ...

وقال لها ديك :

ــ أنا مسرور بحضورهما .. لابد أنك كنت تعانين الوحدة ..

فردت قائلة :

ــ أنا لا أشعر بوحدة ...

فقال ديك ممازحا بسخف :

ـ لكن لابد لك أن تتحدثي حديث النساء احيانا ...

نظرت اليه بدهشة .. كانت هذه اللهجة جديدة في سمعها .. اما هو فراح يحدق في اثر السيارة المرتحلة بوجه يطل منه الاسف .. ولم يكن اسفه من اجل تشارلي سلاتر ، وهو لم يكن يميل اليه ، وانما كان الاسف من أجل الحديث الرجولي الذي منحه الثقة بالنفس بصدد علاقاته مع ماري .. فقد شعر وكأنه أعطى « حقنة » قوة جديدة بعد تلك الساعة التي قضوها في الغرفة الصغيرة : الرجلان في جانب يتناقشان في مشاغلهما وهمومهما ، والمرأتان في الجانب الاخر تتحدثان فيما يفترض عن الملابس والخدم ... ذلك لانه لم يسمع كلمة واحدة مما دار بين مسز سلاتر وماري ، ولم يفطن الى أي مدى كان الموقف محرجا لكلتيهما ..

قال لها اخيرا :

ـ لابد لك أن تذهبي وتقابليها .. سأعطيك السيارة بعد ظهيرة احد الايام عندما يكون العمل خفيفا ويمكنك أن تقصدي الى هناك « للدردشة » معها .

فاه بهذا الكلام في مرح وانطلاق بالغين وقد خلت ملامحه من ذلك القلق البالغ الذي كان يعانيه ووضع يديه في جيوبه ..

ولم تفهم ماري سببا لما يبدو من جفوته نحوها احيانا ، بيد انها شعرت بأنه جرح كرامتها بتصوير كل مطالبها بمثل هذه الصورة .. ثم انها لم تكن راغبة في صحبة مسز سلاتر .. بل انها لا تريد صحبة اي أحد آخر . ولهذا قالت له بلهجة صبيانية :

ـ لا اريد ان افعل ماتقول ...

ـ ولم لا ؟ ..

ولكن عند هذا الحد جاء الخادم الى الشرفة من خلفهما ممسكا بيده عقد استخدامه دون أن يتكلم ... فهو يريد أن يرحل ، واسرته في حاجة اليه في موطنها .. وسرعان مافقدت ماري اعصابها ، ووجد استياؤها الكامن منفذا في مسلك هذا الخادم المغيظ المثير ... فما كان من ديك الا ان جذبها الى الخلف وكأنها شخص لا وزن له ، وذهب معه الى المطبخ .. وقد سمعته يشكو بأنه ظل يعمل منذ الساعة الخامسة صباحا بغير اقل طعام بالمرة ، ثم لم يكد يبقى في مكان اقامته بالمزرعة اكثر من بضع دقائق حتى سمع قرع الناقوس يستدعيه ... أنه لا يستطيع أن يشتغل بهذه الطريقة ..

وهناك طفله مريض في موطنه ، وهو يريد ان يذهب في الحال ..
وعندئذ رد عليه ديك متجاهلا كافة التقاليد المرعية قائلا ان السيدة الجديدة لم تعرف الكثير بعد عن تصريف شئون البيت ، وانها سوف تتعلم ، وان هذا لن يتكرر مرة اخرى .
والواقع ان ديك كان مدفوعا في أسلوبه هذا بسخطه على ماري لافتقارها الى سلامة التقدير وحسن التصرف ...
اما هي فقد أذهلها الغضب ، اذ كيف يجسر ديك على الانحياز الى جانب الخادم ضدها ؟!.. وما أن عاد ديك حتى الفاها واقفة في الشرفة مطبقة اليدين مكفهرة الوجه ، وبادرته بصوت مختنق :
ــ كيف تجسر على شيء كهذا ؟..
فقال ديك باعياء :
ــ ان كان لابد ان تفعلى هذه الاشياء ، فعليك ان تتحملى النتائج ... هو كائن آدمى ، اليس كذلك ؟ .. ولابد أن يأكل مثلنا !.. ثم لماذا يجب ان ينظف حوض الحمام مرة واحدة ؟.. من الممكن تنظيفه على مدى ايام ، اذا كانت له عندك هذه الاهمية ؟.
فقالت مارى :
ــ هذا بيتى .. وهو خادمى ، لا خادمك .. لا تتدخل ! ..
فراح ديك يقول باقتضاب :
ــ اصغى الى .. اننى أعمل عملا شاقا بما فيه الكفاية ، طوال النهار انا في المزرعة مع هؤلاء العمال الكسالى أصارعهم لكى انتزع منهم الشغل .. ولايمكن أن أعود الى البيت لكى أجد فيه هذا الشجار المتواصل !.. هل تفهمين ؟ .. لن اقبل هذا ولن اسمح به !.. وعليك أن تلزمى التعقل .. وان كنت تريدين أن تحصلى على عمل منهم فلابد أن تعرفى كيف تتعاملين معهم ...
احتدمت مارى غيظا .. فقالت له قاصدة ان تجرح شعوره لاول مرة بسبب عجرفته الجديدة هذه :
ــ انت تنتظر الكثير منى !..
على انها تمالكت قبل حدوث كارثة ، وان كانت لم تستطع أن تتوقف تماما .. وبعد تردد يسير مضت تقول :
ــ ... انت تنتظر الكثير منى !.. تنتظر مني ان اعيش حياة امرأة فقيرة في جحرك هذا !.. تنتظر مني ان اطهو بنفسى كل يوم في الوقت الذى لاتريد ان تبنى سقفا فوق بيتك ...

كانت تتكلم الآن بصوت جديد عليها .. صوت لم تستخدمه من قبل فى حياتها .. لقد جاءها هذا الصوت من امها مباشرة ، حينما كانت تتشاحن مع أبيها بسبب النقود .. لم يكن هذا صوت ماري ذاتها ، بل كان صوت الانثى المعذبة التى ارادت ان ترى زوجها انها لن تقبل منه مثل هذه المعاملة .. ولو تمادت لانخرطت فى البكاء ، كما كانت أمها تبكي فى مثل هذه المواقف ، غضبا لكرامتها ، وشعورا بأنها شهيدة معذبة ..

اما ديك فقال لها حانقا :

ـ قلت لك عندما تزوجتك ما الذي يمكن ان تنتظريه منى .. لا يمكنك ان تتهمينى بأننى كذبت عليك !.. اننى شرحت لك كل شيء ! .. وهناك زوجات مزارعين فى كافة انحاء الاقليم يعشن حياة ليست أفضل من حياتنا ، ولا يبدين مثل هذه الضجة !.. اما عن السقف الذى تتكلمين عن بنائه ، فلك أن تتكلمى ماشئت ... اننى عشت فى هذا البيت ست سنوات ، فلم أشعر انه يؤذينى .. ولك أن تقبلى الواقع !..

شهقت ماري ذهولا .. فهو لم يكلمها قط بهذا الاسلوب .. وفى دخيلتها أحست بالمرارة حياله ، وما كان لشيء أن يلين قلبها نحوه الا اذا أبدى لها اسفه والتمس منها الصفح ..

على أنه مضى يقول :

ـ أن هذا الخادم سوف يبقى .. وعليك أن تعامليه معاملة طيبة والا تعرضى نفسك مرة ثانية لمثل هذا الموقف المحرج !..

وعندئذ أتجهت الى المطبخ مباشرة واعطت الخادم الاجر الذى يستحقه وهى تعد الشلنات فى شح كأنها تستكثرها عليه ، ثم صرفته .. وبعدها عادت الى ديك منتصرة .. ولكن ديك لم يسلم لها بهذا الانتصار ، وقال لها :

ـ لست أنا الذى تجرحينه بهذا التصرف .. انما تجرحين نفسك .. اذا مضيت تتصرفين بهذه الطريقة ، فلن تجدى أبدا خادما يقبل العمل عندك .. انهم سرعان مايعرفون النساء اللاتى لا تفهمن حسن المعاملة ..

وقد تولت اعداد العشاء وحدها ، متعذبة فى اشعال الموقد .. وبعد أن اوى ديك الى الفراش مبكراً كما كان يفعل دائما ، بقيت وحدها فى الغرفة الامامية الصغيرة ..

ولما احست كأنها حبيسة فى قفص خرجت الى الظلام خارج

البيت ، وجعلت تروح وتغدو في الممشى الذى تمده الاحجار البيضاء الباهتة فى الظلمة ، التماسا لنسائم هواء رطيب تلطف من حرارة خديها ...

كانت متوترة الاعصاب الى حد التأزم ، بما كان يعتمل فى صدرها من حقد وكراهية .. وراحت تتخيل نفسها وهى تروح وتغدو فى الظلام ومن حولها الغابة الكريهة تحف بها من كل مكان ، عن كثب من « مربط الخنازير » هذا الذى يسمى بيتا ، وعليها ان تقوم بكل الاعمال المطلوبة منها ـ وهى التى كانت منذ شهور قلائل فقط تعيش حياتها الخاصة فى البلدة يحوطها اصدقاء يحبونها ويحتاجون الى وجودها بينهم !.. عندئذ أجهشت بالبكاء طويلا رثاء لنفسها ... ودام بكاؤها حتى عجزت عن مواصلة المشى ، فقفلت عائدة الى البيت خائرة متعثرة ، وارتمت فى الفراش مضعضعة مهزومة ...

ولقد دام هذا التأزم بينهما اسبوعا لايطاق ، الى أن نزل المطر اخيرا ، وغدا الهواء رطبا مريحا للاعصاب .. اما هو فلم يعتذر ... كل ماهناك أنهما لم يذكرا الحادث ببساطة ، بل تجاهلاه تماما .. وتركا الخصام والشحناء خلفهما ، ومضيا فى حياتهما وكأنه لم يحدث ...

بيد أنه غيرهما كليهما ... فعلى الرغم من ان ثقته بنفسه لم تدم طويلا ، وعاد سريعا الى اعتماده السالف عليها ، وغدا صوته مشوبا برنة اعتذار يسيرة ـ فقد تلبث فى داخله شعور بالاستياء منها .. واما هى فقد كان عليها أن تكتم نفورها منه بسبب معاملته الاخيرة لها ، من أجل حياتهما المشتركة ، وأن لم يكن هذا الكتمان هينا عندها ..

وحوالى نهاية هذا الاسبوع جاءت رسالة من مسز سلاتر تدعوهما معا لتمضية السهرة عندها وزوجها .. وفى الحق أن ديك كره الذهاب ، لانه كان منصرفا عن حياة المرح والسمر ، وكان يستشعر الحرج فى المجتمعات .. غير انه اراد قبول الدعوة من أجل مارى ، وان رفضت هى أيضا ... وهكذا سطرت رسالة شكر واعتذار منمقة ...

كانت مسز سلاتر قد وجهت دعوتها بدافع من صداقة حقيقية ، اذ كانت لاتزال آسفة لحال مارى ، على الرغم من جفاء

أسلوبها واعتدادها القريب ... بيد أن الرد ساءها .. فان هـذا المسلك لا يتفق مع أسلوب السماحة السائد فى الاقليم ، ولذلك قدمت الرد الى زوجها ، وقد رفعت حاجبيها دون أن تقـول شيئا ..

فقال لها تشارلى سلاتر :

ـ دعيها .. انها سوف تنزل من عليائها .. عيبها ان راسها ملىء بالافكار السقيمة .. وستعود الى التعقل عاجلا او آجلا .. وليس معنى هذا أن خسارتنا فيها كبيرة .. أن الاثنين فى حاجة الى من يردهما الى الصواب .. ان تيرنر سوف يتعرض للمتاعب .. هل رأيت كيف يهتم بزراعة الاشجار ويبدد المال فى حين انه غارق فى الديون ؟!..

ان مزرعة سلاتر لم تعد بها أشجار .. فهى فى قاموس الزراعة مجلبة للخسارة لما يتخللها من مساحات كبيرة من التربة الخصبة تتعرض للبوار بقلة الاستخدام الامثل .. أما سلاتر فيعرف كيف يجمع المال ، وهذا هو لب الموضوع .. لقد اسخطه ان جمع المال مسألة يسيرة ، فى حين أن ذلك الاحمق المأفون ديك تيرنر يسىء الى نفسه بزراعة الاشجار .. وبدافع من الطيبة القلبية المشوبة بالحنق قصد بسيارته ذات صباح لرؤية ديك ، متجنبا بيته « لانه لم يرد ان يلتقى بتلك البلهاء مارى » مفضلا لقاءه فى المزرعة .. وقد امضى ثلاث ساعات محاولا اقناع ديك بزراعة التبغ بدلا من الاذرة وغيرها من « المحاصيل الصغيرة » ، كالفول والقطن ومايماثلهما مما يحبه ديك .. غير ان ديك رفض باصرار الاستماع الى تشارلى .. وقال انه يحب محاصيله ، ويحب ان يجعل « بيضه فى سلال متعددة » ... ثم أن التبغ محصول غير انسانى .. انه ليس من الزراعة فى شىء ، وهو اقرب الى توابع الصناعة ، ويحتاج الى حظائر متدرجة والقيام ليلا لمراقبة درجات حرارة الحظائر ..

ولكن تشارلى فاجأه بهذا السؤال ، محدقا فيه بتركيز :

ـ وماذا أنت فاعل عندما تبدأ اسرتك فى التكاثر ؟..

فأجاب ديك بعناد :

ـ سأخرج من الورطة بطريقتى الخاصة ..

فقال تشارلي :

ـ انت مغفل !.. مغفل !.. لا تقل فيما بعد انني لم ابصرك .. لا تحضر عندئذ للاقتراض عندما ينتفخ بطـن زوجتـك وتحتـاج الى المال ..

فرد ديك بكبرياء وقد ساءه هذا التعريض :

ـ انني لم أطلب منك أبدا اى شيء !..

وسادتهما لحظة مشوبة بالكراهية .. ولكنهما برغم ذلك كانا يحترمان بعضهما بصورة أو بأخرى ، مهما يكن من اختلاف طبائعهما ـ ولعل ذلك لانهما يتشاطران نفس الحياة ... وفى النهـاية افترقا فى مودة ووئام ، وأن كان ديك عاجزا عن مجاراة تشـارلى فى مرونته وطبعه المرح ...

وبعد انصراف تشارلى عاد ديك الى بيته وهو نهب للقلـق والبلبلة ...

ان الجهد العصبى والقلق كانا ينفذان دائما الى معدته ، حتى لقد انتابه الغثيان .. بيد أنه أخفى عن مارى مابه ، بسبب مبعث هذا القلق .. ان الاطفال هم مايريده الان بعد ان اسفر زواجه عن فشل وبدا أنه يستحيل اصلاحه .. أن انجاب الاطفال يمكن ان يقرب مابينهما ويكسر ذلك الحاجز غير المنظور القائم بينه وبين مارى ... لكنهما ببساطة لايحتملان انجاب أطفال ... وعندما قال لمارى « ظنا منه بأنها قد تكون مشتاقة اليهم » انه يتعين عليهما الانتظار ، بادرت الى الموافقة فى ارتياح ظاهر .. أن تلك النظرة لم تفد بحال .. ومع ذلك فعندما تتيسر أمورهما وتحل مشاكلهما ، فقد تسر بانجاب الأطفال ...

وهكذا استجمع قواه للعمل بكل جد ودأب ، حتى تتحسن الاحوال ويغدو انجاب الاطفال ممكنا .. فكان يخطط ويدبر ويحلم طـوال النهار وهو قائم فى أرضه يشرف على العمال ويستحثهم .. وفى غضون ذلك لم تتحسن الأمور فى البيت .. فان مارى لم تسـتطع أن تتجاوب مع الخدم من الاهالى ، وكان ذلك أمرا مقضيا .. ولم يجد أمامه الا ان يتقبل الواقع .. فهذا هو طبعها ، ولا قبل له بتغييره .. كان الطاهى اذا التحق بالعمل فى البيت لايبقى اكثر من

شهر ، وفى خلال هذه الفترة تكثر المشاحنات وثوران الاعصاب .. وكان ديك يقابل هذا بكظم الغيظ وتوطين النفس على الاحتمال والصبر ، شاعرا على نحو ما أن الذنب ذنبه بسبب ماتعانيه فى حياتها من المتاعب والمشاق .. ولكنه لايلبث أحيانا أن يندفع الى خارج البيت منعقد اللسان سخطا .. الا لو امكن فقط أن يكون فى حياتها شيء يملأ فراغها ؟.. تلك هى المشكلة حقا ..

الفصل السادس

عثرت ماری مصادفة على نشرات لتربية النحل فی المتجر عند رحلتها مع دیك الی البلدة ذات یوم واخذتها معها الی البيت ...
وكانت هذه الصدفة هى التى هيأت لها أن تنفذ الىاخلاق ديك ونفسيته الحقيقية ــ وذلك الى جانب كلمات قلائل سمعتها عفوا فی نفس اليوم فى تلك الرحلة التى كانت تتم مــــرة كل شـــهر بالســـيارة للتزود بالمؤن ..

وبعد ان استكملت ماری مطالبها ونقلت المؤن الى السيارة ، وقفت في الشرفة المستطيلة تنتظر فراغ ديك من مهمته .. وعند خروجه استوقفه رجل لا تعرفه ماری وابتدره قائلا :

ــ خيراً ياصاحبی !.. هل غمرت المياه مزرعتك مرة اخرى هذا الفصل أيضا ؟! ..

تلفتت ماری بحدة نحو المتكلم .. ولو حدث هذا قبل سنوات قلائل لما فطنت الى رنة الاحتقار والتحدى التى شابت لهجته .. أما ديك فقد ابتسم قائلا :

ــ ان الامطار كانت طبيعية هذه السنة .. وليست الاحـــوال سيئة ...

ــ يعنى أن حظك تحسن !؟.

ــ هذا مايظهر ..

وتقدم ديك نحوها ولكن ابتسامته اختفت وتوترت ملامح وجهه ... فقالت له :

ــ من هذا ؟..

ــ اننى اقترضت منه مائتى جنيه منذ ثلاث سنوات ، بعد زواجنا مباشرة ..

ــ لم تقل لى هذا !..

ــ لم أرد ان اشغل بالك ...

وبعد برهة قالت له :

ــ هل رددت له المبلغ ؟..

ـ كله ماعدا خمسين جنيها ..
فقالت له برفق :
ـ في الفصل القادم اذن ؟..
ـ مع شيء من الحظ ..
قال هذا وقد لاحظت على وجهه تلك البسمة الفاترة الغريبة التى تنم عن التأثم والانكسار والتى كانت تمقتها منه ..

وبعد ان جمعا الرسائل الواردة اليهما بالبريد عادا الى السيارة صامتين واجتازا خطوط السكة الحديدية فى طريقهما الى البيت . وكانت مارى ممسكة بنشرات تربية النحل ، ولكن عندما تصفحتها لم تجدها وافية بالغرض الذي كانت تهدف اليه ، وهو العمل على اكتساب نقود اضافية كمصاريف جيب لها ، اذ كانت ارشادات النشرة تنطبق على الاجواء فى انجلترا .. وهكذا استخدمتها الان كمروحة تطرد بها الذباب الذى كان يطن حول رأسها ملازما لهما من قسم اللحوم بالمتجر ..

انها لم تفتأ تفكر قلقة فى نبرات الاحتقار التى شابت كلمات ذلك الرجل .. انها لم تكن مجرد احتقار ، بل كانت اقرب الى التفكه والسخرية .. والواقع أن مسلكها هى حيال ديك كان هو الاحتقار اساسا ، ولكن الاحتقار له كرجل .. كرجل لم تحفل هى به ، وقد تركته خارج دائرة حسابها من هذه الناحية تماما .. اما كمزارع فكانت تحترمه .. كانت تحترم تفانيه ودأبه الشديدين فى العمل .. وكانت تؤمن انه يمر بمرحلة لابد منها قبل الوصول الى المدى الذى يحقق الوفرة التى ينعم بها اكثر المزارعين .. كان احساسها نحوه ، فيما يتعلق بالعمل ، هو الاعجاب ، بل والمودة ..

وعلى اثر عودتهما الى البيت طوحت مارى بالنشرة إلى المائدة وعكفت على فض لفائف المؤن .. وعندما عادت وجدت ديك مستغرقا فى قراءة النشرة حتى انه لم يشعر بها حين خاطبته .. لقد اعتادت منه قبل هذا الاستغراق ، خصوصا عندما يفكر فى شئون المزرعة ، فكانت لا تلح عليه بالكلام فى مثل هذه المناسبات ..
وبعد تناولهما طعام العشاء لم يذهب ديك الى الفراش حوالى الساعة الثامنة كعادته ، بل بقى جالسا الى المائدة تحت مصباح البرافين الفاتح الرائحة ، واخذ يدون بعض الحسابات فى ورقة بين يديه ... فجلست تراقبه وقد شبكت يديها .. كانت هذه

جلستها التقليدية الهادئة ، وكأنما تنتظر شيئا يحفزها الى الحركة ... وبعد ساعة أو نحوها دفع الورقة امامه ورفع بنطلونه بحركة شبه صبيانية لم تعهدها من قبل ، وقال لها :

ـ مارأيك فى تربية النحل ياماري ؟..

ـ أنا لا اعرف شيئا عن النحل .. انها ليست فكرة رديئة ..

ـ سأذهب غدا لمقابلة تشارلي .. أن صهره كان يربى النحل فى الترانسفال ، كما قال لى ذلك مرة ...

قال ديك هذا بنشاط جديد ، وبدأ كأنما استمد حياة جديدة ..

فقالت ماري وهى تقلب النشرة المطبوعة بلهجة التشكك وقد بدت لها أساسا واهيا لمثل هذا التغيير ، حتى ولو كان لمجرد اشباع هواية فى تربية النحل !

ـ لكن هذا الكتيب من أجل أجواء انجلترا ..

ولكن ديك قصد بسيارته فى اليوم التالى بعد الافطار لمقابلة تشارلى سلاتر .. ولما رجع كان مقطب الوجه بادي التصميم ولكنه كان يصفر فى مرح .. فتضايقت ماري من هذا الاسلوب وسألته :

ـ ماذا قال لك ؟..

ـ انه استخف بالعملية كلها .. لكن اذا كان صهره قد فشل ، فلا سبب يدعو الى الاعتقاد بأننى سوف أفشل مثله ..

وقصد الى المزرعة متجها بالغريزة الى منطقة الاشجار .. كانت مساحة مائة فدان من أجود التربة فى مزرعته .. مزروعة بأشجار الصمغ الفضة منذ حوالى سنتين .. آن هذه المساحة كانت سببا لغيظ تشارلى سلاتر وضيقه ـ ربما لعجزه عن ايجاد مثلها فى مزرعته ..

كانت هذه المساحة هى المنطقة المفضلة من المزرعة عند ديك .. وكثيرا ماكان يقصد اليها كلما تضايق من شيء أو تشاجر مع ماري او اراد ان يفكر فى شيء تفكيرا هادئا ـ فكان يقف مرسلا نظره الى الاشجار ، او يتمشى الهوينا بين صفوفها الطويلة واغصانها تهتز وتتمايل بأوراقها الصغيرة المصقولة كقطع النقود .. وعندما تذكر فى النهاية انه يذهب الى المزرعة طوال نهاره لتفقد المحاصيل الحقلية بسبب انشغاله بمسألة تربية النحل ، لم يتمالك أن تنهد واتجه الى حقول المحاصيل لتفقد العمل والعمال ..

وفى موعد الغداء لم ينبس بأى كلام .. كانت مسألة النحل

قد استحوذت على كل تفكيره .. واخيرا شرح لماري المتشككة انه يمكنه حسب تقديره ان يكسب اكثر من مائتي جنيه في السنة بتربية النحل .. فكان هذا الكلام صدفة لماري التي تصورت انه يفكر في بضع خلايا للنحل كهواية مربحة .. لكن المناقشة معه كانت بلا جدوى لما آنسته من اصراره .. ثم ما الذى كانت تستطيعه وهي التي لم تكن لها خبرة في هذا المجال ؟..

وقد أمضى ديك أكثر من شهر وهو يعد العدة لتنفيذ مشروعه ، فابتنى بنفسه عشرين خلية نحل ، وزرع عن كثب من مكانها فدانا من نوع خاص من الحشائش .. واستخلص بعض عماله الزراعيين بعيدا عن عملهم المعتاد واطلقهم بين المروج للبحث عن اسراب النحل وكان يمضي ساعات كل مساء في وقت الشفق الذهبي يدوخ جماعات النحل بالدخان في محاولة لاقتناص ملكة نحل ، بعد ان قيل له ان هذه هي الطريقة الصحيحة لهذا الغرض .. غير ان النحل كان يموت بأعداد كبيرة دون أن يعثر على اية ملكات .. وعمد بعد ذلك الى اقامة خلاياه في اماكن متفرقة من المروج كانت تغشاها اسراب النحل ، مؤملا استدراجها بذلك .. ولكن مامن نحلة واحدة اقتربت من خلاياه ، ربما لانها من النحل الافريقي ، ولا تحب الخلايا المعدة على النمط الانجليزى .. من يدرى ؟ .. والمؤكد ان ديك ماكان ليدرى .. واخيرا هبط سرب من النحل في احدى الخلايا ... ثم حدث أن تلقى ديك لدغة شديدة ، وبدا كأن السم طرد هواية النحل من كيانه .. فقد رأت ماري وهي في دهشة بل في غضب ان الاستغراق قد زال من وجهه ، اذ انفق الاسابيع من وقته والكثير من نقوده في هذه العملية دون طائل .. ولقد ارتاحت ماري في النهاية وتنفست الصعداء اذ رأته يعود الى عمله الطبيعي ويفكر في محاصيله ومزرعته من جديد .. كان في الحق كمن أصيب بجنون عارض ، ثم برىء من لوثته ..

لكن لم تمض ستة اشهر حتى عادت المسألة سيرتها الاولى .. وحتى وقتها لم تستطع ماري ان تصدق ماحدث عندما رأته منكفئا على مجلة زراعية تضمنت بصفة خاصة مقالا عن ربحية الخنازير واذ سمعته يقول : « ماري .. سأشتري بعض الخنازير من تشارلي »

فردت عليه بحدة :

ــ ارجو الا يكون فى نيتك ان تبدأ الحكاية من جديد ؟..
ــ ابدأ ماذا من جديد ؟..
ــ انت تعرف تماما ما أقصد .. بناء قصور فى الهواء لجمع المال !.. لماذا لا تتمسك بمزرعتك ؟..
ــ ان تربية الخنازير من اشغال المزارع .. وتشارلى يكسب الكثير من خنازيره ...

ثم اخذ يصفر وهو يخرج الى الشرفة لتحاشى نظرات الاتهام والغضب من عينيها ، حتى لقد شعرت بأنها تريد أن تبكى .. لكن علام البكاء ؟.. فقد يربح مالا من تربية الخنازير .. فهناك اناس فعلوا هذا .. لكنها عقدت آمالها على نهاية الموسم الزراعى ، عندما يقدران مكسبهما بالضبط وقتها .. فقد لا يكون الموقف سيئا اذ ذاك ، نظرا لان بوادر الموسم كانت مواتية ، وكانت الامطار محالفة لديك ..

وهكذا اقام ديك زرائب الخنازير خلف البيت فى المنطقة التى تحفها الصخور توفيرا للنفقات ..

ولما قالت له مارى :
ــ الن تكون الحرارة هنا شديدة ؟..
رد عليها قائلا .
ــ لن تكون شديدة .. ثم اننى سأقيم عوازل ضد حرارة الشمس ..
ــ لكن يبدو أن الحرارة تنبع من طبيعة الارض الصخرية ذاتها ! ..
ــ حسن يامارى .. من السهل جدا ان ينتقد الانسان أى شىء ... اننى وفرت بهذه الطريقة نقودا كثيرة فى بناء زرائب خاصة ... لم يكن من السهل انفاق خمسين جنيها فى شراء اسمنت وطوب لبناء زرائب خاصة ..
فسارعت مارى تقول تجنبا لاغضابه ..
ــ انا لا انتقد فى الواقع ..

واشترى ديك ستة خنازير غالية من تشارلى سلاتر ووضعها فى الزريبة الصخرية .. لكن الخنازير تحتاج الى القوت كغيرها ، ولكن هذه العملية مكلفة اذا كان الطعام يشترى خصيصا لهذا الغرض ؟.. فهداه التفكير الى تخصيص كل ناتج الالبان من ابقاره

باستثناء جزء يسير للبيت ، وتخثير هذا اللبن بتركه مـــدة فى المطبخ وتقديمه طعاما للخنازير .. وقد اشرفت مارى على هـــذه العملية التى ادت الى تكاثر الذباب حــول اللبن وانبعاث روائح الحموضة فى أرجاء البيت ..

وكانت المشكلة التالية هى تربية الخنازير الصغيرة بعد ولادتهـا ونموها وتدبير وسائل نقلها وبيعها فى السوق .. غير ان هــذه المشاكل سرعان ماوجدت حلها .. فقد كانت الخنازير الصغيرة لا تلبث ان تموت عقب ولادتها .. وقال ديك فى هـــذا ان المرض قد تفشى فى الخنازير الصغيرة وان هذا من سوء حظه ، ولكن مارى قالت بجفاء انها كرهت ان تشوى قبل أوانها « مشيرة الى شدة حرارة الزرائب التى لم تحتملها الخنازير المولودة » ، فشكرها ديك لهذه النكتة اللاذعة ، التى أتاحت مع ذلك الضحك فى موقف متأزم !..

ثم لاحظت مارى ذات يوم بعد أشهر قلائل من بيع الخنـازير والتخلص منها ان ديك وقف فى الشرفة يرسل النظر الى المـروج مستغرقا فى التفكير ، على تلك الصورة التى عهدتها منه كلما فكر فى مشروع جديد ، والتى كانت تملأ نفسها غما .. وفعلا لم يطل به الوقت حتى التفت اليها متحديا ، وقال انه يفكر فى تربيـــة الديوك الرومية لانها ستكون قطعا عملية مربحة ..

وقبل أن تعرب مارى عن رأيها بالاستنكار او الموافقة ، راح يقول لها فى معرض الدفاع عن نفسه ضد اتهامات لم تقلها ، انه لم يخسر فى تربية الخنازير الا القليل « ناسيا تكاليف مشروع تربية النحل الفاشل » .. غير أن مارى أطبقت فمها واشاحت بنظرها عنه ، معتزمة عدم استفزازه الى مزيد من الخصام والجدل الذى لا طائل من ورائه ...

وبدأت ترى ديك خلال الاسابيع القلائل التى شهدت « لوثة » تربية الديوك الرومية أكثر مما كانت تراه منذ زواجهما ، او حتى فيما بعد ذلك .. فقد اصبح لايكاد يذهب الى المزرعة ، وانما كان يمضى أيامه فى الاشراف على بناء بيوت الديوك وتسوير البقعـة بالاسلاك الضيقة العيون .. واعقب ذلك بشراء الديوك ذاتهـــا وملحقاتها من الحضانات والموازين وماأليها من اللوازم ..

ولكنه لم يلبث حتى قبل ان تبدأ عملية فقس البيض ان قال لها

ذات يوم أنه يفكر فى استخدام هذه الحظائر لا للديوك ، ولـكن للارانب .. فالارانب يمكن اطعامها بحفنات من الاعشاب ، وهى تتكاثر مثل ــ مثل الارانب !.. صحيح ان الناس لا يتلذذون كثيرا بلحم الارانب ، ولكن سوف يستطيبونها مع الوقت .. ولو أمكنهم بيع الارانب بخمسة شلنات للواحد ، ففى تقديره أنه يمكن ربح خمسين او ستين جنيها كل شهر .. ثم انه اذا نجح مشـــروع الارانب ، فيمكن اقتناء سلالة خاصة من ارانب انجورا ، اذ ســمع ان فراء هذا النوع يباع بستة شلنات للرطل ...

عند هذا الحد لم تستطع مارى أن تسيطر على أعصابها ، فتفجر غضبها المكظوم فى ثورة عارمة ومجابهة عاصفة حتى لم تتمـالك من التشنج والبكاء ، وانهارت جالسة على طرف الاريكة تلتقط أنفاسها المحتبسة ..

أما هو فقد راح ينظر اليها طويلا وهى تنتحب ، وفى النهـاية قال لها ساخرا .

ــ امرك يا « ريسة » ! ..

لم تسترح مارى الى هذه اللهجة ، اذ آن عبارته الساخرة ابانت الكثير عن طبيعة زواجهما بما فى كل تصوراتها .. ولم يـكن من اللائق ان يؤدى احتقارها له واستخفافها به الى حد التعبير عن ذلك بمثل هذه الكلمات ..

لكن لم يدر بعد ذلك أى نقاش عن الإرانب او الديوك الرومية .. فقد تولت هى بيع الديوك وملأت الحظائر بصغار الدجاج ، وقالت انها فعلت هذا لتدبير نقود لشراء بعض الملابس لها ، فهل يتوقع منها أن تتنقل بملابس كالخرق ؟..

لم يرد بشىء على هذا التحدى .. وقد خلت لهجتــه مــن الاعتذار أو الدفاع عندما قرر لها أنه ينوى انشاء متجر للعمـال والاهالي فى مزرعته .. وقال فى معرض الشرح والبيان أن المتاجر الصغيرة المخصصة لهذا الغرض تجلب ربحا وفيرا .. أن تشارلى سلاتر لديه متجر من هذا النوع فى مزرعته ، وكثير من أصـحاب المزارع لديهم مثلها ...

قالت له مارى بهدوء :

ــ اذا كان سلاتر عنده متجر فى مزرعته ، وهى لاتبعد عن هنا اكثر من خمسة أميال ، فلا معنى لايجاد متجر عندنا !..

ـ عندي هنا ما لا يقل عن مائة عامل دائما ..

ـ اذا كانوا ينالون خمسة عشر شلنا فى الشهر ، فلا يمكن ان تصبح مثل المليونير روكفللر بما ينفقونه !..

فرد بعناد قائلا :

ـ هناك الكثير من الاهالي يمرون بالمنطقة ..

وتقدم بطلب ترخيص تجاري فمنح له دون صعوبة .. وابتنى على الاثر متجرا .. وقد بدا ذلك فى نظر ماري نذير شؤم : حين قدرت أن المتجر القديم المنحوس فى عهد طفولتها اخذ يلاحقها الان حتى فى عقر دارها ! ..

غير ان هذا المتجر أقيم على بعد بضع مئات الياردات من البيت ، وتألف من غرفة صغيرة يتصدرها « كاونتر » ، وغرفة اكبر الى الخلف لتخزين البضاعة ..

وتولت ماري مساعدة ديك فى ترتيب السلع وهي مغمومة منقبضة كارهة للمس السلع الرخيصة وروائح بعض المواد الكيماوية المتداولة ... وعلقا معا الحلى الزجاجية والنحاسية بينما كانت ماري تبتسم ابتسامة مبتسرة ، بسبب ذكريات طفولتها ، عندما كانت بهجتها الكبرى أن تراقب العقود البراقة تهتز وتتأرجح .. وقد تراءى لها ان هاتين الغرفتين لو اضيفتا الى البيت ذاته لجعلت حياتهما ايسر واهنأ ، وان التكاليف التى انفقت على هذا المتجر وعلى حظائر الديوك الرومية والخنازير وخلايا النحل كانت كافية لبناء سقف للبيت ودفع غائلة الحرارة القائظة فى الصيف القادم .. لكن مافائدة الكلام فى هذا كله ؟.. لقد شعرت أنها لو استسلمت للبكاء لذابت وتحللت .. هكذا لم تفه بكلمة واحدة ، ومضت تساعد ديك فى العملية الى آن تمت ..

وعندما تم تجهيز المتجر وامتلأ حتى سقفه بالسلع التى يقبل عليها الاهالي ، كان سرور ديك بالغا الى حد انه ذهب الى المحطة واشترى عشرين دراجة من النوع الرخيص .. وقال فى هذا ان عماله كانوا يطلبون دائما « سلفيات » لشراء دراجات لهم ، فهم يستطيعون الان شراءها منه ..

ثم عرضت مسألة من يدير المتجر .. وقد قال انه بعد نجاح المشروع يمكن استخدام بائع لهذا الغرض .. فلم تتمالك ماري ان اغمضت عينيها متنهدة .. لقد رأته يفكر فى هذا حتى قبل

ان يبدأ المتجـر في العمل ، ومثل هذا البائع سيتقاضى ما لا يقـل عن ثلاثين جنيها في الشهر ! ..

وعندئذ فاجأها بأن تتولى هي مباشرة العمل في المتجر الى حين وعلى أى حال فليس لديها ماتفعله في الوقت الحالى ... وقـد اصطبغت كلماته الاخـيرة بخشونة غـدت الان طابعـه المعتاد في مخاطبتها ...

وعندئذ ردت مارى بحدة قائلة أنها تفضل الموت على أن تطـأ قدماها هذا المكان .. فرد عليها ديك قائلا :

ـ ان هذا لن يضرك في شيء ... هل أنت اكبر من الوقـوف خلف « الكاونتر » اذن ؟..

لكن هذا لم يكن أحساسها الحقيقي .. فلم يكن بوسعها أن تشرح لديك كيف ان روائح مثل هذا المتجر كانت تبتعث في نفسها ذكريات طفولتها الاليمة ، عندما كانت تقف في المتجر القديم تصعد نظرها بخوف في زجاجات الخمر المصفوفة فوق الارفف ،متسائلة أيتها ينوى ابوها أن يحملها معه الى البيت ليلتها ، وعندما كـانت أمها تفتش جيوبه وهو يغط في نوم عميق مخمورا لاخذ مابقى فيها من نقود معدودة ، وعندما كانت امها ترسلها في اليوم التالى لشراء طعام يضاف ثمنه الى حساب آخر الشهر .. لم يكن بوسـعها أن تشرح هذه الاشياء لديك ، لانه اصبح الآن في نظرها تجسـيدا لهذا المـاضي الاليم ، ولان أى نقاش جديد معه كان بغير جدوى ، وهكذا وافقت في النهاية على أن تباشر شئون المتجر ، اذ لم يكن بوسعها أن تفعل غير هذا ..

وذات يوم قالت لديك بعد ان نفد صبرها من هذا العمل الذى لم تعهده في حياتها :

ـ هل كتب على أن اقف في متجرك هذا ساعات لمجرد ان تأتى امرأة من الاهالى وتنفق ستة بنسات لشراء عقد من الزجاج ؟..

فرد عليها بلهجة عدم الاكتراث القاسية التى دأب عليها اخيرا ، ودون ان ينظر اليها :

ـ هذا عمل يسد فراغ وقتك !..

ان عملية المتجر هذه هى التى جعلت مارى تشعر بأن النهـاية باتت قريبة ، وأن عليها أن تتخلص من هذا الوضع على اية صورة ... لكن كيف السبيل الى الخلاص ؟..

في تلك الايام اعتادت مارى أن تمضى فترة بعد الظهر نائمة ،

لكى يساعدها النوم على تمضية الوقت .. وفى الفترة الباقية على عودة ديك من المزرعة كانت تظل فى الفراش مخلدة الى التأمل والتفكير .. وفى تأملاتها كانت تسرح بفكرها الى تلك الأيام الخوالى الجميلة حينما كانت تعمل فى المكتب وتعيش كما يحلو لها قبل ان يدفعها كلام الناس الى الزواج .. وكان يسوقها التفكير الى أحوال ديك المالية وتسائل نفسها متى ياترى يتيسر له من المال ما يمكنهما من العيش فى المدن من جديد ، وان كانت موقنة فى قرارة نفسها ان هذا المال لن يتيسر له أبدا ...

وعندئذ طرات فى ذهنها فكرة انه ليس ثمة مايمنع من هروبها والعودة الى حياتها القديمة .. وعند هذا الحد اوقفتها ذكرى أصدقائها .. ماذا يقولون عندما يعرفون انها فصمت زواجها على هذه الصورة ؟.. لقد شعرت بالحرج والتأذى لمواجهتهم من جديد ، بسجلها الفاشل .. فقد كانت لاتزال يطاردها قولهم عنها بأنها « ليست من هذا النوع » ... ان هذه العبارة لصقت بعقلها ، ومازال جرحها حيا لاينطفأ ..

بيد أن رغبتها فى الهروب من تعاستها غدت فوق كل احتمال ، الى حد انها طردت من ذهنها كل تفكير فى أصدقائها .. وصارت لا تفكر الان فى شىء سوى الافلات ، واستئناف حياتها الماضية .. حياة جديدة ليس فيها ديك ولا مزرعته وكل مايرتبط بهما .. فهذا كله لايمت لها بصلة ، وهو بعيد عن الحقيقة والواقع .. ومن البشاعة ان هذا كله قد فرض عليها فرضا !..

وشيئا فشيئا ، على مدار الاسابيع ، اقنعت نفسها بأن كل مايعوزها هو الوصول الى القطار والعودة الى البلدة والى تلك الحياة البديعة الهادئة ..

وذات يوم ، عندما عاد الخادم من المحطة بحمله الثقيل من التموين والبريد ، أخذت الجريدة الاسبوعية وجعلت تتصفحها كالعادة لتطلع على اخبار المواليد والزيجات وهو ماكانت تفضله دون سواه ، فاسترعى نظرها اعلان صادر من الشركة التى كانت تعمل فيها طوال المدة الماضية ، عن طلب موظفة تجيد الاختزال والكتابة على الآلة الكاتبة .. فكان هذا الاعلان ملهبا لمشاعرها ، حتى لقد ظلت اكثر ليلتها ساهرة ساهدة ، مركزة جماع تفكيرها فى هذا المستقبل الممهد على هذا النحو ، الذى هو أيضا حياتها الماضية .

وهكذا ، ما ان مضى ديك فى الصباح الى مزرعته حتى ارتدت

ملابسها وحزمت حقيبة حاجياتها ، وتركت له رسالة قالت فيهـا ببساطة انها عائدة الى عملها القديم تماما كما لو أن ديك كان يعرف تفكيرها سلفا ويوافق على قرارها ..

وقطعت مسافة الخمسة أميال بين بيتها ومزرعة سلاتر فى ساعة ... وكانت تجرى نصف المسافة ، وحقيبة ملابسها الثقيلة تهتز مرتطمة بساقيها ، وحذاؤها يمتلىء بالاتربة الخشنة ، حتى كانت تتعثر احيانا فى نتوءات الطريق الحادة ..

وقد وجدت تشارلى سلاتر واقفا عند حدود المزرعتين وهـو لا يفعل شيئا فى الظاهر .. كان يرسل نظـره فى الطريق الذى قدمت فيه ، مغمغما فى حلقه وقد زادت عيناه ضيقا .. وادهشها عندما توقفت أمامه ان تراه واقفا فى مثل هذا التكاسل وهو الذى كان منشغلا على الدوام .. فلم تتصور انه كان يفكر فى كيف يمكنه شراء مزرعة ذلك المغفل ديك تيرنر عندما يفلس تماما .. انه فى حاجة الى منطقة مراع اضافية لمواشيه ..

واذ تذكرت انها لم تلتق به الا مرتين او ثلاثا ، وأنه فى كـل مرة لم يكلف نفسه اخفاء نفوره ، فما لبثت ان تمالكت ، وحاولت ان تتكلم بتؤدة ، رغم أنها كانت متقطعة الانفاس .. وقد سألته ان كان يمكن ان يوصلها بسيارته الى المحطة فى موعد تدرك فيـه قطار الصباح ، اذ لايوجد قطار آخر قبل ثلاثة أيام ، وهى فى الواقع مستعجلة ..

فنظر اليها تشارلى بدهاء ، وبدا أنه يحسب ويقدر .. وفجـأة قال لها ممازحا :

ــ أين الرجل « العجوز » ؟.

فأجابت متلعثمة :

ــ انه .. يعمل ..

غمغم سلاتر ، وبدا عليه الارتياب ، بيد أنه رفع حقيبتها الى سيارته التى كانت واقفة تحت شجرة ضخمة على جانب الطريق ... ثم دلف الى السيارة ، وصعدت هى الى جانبه ، وتشاغلت باقفال الباب بينما راح يحدق امامه فى الطريق مصفرا من خلال أسنانه .. واخيرا استقرت فى مجلسها متشبثة بحقيبتها كما لو كانت جواز سفر ..

اخيرا سألها تشارلى وقد تلفت ناظرا اليها فى دهاء :

ـ « العجوز » مشغول الى هذه الدرجة حتى لا يصحبك الى المحطة ؟ ..

تورد وجهها ، واومأت ايجابا ، شاعرة بالتأثم ..

وادار محرك السيارة القوية التى اخذت تنهب الطريق حتى لتكاد تلامس الاشجار وتنزلق بسبب الاتربة .. وفى المحطة كان القطار واقفا يلهث وينشر المياه ، ولم يكن أمامها وقت تضيعه ، فشكرت تشارلى باقتضاب ، ونسيته تماما حالما تحرك القطار ..

وعند الوصول حملت حقيبتها وسارت فى البلدة التى لم تدخلها منذ ان أرتحلت عنها بعد الزواج .. وفى المناسبات القليلة التى اضطر فيها ديك الى القيام بهذه الرحلة ، رفضت ان تصاحبه ، نفورا من تعريض نفسها لمصادفة من كانت تعرفهم ...

وشعرت بقلبها يخفق تشوفا وهى تقترب من النادى ..

كان يومابديعا ، معطر الانسام ، موفق الازهار ، لألاء الشمس ، يذكى فى النفس أسباب البهجة والانتعاش .. حتى السماء ذاتها بدت مختلفة وهى تراها من خلال الابنية المعروفة لديها ، باهـرة الزرقة ، صافية الاديم .. لقد شعرت مارى من فرط بهجتها وحبورها انها تكاد تتنكب الرصيف وتسبح فى الطرقات وهى فى اتم حالات الصفاء والسكينة .. كان هذا عالما مختلفا .. كان عالمها الخاص ! ..

وفى النادى تلقتها مشرفة جديدة ابلغتها أنهم لايقبلون نساء متزوجات .. لقد راحت المرأة تنظر اليها باستغراب ، فكانت هذه النظرة قاضية على مشاعر السعادة آلتى استخفت مارى لدى دخولها .. انها نسيت تلك القاعدة الخاصة بعدم قبول النساء المتزوجات ، وأن غدت لا تعد نفسها متزوجة ..

مهما يكن فقد تمالكت وذهبت الى فندق حيث تولت تصفيف شعرها فى الغرفة التى أعطيت لها .. وبعد ذلك توجهت الى مكتب الشركة التى كانت تعمل فيها ..

لم يكن بين الفتيات العاملات هناك من تعرفها .. ولما أدخلت الى مكتب رئيسها القديم طالعت فى وجهه تلك النظرة التى وجدتها فى وجه مشرفة النادى .. جعل يتفرس فيها طويلا وانتقل نظره الى حذائها الذى كان لايزال معفرا بالغبار الاحمر ، لانها نسيت أن تنظفه .. وقد ابدى لها الاسف قائلا ان الوظيفة شغلت فعلا ...

سادت لحظة صمت طويلة ، فيما رات ماري ان احلامها طيلة الاسابيع الاخيرة قد تبددت ..

ولما رجعت الى غرفتها في الفندق راحت تنظر الى نفسها فى المرآة .. كان فستانها من القطن الباهت ، وبدا لها بالمقارنة بملابس الفتيات فى مكتب الشركة زيا عتيقا ، وان كان نظيفا — اما بشرتها فقد أصبحت مغضنة ضاربة الى السمرة ..

فجأة خامرها الغضب والكراهية ضد رئيس المكتب ، وضد مشرفة النادى ، وضد الناس جميعا .. لقد تلقوها بالاستغراب والاستنكار بسبب هيأتها البادية .. لكن ما الذى كانوا يتوقعونه بعد كل ما استهدفت له من المصاعب والصدمات وخيبة الامل ؟..

ولقد بدا لها أن تذهب الى صالون للتجميل حتى يتسنى على الاقل أن تعيد مظهرها الى الحالة الطبيعية .. بيد أنها تذكرت أنها لا تملك نقودا كافية ، اذ كان ما معها لا يزيد على نصف جنيه وبضعة بنسات .. وهكذا لن تتمكن حتى من سداد أجر الفندق ...

هكذا تهالكت فى مقعد قرب الحائط يائسة محسورة ، عاجزة عن كل تفكير ...

وعندما سمعت طرقا على باب الغرفة تطلعت نحوه وكأنما كانت تتوقع أن يحدث شىء ، فكان القادم هو ديك ، ولم يغير دخوله من ملامح وجهها ..

ظلا لحظة لاينبسان بكلام .. ثم مالبث أن مد ذراعيه نحوها وقال مستعطفا :

— مارى .. لا تتركينى !..

تنهدت مارى ، ونهضت قائمة ، وسوت ملابسها وشعرها بحركة آلية ، وبدأ من هيأتها انها تستعد لرحلة مقررة .. وعندما رأى وقفتها وملامح وجهها التى لم تنبىء عن مقاومة او كراهية ، بل مجرد استسلام — أنزل ذراعيه .. فلن يكون بينهما مشهد عاصف اخيرا .. فقد التزم التعقل بدوره .. ونظر الى نفسه فى المرآة كما فعلت مارى من قبل .. انه جاء وهو بملابس المزرعة دون ان يتوقف حتى لكي يأكل ، بعد ان قرأ رسالة مارى التى بدت وكأنها طعنة تبعث الالم والامتهان .. وكانت اكمامه مدلاة فوق ذراعين لوحتهما الشمس ، وقدماه بلا جوارب دسهما فى حذاء مرتفع .. غير انه قال لها وكأنهما جاءا معا فى رحلة انه يمكنهما

تناول الغداء فى مطعم والذهاب الى السينما ، اذا رغبت فى هذا .. وبدا لها أنه يحاول ان يجعلها تشعر كأن شيئا لم يحدث بينهما .. ولكنها وهي تنظر اليه رأت أن هذا كان استجابة لما بدا من قبولها للموقف ، مما حدا به الى قول ماقاله .. وعندما ألفاها تجاهد لتسوية ملابسها بصورة متخبطة قال أنه يجدر بها ان تذهب لشراء بعض الملابس لها .

فردت عليه ، لاول مرة ، بلهجتها اللاذعة :

ـ ومن أين النقود ؟ ..

وبعد أن تناولا الطعام فى أحد المطاعم الذى اختارته مارى خصيصا لانه بدا بعيدا عن الاماكن المطروقة تحاشيا لرؤية أحد من اصدقائها لها ـ عادا معا الى المزرعة ، وكأن كل شيء كان طبيعيا ، وكأن هروبها كان حدثا صغيرا ، حدثا يمكن نسيانه بسهولة ..

بيد أنها عندما عادت الى البيت ، وألفت نفسها من جديد فى مجريات الحياة المعتادة ، وليس أمامها الآن حتى أحلام يقظة تتعلق بها وتعلل النفس بأمانيها ، مواجهة المستقبل على علاته بحكم الامر الواقع والضرورات القاهرة ـ عندها الفت نفسها مكدودة وفى تمام الاعياء .. بل بلغ من اعيائها انها أفتقدت القدرة والقابلية لعمل أى شيء .. وبدا كأن رحلة البلدة قد استنزفت رصيدها من القوة ، ولم تترك لها سوى النذر اليسير من القدرة لعمل مالابد من عمله .. كانت هذه بداية تفسخ داخلى .. وقد بدأ بهذا الخور ، وكأنما أضحت لا تقوى على الاحساس أو المقاومة ..

وربما ، لو لم يحرص ديك ، لجاءت النهاية سريعة ، على هذا الوجه أو ذاك .. ربما كان يمكن ان تتوفى عاجلا ، كما حدث لأمها بعد مرض قصير ، خصوصا لانها فقدت الرغبة فى التعلق بالحياة ... أو ربما كانت تهرب مرة ثانية ، فى محاولة أخرى مستميتة تقوم بها هذه المرة بصورة محكمة ، وتستأنف الحياة التى هيأتها لها الطبيعة بحكم تكوينها ونشأتها ، وحيدة ، ومستكفية بنفسها ... ولكن حدث ذلك التغيير المفاجيء الذى بدل كل شيء تبديلا .. فبعد أشهر قلائل من هروبها ، وبعد ست سنوات من زواجها بديك انتابه المرض لاول مرة فى حياته ..

الفصل السابع

كان الوقت شتاء ، وهو الفصل الذى تحبه مارى اذ يقيها غوائل الحر المرهق ويبعث فيها الحيوية والنشاط .

ولم يفت ديك أن يلاحظ هذا ... لقد أصبح الان شديد الاهتمام بها وافر الحرص على راحتها بعد هروبها ، وكانت عودتها باعثة لامتنانه لها ومؤدية لتقربه منها .. ولو أنه كان رجلا حقودا لعاملها بكل برود ... لكن هذا لم يدر بخلده قط ... وهكذا كان رقيقا متسامحا . كاظما لنزوات الغضب والانفعال ، مغتبطا لرؤيتها فى هذه الصورة الجديدة .. بل انه سألها مرة أخرى ان تذهب معه الى المزرعة ، اذ شعر بحاجته الى الوجود قربها ، وخوفا من ان تختفى مرة أخرى اذا غاب عنها .. والواقع أنه لم يستطع ان يتصور عودته الى البيت وهو خلو من مارى ..

بيد انها رفضت ان تساعده فى شئون المزرعة .. وبدا لها أن من القسوة ان يقترح عليها شيئا كهذا ، لحرارة الجو فى المزرعة المنخفضة ، بالقياس الى اعتداله فوق الربوة التى قام عليها البيت واذا كان ديك قد تقبل منها هذا الرفض محزونا ، فقد ظل أسعد مما كان فى الماضى ، قانعا بركونها الى الهدوء والاستقرار ...

ثم كان مرض ديك الذى غير كل شىء ..

ان ديك لم يمرض من قبل ، على الرغم من ان الاقليم موبوء بالملاريا وقد عاش فيه طويلا .. او لعل الملاريا كانت كامنة فى دمه منذ سنين ولم يدر هو بهذا ؟.. وكان دائما يتناول أقراص الكينين كل ليلة خلال فصل الرطوبة ، لكن ليس عندما يكون الطقس باردا . ومهما يكن فقد رآته مارى ذات مساء عائدا من المزرعة مصفر الوجه مرتعدا .. فأعطته كينين واسبيرين ، وبعدها ارتمى فى الفراش دون أن يتناول عشاءه ...

وفى اليوم التالى نهض غاضبا من نفسه رافضا التسليم بمرضه وتوجه الى العمل كالمعتاد مرتديا سترة جلدية لوقايته من نوبات الارتعاش العنيفة .. ولما كانت الساعة العاشرة صباحا عاد أدراجه متهالكا والعرق يتصبب على وجهه وعنقه وزحف الى الفراش

متدثرا بالاغطية وهو في شبه غيبوبة ..

كانت نزلة حادة جدا ، ونظرا لانه لم يكن معتادا على المرض فقد بدا مغاضبا شديد الحرد .. فبعثت ماري برسالة الى مسز سلاتر ـ وان كرهت أن تطلب منها معروفا ـ وفي نفس اليوم احضر تشارلي الطبيب بسيارته ...

وبعد أن تولى الطبيب فحص المريض والاشارة بالتعليمات المعتادة ، قال لماري ان البيت خطر بوضعه الحالي ، وانه يجب احاطته بشبكة أسلاك ضد الملاريا .. كما أشار بضرورة قطع أشجار الغابة المحيطة بالبيت الى مدى مائة ياردة ، وبناء سقف له ، والا اصيب كلاهما بضربة شمس .. ثم نظر الى ماري متفحصا وابلغها انها مصابة بأنيميا ويجدر بها ان تذهب الى المنطقة الساحلية في الحال لمدة ثلاثة أشهر على الاقل .. وانصرف على الاثر .. ووقفت ماري في الشرفة تراقب السيارة وهي تبتعد وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة يسيرة أليمة .. لقد دار بخلدها وقتئذ انه ماأسهل الكلام عند أهل الطب الاغنياء .. وكرهت من هذا الطبيب هدوءه وهو يهون من مصاعبهم ، عندما قالت له انهم لا يتحملون اجازة ، فرد عليها بحدة : « كلام فارغ !.. وهل تحتملون ان يداهمكم المرض ؟ » .. بل انه سألها منذ متى لم تذهب الى المنطقة الساحلية ! .. انها في الواقع لم تذهب الى شواطىء البحر أبدا .. غير أن الطبيب كان يعرف وضعهما بأكثر مما كانت تتصور ، اذ ان فاتورة الاتعاب التي كانت تنتظرها في جزع لم تصل .. وبعد فترة كتبت اليه لمعرفة مقدار الاتعاب ، فجاءها الرد بهذه العبارة « ادفعوا عندما تتحملون الدفع » .. لقد شعرت بالتعاسة والكرامة الجريحة ، لكن لا بأس ـ فهي في الواقع لم تكن لديها نقود ...

ولم تلبث مسز سلاتر ان ارسلت اليهم كيسا مملوءا بالموالح من مزرعة زوجها هدية لديك ، الى جانب هدايا أخرى للمساعدة ... وقد شعرت ماري بالامتنان لها لما أسدت اليهم من هذه الناحية وهي لاتبعد عنهم بأكثر من خمسة أميال ، وان قررت الا تزورهم الا في حالة الطوارىء .. وكتبت الى مسز سلاتر احدى رسائلها الجافة تعرب عن الشكر ، واضافت أن ديك يسير في طريق التحسن ..

غير ان ديك كان ابعد عن هذا التحسن .. فقد ظـل طـريح الفراش عاجزاً وفى حالة انسان في رعب من مقاساة المرض الشديد لاول مرة واتجه بوجهه الى الحائط ولف رأسه بغطاء ، حتى اثار احتقان مارى له .. بيد أنه من وقت لآخر كان يفيق ليسأل عن المزرعة ويبدى القلق لاختلال العمل فيها دون اشرافه المباشر ..

وقد عكفت مارى على تحريضه كطفل مدى اسبوع فى اخلاص ولكن بنفاد صبر بسبب خوفه على نفسه .. ثم زالت عنه الحمى ، واصبح ضعيفاً واهناً لا يكاد يقوى على الجلوس .. وانشأ يتقلب ويتململ ويتذمر ، ولا حديث له الا عن أعمال المزرعة ..

ورأت مارى انه يريدها ان تذهب الى المزرعة وتشرف على العمل وان لم يعرب عن هذا صراحة .. وظلت فترة لا تستجيب الى علائم الاستعطاف التى آنستها فى وجهه المنهك المتحفز للشجار ، وعندما رأت انه سيترك الفراش قبل أن يصبح فى حالة تمكنه مـن السير ، قالت له أنها ستذهب ..

كان عليها أن تتغلب على نفورها .. وحتى عندما نادت الكلبين ووقفت فى الشرفة ومفاتيح السيارة فى يدها ، لم تلبث أن عادت الى المطبخ لشرب كوب ماء .. وبعد ان جلست فى السـيارة واستقرت قدمها فوق المسرع ، قفزت خارجة مرة أخرى منتحلة حاجتها الى منديل .. وعند خروجها من غرفة النوم استرعى نظرها ذلك الكرباج الكبير الذى كان معلقاً فوق باب المطبخ ، مـن قبيل الزينة .. فتقدمت اليه ورفعته من مكانه ولفته حـول معصمها ، وذهبت الى السيارة وهى أوفر ثقة بنفسها .. وبسبب هذا التحول فقد فتحت باب السيارة الخلفى واخرجت الكلبين ، اذ كانت تنفر من انفاسهما الكريهة خلف عنقها ، وتركتهما يعويان بخيبة الامل خارج البيت ، واتجهت بالسيارة الى المزرعة ..

ومن عجب أنها لم تكد تتواجد فى صميم المزرعة حيث كان العمال يقومون بحصد الذرة حتى زال عنها ترددها ونفورها السالفان : وشعرت بالمسئولية الجديدة التى القيت على عاتقها تنشـطها وتذكى من عزيمتها .. وعلى الرغم مما آنسته من نفور العمال لوجود امرأة تشرف عليهم وتوجههم ، منذ استطاعت بما أبدته من حزم ورباطة أن تسيطر عليهم ...

وفى خلال ذلك ظل ديك فى الفراش قلقاً متبرماً مسـتاء من عجزه .. وهو لم يكن يحب التفكير فى وجود مارى فى المزرعة

طوال النهار بين العمال ، اذ لا يعد هذا عملا مناسبا للمرأة .. بيد انه لم يلبث أن شعر بالارتياح عندما أبلغته أن العمل يتقدم باطراد وأنها لن تكف حتى تتم عمليات الحصاد وتخزين الذرة على الوجه المرغوب ...

وفي نهاية الاسبوع كانت ماري هي التي جلست خلف الطاولة الصغيرة في شرفة البيت حيث تجمع العمال في الخارج وتولت توزيع الاجور طبقا للنظام المقرر شهريا ..

وتعاقبت الايام وهي تباشر شئون البيت والمزرعة بهمة لاتعرف الكلل ، وفي كل يوم كانت تتكشف لها اشياء لم يكن لها بها عهد من قبل .. ومن ذلك ماوقفت عليه من حقائق غريبة اثناء اطلاعها على الدفاتر التي كان ديك يسجل فيها عملياته الزراعية وحساباته .. وقد روعها ما أطلعت عليه من سوء الادارة وانعدام التخطيط .. وتجلى لها ان محاولاته الفاشلة في تربية الديوك الرومية والخنازير وما اليها لم تكن سوى هروب من الاخذ بأسباب التنظيم والتدبير .. في كل مكان كانت تجد اعمالا بدا بها ثم تركها دون أن تتم .. فهنا مساحة من الارض اقتطعت منها الاشجار حتى منتصفها ، ثم تركت لكي تعود أشجارها الى النمو من جديد .. وهناك حظيرة للابقار اقيم نصفها من الطوب والحديد ونصفها الاخر من أخشاب الغابة والطين .. وكانت الاراضي المزروعة رقاعا متباينة من شتى المحاصيل ودائما ماكان يجنى عشرين جوالا من هذا المحصول وثلاثين جوالا من ذاك ، مما لايهيىء له سوى ربحية محدودة في النهاية .. وفي المزرعة كلها لم يكن يتم عمل واحد على الوجه الاكمل المطابق للقواعد الزراعية السليمة .. فلماذا هذا العجز والتخبط عن رؤية الحقيقة ؟ لا مفر له أن يدرك أنه لن يحقق أي تقدم وهو يسير على هذا النهج الخاطىء ! ..

هكذا قررت ماري أن تفاتح ديك في الأمر عندما يتماثل للشفاء تماما ، لاقناعه بما سوف ينتهي اليه الحال حتما اذا لم يبادر بتغيير أساليبه في العمل .. وأن هي الا أيام قلائل حتى يتعافى ويتسلم الزمام ، وعندئذ لن تدعه يستريح ويهدأ مالم يعمل بمشورتها ...

ولكن في اليوم الذي حددته ماري لذلك ، حدث شيء لم يكن في حسبانها .

في ذلك اليوم وقفت ماري تشرف على العمال وهم يقـومون بتخزين محصول الذرة في الاجران ، عندما استرعى نظرها وقوف أحد العمال بمعزل عن زملائه خارج الصف وهو يتنفس بمشـقة والعرق يلمع فوق وجهه .. فانتهرته قائلة : « عد الى عملك » !.. فتطلع اليها بنظرة خاوية ، ثم بحركة مسترخية انزل ذراعيـه المشبكين وسار مبتعداً لكي يشرب من صفيحة ماء تحت شجرة مجاورة .. فقالت له بصوت حاد : « قلت عد الى عملك ! » ..

عندئذ وقف مكانه ونظر اليها مواجهة وقال لها بلهجته المحليـة التي لم تكن تفهمها :

ـ اريد ان اشرب !..

فقالت غاضبة وهي تتلفت حولها بحثا عن رئيس العمال الذي لم يكن في مدى النظر :

ـ لا تكلمني بهذه الرطانة السخيفة !..

فقال الرجل بلغة انجليزية متقطعة :

ـ اريد ... ماء ... ماء !..

وفجأة ابتسم وفتح فمه وأدخل اصبعه في حلقه ..

فسمعت ضحكا مكتوما يصدر عن العمال .. فكان هذا الضحك الساذج مثيرا لحنقها .. وفتحت فمها لتأديبه ، غير أنها امسكت ... وأنما غاظها أن لمحت في عينيه نظرات الاستخفاف .. واذا هي ترفع الكرباج الذي لم يكن يفارق يدها في المزرعة بحـركة لا ارادية وتهوى به على وجهه ...

انها في الحق لم تكن تعرف ماهي فاعلة ... ووقفت مكانهـا جامدة ترتعد .. ولما رأته يرفع يده الى وجهه في ذهول نظـرت الى السوط في يدها مصعوقة وكأنه تحرك من تلقاء نفسه ، ودون ارادتها .. ولمحت قطرة دم تنبثق من موضع اللطمة وتنحدر على ذقنه ثم الى صدره ..

كان زنجيا ضخما واطول من زملائه ، وبديع تناسق الجسم ، لا يكسوه سوى خيش عتيق مشدود حول وسطه .. وبدا وهي واقفة مكانها ، مرتقبة ، كأنه مارد يطل عليها .. ثم انحدرت قطرة حمراء اخرى فوق صدره العريض ومنه الى وسطه .. ولم تلبث ان رأته يقوم بحركة مفاجئة جعلتها تتراجع مذعورة اذ ظنت انه يوشك ان يهجم عليها .. بيد انه لم يعد أن مسح الدم من وجهه بيـده

الضخمة التى كانت تهتز قليلا .. واحست ان جميع العمال وقفوا من خلفها فى أتم سكون وهم يراقبون هذا المشهد .. وفى صوت بدا أجش من اللهث قالت : « الان غد الى العمل » ... فنظر اليها الرجل نظرة جعلت امعاءها تمور من الخوف ، ثم تحول مبتعدا ببطء والتقط كيسا وانضم الى زملائه .. واستانف الجميع عملهم صامتين .. أما هى فكانت ترتعد من الفزع بسبب فعلتها ، وبسبب تلك النظرة التى شاهدتها فى عينى الرجل ..

ولكن اليوم انقضى بسلام ، وفى المساء عادت مارى الى البيت وقد ذهب عنها الروع ، خصوصا وان مهمتها قد انتهت ، اذ ان ديك سيعود الى عمله غدا ، ويعفيها من هذه المهمة المحفوفة بالخطر ...

ومع ذلك ، ففى تلك الليلة ذاتها ، عندما فكرت مارى فى الايام الخاوية التى ستتعاقب فى حياتها ، خامرها الاعياء والملل .. وبدت لها المناقشات التى كانت تنوى ان تديرها مع ديك والخطط التى كانت تريد الاخذ بها لادارة المزرعة على نحو ناجح مربح بعد ممارستها للعمل واطلاعها على مجريات الامور ـ بدت لها تلك المهمة ثقيلة ممقوتة .. ذلك أنها وجدت ديك يستعد لتولى الزمام من جديد بنفس أسلوبه السابق ، وكأن اشرافها على العمل فى تلك الفترة لم يكن شيئا مذكورا ...

وفى الايام القلائل التى توالت بعد ذلك كانت مارى تمضى وقتها مترددة وهى تراقب ديك عن كثب مسجلة تماثله للشفاء التام واستردأده لكامل صحته وعافيته ـ وعندئذ قررت ان تطرق موضوع المزرعة وتفاتحه فيما كانت تنويه ...

بدأت تقول له ذات ليلة وهما جالسان تحت ضوء المصباح الحسير ان سير العمل فى المزرعة بالكيفية الراهنة لن يحقق الربح المنشود ، مؤيدة كلامها بالارقام الواردة فى سجلاته ... وعلى الرغم من ضيقه بانتقاداتها ، فقد كتم مشاعره ، ايمانا منه بسلامة آرائها ...

وعندما فرغت قال لها بعد صمت وهو يبتسم ابتسامة المخذول :

ـ حسن ... وما الذى يمكن أن نفعله ؟..

ان تلك الابتسامة قد زادتها صلابة .. فهو قد تقبل نقدها ..

وهـذه أول خطوة على طريق الفوز .. ومـن ثم بدات تشرح له تفصيلا مايجب ان يفعلاه . .

اقترحت عليه ان يقوما بزراعة التبغ ... فكل الناس حولهما يزرعون التبغ ، ويجنون الارباح الوفيرة .. فلم لايحذوان حذوهم ؟ بهذا يمكنهما سداد ديون المزرعة ، ومفارقتها بأقـــرب وقت مستطاع ..

لقد ارتاع ديك لمجرد التفكير في هجر المزرعة التى أصبحت قوام حياته وملاك وجوده .. لاشيء يذكى أحاسيسه مثل زفيف رياحها وصدح اطيارها ، وملمس ترابها ، وتقلبات أجوائها .. ان بعده عن المزرعة كفيل بأن يعجل بموته تعجيلا .. كل ماكان يبتغيه هو العمل على تحسين الأحوال في المزرعة حتى يتسنى لمارى أن تنال ماتشتهيه وان تعيش معه في دعة ورخاء .. وفوق هذا كله ـ حتى يتهيأ لهما انجاب أطفال .. أن الأطفال عنده يمثلون حاجـة ملحة .. وحتى الان في ظروفهما الراهنة ، فانه لم يفقد الامل في أن يجيء يوم .. لم يتمالك ان نظر اليها وهو أقرب الى الارتياع وكأنها مخلوق عـــدائي لا حق له في البقاء معه وأملاء مشـيئته عليه ..

بيد أنه لم يستطع أن يفكر فيها بهذا الوصف .. فقد أدرك ، عندما هربت من المزرعة في تلك المرة ، معنى وجودها في بيته ، ومبلغ قيمتها عنده .. كلا اذن ؟.. لابد لها أن تفهم حاجتـه الى المزرعة ، وعندما تتحسن الأحوال ، يمكنهما انجاب الأطفال .. لابد أن تعرف ان أحساسه بالهزيمة لم يكن سببه فشله كمزارع بأى حال .. فهذا الفشل ناجم عن معاداتها له كرجل ، ووجودهما معا بالوضع الذى هما عليه .. وعندما يتيسر لهما الانجاب فان هـذا القصور سيزول ، وعندئذ يعيشان في سعادة ...

بهذا جرت خواطره في فترة الصمت التى أعقبت حديث مارى ، وان لم يبرأ بعد من أحساس الهزيمة الذى ظل يغالبه .. فان مجرد التفكير في زراعة التبغ كان يملأ نفسه نفورا ، اذ كـانت زراعـة التبغ تعني الوقوف مدى الساعات الطوال في ابنية مغلقة ذات حرارة خانقة ، والقيام من النوم ليلا لمراقبة الترمومترات وقياس درجات الحرارة ...

وهكذا لبث فترة يعبث بالاوراق فوق الطاولة معتمدا راسه بين كفيه وهو في كرب من أمره .. لكن لافائدة ، وهذه مارى جالسة

فى مواجهته ، تجبره على الامتثال لارادتها ...
واخيرا رفع راسه وتكلف ابتسامة تعسة وقال لها :
ــ حسن يا « ريسة » ! .. هل يمكن ان أفكر فى الامر مدى ايام قليلة ؟..
بيد أن صوته كان مشوبا بالمسكنة .. وعندما قالت له باستياء « أرجوك الا تسميني ريسة » ــ لم يعقب بكلام ، وان كان الصمت الذى ساد بينهما كان أبلغ فى البيان مما كانا خائفين أن يقولاه ...
ولم تلبث مارى ان قطعت حبل الصمت اذ نهضت بعزم عن الطاولة ودفعت الاوراق والدفاتر قائلة :
ــ انا ذاهبة للنوم ...
وتركته حيث هو ، غارقا فى أفكاره ..
وبعد ثلاثة ايام قال لها بهدوء وقد أشاح بعينيه عنها أنه قد أتخذ الترتيبات اللازمة لبناء عنبرين للتبغ ...
وعندما رفع نظره اليها فى النهاية ، متحاملا على نفسه لمواجهة انتصارها الحاسم ، رأى عينيها تلمعان بأمل جديد ، وفكر فى توجس وقلق فيما سيترتب على فشله هذه المرة ..

الفصل الثامن

بعد أن سلطت ماري ارادتها للتأثير على ديك ، انسحبت ، وتركته وشأنه .. وقد قام هو بعدة محاولات لاستدراجها الى عمله وذلك بطلب مشورتها ومساعدتها له في بعض المشاكل ، بيد أنها رفضت هذه الدعوات كما كانت تفعل هذا من قبل — خصوصا وقد رأته يتصرف فى عمله بحماقة ، مبددا ماله في غير ماهو ضروري ، ومقترا فيما له جدوى .. وكانت النتيجة ان ديك بعد هذا الانسحاب والصد ، توقف عن الرجاء والاستعطاف ، ومضي فى طريقه بعناد ، شاعرا كأنما شجعته على السباحة في مياه عميقة فوق طاقته ، ثم تركته يتولى الموقف بجهوده الخاصة ..

ومهما يكن فانها راحت تراقب عن كثب عملية بناء عنبرين لزراعة الدخان حتى اكتملت ، واعقبتها عملية غرس البذور انتظارا لفصل الامطار التى بدونها لا يترعرع النبات فى التربة ..

ثم جاءت الامطار فى موعدها ، وظلت مواتية حتى شهر ديسمبر ... وبزغ الطباق مسويا ومخضرا يبشر بمحصول وفير .. واعتادت ماري أن تتمشى فى الحقول مع ديك لمجرد الاستمتاع بمشهد النماء والازدهار ، والتفكير في تحول تلك الاوراق الخضراء المستعرضه الى شيك قوامه عدة ارقام ...

وبعدها حل الجفاف ..

فى أول الامر لم يقلق ديك ... فهو يعرف أن التبغ يستطيع مقاومة فترات الجفاف مادام النبات قد أستقر فى التربة ... ولكن يوما بعد يوم بدأت السحب المتراكمة تنحسر ، والارض تزيد حرارة .. وعندئذ صار ديك متوترا ساخطا ، ولزمت مارى الصمت ...

وذات يوم هطل مطر خفيف ، ولكن فى واحدة فقط من المساحتين المزروعتين بالتبغ .. ومرة اخرى بدأ الجفاف ، وتوالت الاسابيع دون أثر للمطر .. ووقفت ماري وديك في الشرفة يشاهدان السحب تمر فوق التلال ، ومطرها الرذاذ يتقدم ويتأخر فوق الغابة

ولكن مامن شيء منه كان يسقط فوق مزرعتهما ، وان كان غيرهما من الزراع قد فازوا بوابل يكفي لانقاذ محصولهم من التبغ .. وعصر يوم هطل رذاذ حار يسير بدت قطراته متلألئة خلال اشـــعة الشمس ، بيد انها لم تكن كافية لترطيب الارض العطشى المتيبسة ... ولم تعد أوراق التبغ الذاوية قادرة على الاستقامة . ثم أعقب ذلك شمس متوهجة ......

وقال ديك بوجه قلصه الاسى :

ــ حسن .. فات الوقت على أى حال ..

بيد أنه كان يؤمل ان الحقل الذى أدركته الرحات الاولى قـد ينجو .. وعندما هطلت الامطار فى النهاية كما يجب ، كان اكثر نبات التبغ قد حل به التلف ، ولم يسلم الا القليل ..

هذه الصورة نقلها ديك الى مارى بهدوء وهو محزون مكروب .. ولكنها فى نفس الوقت آنست أمارات الارتياح فى وجهه .. فهو قد فشل دون أن يكون له ذنب .. وماهو الا سوء حظ يمكن أن يحدث لاى أحد .. وما يكون لها ان تنحى عليه باللوم من أجـل ذلك ...

وكان هذا الموضوع محل نقاش ومداولات بينهما ذات ليلة ... فقال ديك انه طلب قرضا جديدا لانقاذهما من الافلاس ، وانه فى العام القادم لن يعول على زراعة التبغ .. بل أنه يفضل الا يزرعه قط ، وان كان يمكن أن يزرع بعضه اذا هى أصرت . فلو أنهمـا منيا بفشل آخر مثل هذه السنة فان افلاسـهما مؤكـد لا ريب فيه ...

وفى محاولة أخيرة اقترحت عليه مارى أن يجرب مرة أخرى فى العام القادم ، اذ لا يمكن أن تسوء حالة الموسم فى عامين متعاقبين ... وعلى أى حال فما لزوم الاستدانة ؟.. بالمقارنة مع غيرهما ممن يملكون الالاف ، فان دينهما لا يكاد يذكر بتاتا .. واذا لم يـكن أمامهما مفر من الافلاس ، فليكن افلاسهما شاملا .. واذن فليقوما ببناء اثنى عشر عنبرا ، وليزرعا كافة الاراضى التى يحوزانها تبغا ، وليغامرا بكل مايملكانه فى محاولة أخيرة .. ولم لايكون هذا ؟.. لماذا يتحرج هكذا ويراجع ضميره اذا كان غيره لايفعل ؟ .

غير أنها آنست فى ملامح وجهه تلك السمات التى رأتهـا مـن قبل ، عندما توسلت اليه أن يسافرا فى اجازة لاسترداد الصحة

والعافية .. لقد تجلى في قسماته خوف كالح لذع اطرافها اذ قال لها في النهاية :

— لن أزيد ديوني بنسا واحدا ما استطعت ... حتى ولا لاي انسان ...

وكانت لهجته قاطعة ، وعناده راسخا ..

شعرت ماري بتعاسة بالغة ، وأن كانت متبلدة ... الى رجاء يمكن أن تتعلق به الان ، واى مستقبل هذا الذى يمكن ان ترتقبه فى ظل هذه الظروف اليائسة ؟

اما ديك فقد ادهشه ان رأى دلائل قليلة على خيبة املها .. اذ كان يتوقع أن تواجهه بثورة عارمة قوآمها الغضب والدموع ... وما لبث أن اطمأن اذ قدر ان الضربة لم تكن شديدة بالغة الشدة كما كان يتوقع ..

غير ان آثار الصدمات المعنوية لاتتبدى الا ببطء .. وهكذا مضت فترة طويلة قبلما تهيأ كيانها لاستيعاب الحقيقة ، وهى انه لابد أن تمضى سنوات طويلة قبل أن يتاح لهما التخلص من متاعب المزرعة ، اذا قدر ان يحدث هذا ..

ثم بدا لها على نحو مبهم أن تشغل نفسها بعمل ما ، والا اصيبت بالخبال .. وعادت الى تربية الدجاج ، والاشراف على متجر العمال ممارسة هذا وذاك من قبيل الاعتياد لا اكثر ولا اقل .. وفى خلال هذه الفترة لم تستسلم لما كان يعتريها من نوبات الغضب على الخدم ، وكأنما كانت هذه الظاهرة وليدة طاقة محتبسة ، وعندما خمدت الطاقة لم يبق موجب للغضب والثوران ...

الى آن جاء يوم فاجأت فيه ديك بما لم يكن يتوقعه ..

طالعته وقتها بهيئة غريبة ونظرات مستميتة ، وسألته ان كان من الممكن آن ينجبا طفلا ...

لقد أبهجه هذا المطلب .. وكان أسعد شيء سمعه منها .. لان المطلب صدر عنها ، بمحض اختيارها وطوعيتها ..

بدا له انها انعطفت اليه أخيرا ، واعربت عن انعطافها بهذه الصورة .. هكذا كان اغتباطه لا حد له ، حتى كاد أن يوافق من فوره .. فهذا اشد ماكان يبتغيه ، اذ كـان الحلم الذى طالما راوده هـو أن تتحسن أحواله ذات يوم ، فيتهيأ لهما انجاب الاطفال ...

ثم مالبث أن اعترى وجهه تجهم وقلق ، اذ قال لها :

ـ ماري .. كيف يمكن ان يكون لنا أطفال ؟..
ـ غيرنا لهم أطفال ، وهم فقراء ..
ـ لكن ياماري ، أنت لا تعرفين مدى فقرنا ..
ـ أعرف بالطبع .. لكن لايمكنني ان أمضي في حياتي هكذا .. لابد لي من شيء .. ليس عندي أي شيء أفعله ..

رأى انها تشتهي الطفل لنفسها فقط ، وانه بشخصه لا يعني شيئا عندها ـ فرد عليها باصرار قائلا انه ماعليها الا ان تنتظر حولها لكي ترى مايحدث للاطفال الذين ينشأون النشأة التي ستكون لاطفالهم ...

ـ اين ؟ ..

فاهت بهذا السؤال شاردة الفكر وهي تنظر حول الغرفة وكأن اولئك الاطفال التعساء موجودون فعلا ، في بيتهم ..

قال لها وقد تملكه الاستياء :

ـ ألم تسمعي عن الهولندي عند تشارلي سلاتر ؟..
ـ أي هولندي ؟..
ـ مساعده .. هو اب لثلاثة عشر طفلا !.. وراتبه لا يتجاوز اثني عشر جنيها شهريا .. ان سلاتر يقتر عليه أشد تقتير .. ثلاثة عشر طفلا ! .. أنهم يدورون مثل الكلاب الصغيرة ، في خرق بالية ، وطعامهم لا يسد الرمق ... وهم لا يذهبون الى المدارس ...
ـ طفل واحد لا اكثر ..

فاهت ماري بهذه الكلمات في صوت شكاء متهافت كان اقرب الى العويل .. كانت تحس انها بحاجة الى طفل واحد لانقاذها من نفسها ... لقد مرت بها اسابيع من اليأس بطيئة متثاقلة لكي تصل الى هذا القرار .. كانت تكره فكرة انجاب طفل لما يستتبعه هذا من عجز الطفولة ومتاعبها الكثيرة ، غير انها كانت كفيلة بأن تعطيها شيئا تفعله .. كان من الغرابة بمكان ان تصل الامور الى هذا الحد : اذ كانت هي التي تستعطف ديك لانجاب طفل ، وهي تعلم انه الى ذلك مشوق ملهوف .. ولكنها بعد طول التفكير خلال اسابيع اليأس تلك ، اضحت متعلقة بهذه الفكرة ، اذ يكون الطفل خير رفيق لها .. بل تصورت ان الوليد سيكون طفلة ، تواسيها عندما تشب كما واست هي أمها وآست جراحها .. أجل !..

كانت تريدها بنتا تؤنس وحشتها ، ورفضت رغم كل شيء احتمال ان يكون ولدا ...

ولكن ديك عاد يقول :

ــ وماذا عن المدرسة ؟..

فقالت ماري غاضبة :

ــ ماذا عنها ؟ ..

ــ كيف ندبر مصروفات المدرسة ؟..

ــ لن يكون هناك أى مصروفات مدرسية .. ان والدى لم يتكلفا أى مصروفات للمدرسة ..

ــ هناك مصروفات للمدرسة الداخلية ، والكتب ، واجــور السـفر ، والملابس ... هل يمكن أن تأتينــا النقــود من السماء ؟ ..

ــ بالامكان ان نطلب منحة حكومية ..

فقال ديك بحدة :

ــ كلا ! .. كلا وحياتك !.. انني شبعت من التردد وقبعتي في يدي على مكاتب الرجال السمان طالبا للمعونة ، وهم متربعون في كراسيهم ينظرون اليك من طرف انوفهم !.. احسانا أطلب ؟.. هذا مالن افعله !.. لا اريد طفلا يشب وانا اعرف انني لان استطيع ان افعل شيئا من اجله !.. لن يحدث هذا في بيتي ! .. لن أعيش بهذه الطريقة ! .

فقالت ماري بلهجة مستطيرة :

ــ وتظن انه لا بأس ان أعيش انا بهذه الطريقة !..

ــ كان يجب ان تفكري في هذا قبل ان تتزوجيني !..

فما كاد يقول هذا حتى استشاطت غضبا وحنقا لما رأته في قوله من التحيف والتجني .. بيد أنها لم تلبث ان انحازت الى الهدوء ، فشبكت يديها المرتعدتين واغمضت عينيها ، واحست انها اضعف من أن تستسلم للغضب والثوران .. وقالت في اعياء :

ــ انني اتقدم الى سن الاربعين .. أفلا يمكنك ان ترى انني عما قريب لن أقدر على انجاب تماما ؟.. لا ، اذا مضيت في حياتي هكذا !..

ــ ليس الآن ...

قالها بلا رحمة .. وكان ذلك آخر العهد بأي حديث بينهما عن انجاب الأطفال ..

وعندما رأى فيما بعدعزوفها عن كل شيء ، عاد يقول لها مستعطفا :

ـ ماري ... ارجوك أن تأتي الى المزرعة معي .. لم لا ؟ . بامكاننا ان نقوم بكل شيء معا ..

فقالت له بصوت جاف متباعد :

ـ انني أكره مزرعتك !.. اكرهها ، ولا اريد ان يكون لي اي شأن بها !..

بيد أنها تحاملت على نفسها وبذلت هذا الجهد ، برغم لامبالاتها ... فكل شيء هو الآن سيان عندها .. ومضت اسابيع كانت خلالها تصاحب ديك اينما ذهب في اراضي المزرعة ، محاولة ان تشد من عزمه بوجودها الى جانبه .. ولكن ذلك ملأ نفسها يأسا أكثر من اي وقت سابق .. كان مصابه الاكبر في عناده الشديد .. كان يطلب منها المشورة ، فاذا اقترحت عليه رأيا او وجهت اليه نصحا ، تجهم وجهه بالعناد والاصرار ، واتجه الى الدفاع عن نفسه والتمسك برأيه ..

وعلى الرغم من هذا كله فقد تغلبت على يأسها ، وقالت له ذات يوم باشفاق ، ولكن في عزم :

ـ اسمع ياديك .. عندي فكرة .. لماذا لاتحاول في الموسم القادم قطع الاشجار من مساحة مائة فدان اخرى ، وتزرع محصولا اكبر ، من الذرة مثلا ؟ .. ازرع الذرة في كل فدان بالمزرعة ، بدلا من هذه المحاصيل الصغيرة المتفرقة ..

ـ وماذا يكون اذا جاء موسم الذرة سيئا ؟..

فقالت هازة كتفيها :

ـ لا يبدو أنك تجني فائدة من استمرارك هكذا ..

وعند ذلك احمرت عيناه ، وتصلبت عضلات وجهه ، وصاح فيها قائلا :

ـ وماذا يمكنني أن أفعل أكثر من هذا ؟.. وكيف يمكن ان اصلح مائة فدان أخرى ؟.. اهو مجرد كلام ؟.. اين أحد العمال اللازمين لهذا الغرض ، وليس عندي من الايدي العاملة مايفي بما أقوم به حاليا !.. هل نسيت أن أزمتي الحالية يرجع جزء منها الى تصرفاتك ؟ مع العمال الذين كنت الحقهم بخدمتك ؟.. انك أفقدتني عشرين من خيرتهم بعد طردهم ، وهم لن يعودوا الى العمل أبدا !.. انهم يتجولون في كل مكان مسوئين سمعة مزرعتي ، بسبب طبعك

الحاد اللعين ! . . انهم لايجيئون عندى كما كانوا يفعلون في الماضي !.
والحق أن ماري قلقت من حالته ولم تشأ ان تمضي فى نقاشها معه على غير طائل ...
وفي تلك الايام كان يعود معها من المزرعة عند غروب الشمس مكدودا متبرما ، فيجلس في مقعد ويأخذ في التدخين بلا انقطاع .. فقد أصبح الان مدمنا للتدخين ، وكان يدخن السجائر الرخيصة التي كانت تسبب له السعال المتواصل وتلوث اصابعه بالصفرة حتى العقد الوسطى .. وكان دائم التململ فى مقعده ، وكأن أعصابه لا تريد ان تهدأ .. وبعد ان يرتخي جسده في النهاية يظل جامدا في مكانه انتظارا لتناول طعام العشاء ، ثم يدلف الي الفراش على الاثر ...
وفي النهاية قالت له ماري أنه لا معنى لتمضية كل وقتها معه فى المزرعة جالسة فى ظل شجرة لكى تراقبه وحسب ، خصوصا وهو مستغرق فى عمله لايعبأ بها ولا يأخذ بمشورتها .. فقال لها :
ــ لكننى ياماري احب وجودك معى ...
ــ حسن .. انني شبعت من هذا ..
وبعد ذلك عادت الى حالتها السابقة ، وكفت عن التفكير في المزرعة .. كانت المزرعة هي المكان الذى يعود منه ديك لكى يأكل وينام ...

الآن استسلمت ماري وألقت سلاحها .. غدت تجلس كل يوم على الاريكة فى حالة خدر تام مغمضة العينين شاعرة بالحرارة تنفذ الى تجاهها .. كان ينتابها العطش ، فكان استحضار كوب ماء أو تكليف الخادم باحضاره اليها يمثل جهدا لاقبل لها به .. وكانت تستسلم للنعاس ، ولكن نهوضها من مجلسها وصعودها الى الفراش كان عملا منهكا .. هكذا كانت تنام حيث هى .. كانت تشعر اذا مشت أن ساقيها أثقل من احتمال الحركة .. كان مجرد الكلام يمثل عبئا لا طاقة لها به .. وكانت تمضي أسابيع بطولها لا تكلم أحدا سوى ديك والخادم ، وحتى ديك كانت لا تراه الا مدى خمس دقائق فى الصباح ، ونصف ساعة فى الليل ، قبلما تتهالك فى الفراش خائرة القوى ..

ثم حدث فى تلك الفترة ، عندما كان اى مؤثر يمكن ان يفضى بها الى طريق جديد ، وعندما كانت بكل كيانها مهيأة لاى شيء يدفع

بها الى هذه الوجهة او تلك – حدث في تلك الفترة ان جاءها الخادم يبدي لها رغبته في ترك العمل في البيت .. في هذه المرة لم يكن السبب حدوث مشاحنة لكسر طبق او آتساخ آخر .. قال لها ببساطة انه سيذهب الى ذويه ، وكانت في حالة من اللامبالاة بحيث لم تقاوم .. وهكذا انسحب الخادم ، بعد ان جاء بمن يحل محله ، ولكن ماري لم تستطع احتماله ، وصرفته بعد ساعة واحدة ... واصبحت بلا أحد يقوم على خدمتها ..

اذ ذاك لم تحاول آن تعمل اكثر مما هو ضروري .. فبقيت الغرف بلا تنظيف ، وكان طعامهم المعلبات ..

ولم يطرق بابهم خادم جديد .. فقد اكتسبت ماري شهرة سيئة بين العاملين في هذا المجال كربة بيت صعبة المراس ، حتى غدا من العسير ابدال من ينسحبون بغيرهم ..

ولما وجد ديك انه لايستطيع ان يحتمل القذارة ورداءة الطعام اكثر من هذا ، قال انه سيجيء بواحد من العاملين في المزرعة لتدريبه للعمل كخادم .. وعندما قدم الرجل نفسه لدى الباب ، عرفت فيه ماري ذلك العامل الذي ضربته على وجهه بالكرباج منذ سنتين ، اذ كان اثر الجرح الصغير باديا على بشرته السوداء ..

وقفت ماري في المدخل مترددة ، بينما ظل هو ينتظر في الخارج خافض البصر .. بيد آن فكرة اعادته الى المزرعة وانتظار شخص آخر يرسل اليها مكانه كانت تأجيلا جديداً مرهقا لها .. وهكذا دعته الى الدخول ...

في هذا اليوم ، وبسبب هاجس داخلي لم تحاول تفسيره ، لم تستطع ان تعمل معه كما كانت عادتها في هذه المناسبات .. وانما تركته وحده في المطبخ .. وعندما حضر ديك قالت له :

– الا يوجد شخص آخر يصلح للعمل ؟

فقال ديك بلهجة عدائية دون ان ينظر اليها وهو يملأ فمه بالطعام وكانما لا وقت امامه :

– ولماذا ؟.. هو احسن من امكن ايجاده ..

لم تكن ماري قد اخبرته من قبل بحادث الكرباج ، خوفا من اثارة غضبه .. وقالت :

– لا يبدو انه مناسب للعمل هنا ...

ولما رات بوادر السخط تتزايد في ملامحه سارعت قائلة :

ـ لكنه سينفع ، كما أظن ..
فقال ديك :
ـ هو نظيف وراغب في العمل .. وهو من افضل الاولاد الذين استخدمهم .. ماذا تريدين اكثر من هذا ؟..
قال هذا بحدة وشراسة ، ثم خرج على الاثر دون كلام اخر ..
وهكذا بقي الخادم ...
وبدأت ماري عملية التلقين المعتادة ، بنفس لهجتها البـــاردة القاطعة ، ولكن مع فارق .. فلم تكن قادرة على معاملة هذا الفتى كما كانت تعامل كل من سبقوه ، اذ كان في خلفية ذهنها دائمـا بارقة الخوف التي عرفتها لحظة أن ضربته بالكرباج وظنـــت انه سيهاجمها .. وغدت تشعر بالقلق في وجوده .. ومع ذلك فان مسلكه كان مثل مسلك الاخرين بلا استثناء .. ولم يكن في موقفه مايوحي بأنه يتذكر ذلك الحادث .. وكان هو صامتا ، دؤوبا وصابرا تحت وابل تفسيراتها واوامرها .. وكان يغض من بصره على الدوام ، وكأنما يخشى أن يتطلع اليها .. بيد أنها ماكانت لتنسى الحادث ، حتى لو نسيه هو او تناساه ..
ودرجت ماري على أن تجلس ساكنة تراقبه وهو يعمل .. ان جسمه القوي العريض الالواح قد بهرها .. وكانت قد أعطتـــه « شورتات » وقمصانا بيضاء استعملها الخدم السابقون لــكي يرتديها في البيت ، ولكنها كانت شديدة القصر بالنسبة اليـه ، حتى كان اذا كنس او نفض او انحنى فوق الموقد ، برزت عضلاته ونفرت من قماش كميه الرفيع حتى يوشك أن يتمزق .. بل انه بدا أكثر طولا وعرضا مما هو ، في حيز البيت الضيق ...
وكان الفتى « شغالا » جيدا ، بل من احسن ماعهدت .. وكانت تطوف بعده متفقدة ، تحاول ان تجد شيئا فاته ان يعمله .. ولكن قلما وجدت شيئا من هذا القبيل .. وهكذا غدت بعـد فترة معتادة عليه ، وتلاشت من مخيلتها ذكرى ضربة الكرباج التي خطتها على وجهه .. وكانت تعامله بما تعده حقها الطبيعي في معـاملة الخدم ، وكان صوتها مشوبا بالحدة والاستياء .. بيد أنه لم يكن يرد عليها ، وكان يتقبل لومها المتحيف في اكثره دون حتى أن يرفع عينيه عن الارض .. ولعله قد راض نفسه على ان يلتزم الحيــدة التي يعرف كيف يلتزمها ...
وعلى هذه الوتيرة مضت الامور ، وكأنما استقر الوضع عــلى

هذا النسق ، مما جعلها حرة لا تفعل شيئا .. بيد أنها لم تعد لا مبالية كما كانت من قبل ...

كان موسى الخادم يحضر لها الشاى صباحا ، فاذا كانت الساعة العاشرة قصد الى مكان خلف حظيرة الدجاج تحت شجرة كبيرة وهو يحمل وعاء من الماء الدافىء ، ومن البيت كانت مارى تلمحه أحيانا منحنيا فوق الوعاء يغتسل عاريا من رأسه حتى وسطه ، بيد أنها كانت تحاول الا تكون عن كثب عندما يحين موعد حمامه هذا .. وبعد أن يفرغ كان يعود الى المطبخ حيث يقف ساكنا مستندا الى الحائط الخلفى فى الشمس وهو لا يفكر فى شىء كما يظهر ، وربما يكون نائما هكذا .. ثم لا يستأنف عمله الا فى موعد اعداد الغداء ....

وكانت مارى تتضايق اذ تفكر فى أمره وهو واقف متكاسلا على هذه الصورة ، جامدا وصامتا مدى ساعات ، تحت وطأة الشمس الحارقة التى كان يبدو انها لا تؤثر فيه .. ولم يكن ثمة ما يمكنها ان تفعله ازاء هذا ، وان ذهبت وهى فى حالة من الخدر قريبة من النعاس تجهد ذهنها مفكرة فى عمل يمكنها ان تكلفه به ..

وذات صباح خرجت مارى الى حظيرة الدجاج التى أصبحت تنسى مباشرتها فى هذه الايام ، وبعد ان اتمت تفقدها بنظرة عابرة وملأت سلتها بالبيض ، استرعى نظرها مشهد الخادم تحت الاشجار على بعد ياردات قليلة منها .. كان يدلك رقبته الغليظة بالصابون ، وكانت الرغوة تبدو شديدة النصوع ضد بشرته السوداء .. وكان موليا ظهره الى ناحيتها ... وفيما كانت تنظر ، تلفت اما بمحض الصدفة ، او لأنه استشعر وجودها ، ورآها ..

كانت قد نسيت ان هذا موعد اغتساله ..

لقد تضايقت مارى عندما توقف واستقام ، منتظرا ان تذهب ، وشف تصلب جسده عن استيائه لوجودها فى هذا الموضع .. بل أسخطها أن قدرت انه يعتقد أن وجودها كان عن قصد .. وهذا كثير عليها .. ولاشك أنها قحة منه ان يتصور شيئا كهذا لايمكن أن يدور قط بخلدها ... لكن هيأة جسده الساكن وهو يراقبها من خلال الأشجار الفاصلة بينهما ، والملامح البادية فى وجهه ، أفعمت نفسها غضبا .. واحست اذ ذاك بنفس الحافز الذى جعلها مرة تهوى بالكرباج على وجهه ...

وبعزم انثنت مبتعدة ، وتشاغلت بنثر لخفقات من الحبوب للدجاج ، ثم خرجت من الحظيرة متباطئة دون ان تنظر الى ناحيته ثانية ، وان احست من زاوية عينها انه ظل واقفا مكانه جامدا ..

وعادت الى البيت وهى تشعر بأنها قد انتزعت لاول مرة منذ اشهر كثيرة من حالة الخدر واللامبالاة التى استحوذت عليها فى الفترة الاخيرة ، وغدت تشعر بوطأة الشمس على رقبتها ، وحدة احجار الارض تحت نعلها ..

ثم سمعت غمغمة غاضبة غريبة ، وادركت أنها كانت تكلم نفسها بصوت مسموع ، وهى سائرة .. فأطبقت يدها على فمها ، وهزت رأسها لكى تفيق .. ولكن ما ان عاد موسى الى المطبخ ، وسمعت خطواته ، حتى القت نفسها جالسة فى الغرفة الامامية منسلمة بانفعال هستيرى . وعندما تذكرت تلك النظرة الشزراء فى عينيه وهو واقف مكانه بنظر ابتعادها عن المكان ، شعرت كأنما لمست أفعى بيدها .. ولم تلبث ان تملكها رد فعل عصبى عنيف جعلها تذهب الى المطبخ حيث الفته واقفا بملابس نظيفة ، وهو يضع جانبا ملابسه المغسولة .. ان تذكرها لذلك العنق الغليظ الاسود والرغوة الناصعة البياض تزبد فوقه ، والظهر القوى منحن فوق دلو الماء ــ كان هذا كله بمثابة شوكة نخستها .. ثم بدا لها ان ماخامرها من غضب وهستيريا كان بسبب لا شيء يمكن تفسيره .. وشعرت بأنها لابد أن تفعل شيئا .. وعندما وقع نظرها عفوا على صندوق تحت المائدة كانت تحفظ فيه ادوات التنظيف ، قالت للفتى :

ــ اكنس الارض هنا ! ..

والواقع أنها روعت عندما سمعت صوتها ، فلم تعرف أنها ستتكلم ، مما جعلها تشعر انها فقدت توازنها ، وانها لم تعد تسيطر على أفعالها ..

رد عليها الخادم بلهجة دانية ، متطلعا اليها بعينين متقدتين :

ــ انني كنستها هذا الصباح ...

فقالت رافعة الصوت :

ــ قلت اكنسها ! .. قم بهذا فورا !

مضت لحظة جعل فيها كل منهما يحدق فى الاخر ، مبديا كراهية متبادلة .. ومالبث هو أن غض بصره ، وانثنت هى خارجة وصفقت الباب خلفها ..

وعلى الاثر سمعت صوت احتكاك الفرشاة المبتلة بالارض .. تتهاوى فوق الاريكة ، فى ضعف بين ، كأنما كانت مريضة ..

كانت تعهد فى نفسها ثورات الغضب الاعمى تلك ، بيد أنها لم تعرف قط نوبة غضب جائحة كهذه ... لقد ذهبت ترتعد ، واحست بالدم ينبض مشتدا فى اذنيها ، وشعرت بجفاف فمها ..

وعندما تمالكت بعد فترة ذهبت الى غرفة النوم التماسا للماء ، فهى لا تريد أن تواجه موسى ..

ومع ذلك ، فلم تلبث ان تحاملت على نفسها وقصدت الى المطبخ ووقفت فى المدخل تسرح النظر فى الارض المتبلة وكأنما جاءت لتفقدها حقا .. فوجدته واقفا خارج الباب جامدا كعادته يحدق الى الاشجار .. فتظاهرت بأنها تفحص ماوراء الدواليب ، ثم قالت له اخيرا :

ــ حان وقت اعداد المائدة ..

فاستدار واخذ يضع المفرش والاكواب والاطباق بحركات وآنية ... كانت كل حركة منه تثيرها وهى جالسة مشدودة الاعصاب مطبقة اليدين .. وعندما خرج سرى عنها قليلا وكأنما انزاح عبء كان يثقل عليها ..

وبعد أن تم اعداد المائدة قامت لتفقدها ، بيد أن كل شىء كان فى موضعه المناسب .. غير أنها تناولت كوبا وحملته الى الغرفة الخلفية وقالت بلهجة الأمر :

ــ انظر الى هذا الكوب ياموسى ! ..

فتقدم ونظر الى الكوب متأدبا .. كان يتظاهر بالنظر ، اذ أنه اخذ الكوب منها لغسله فعلا .. ولم يكن به اكثر من اثر خفيف لتجفيفه بالمنشفة .. ولكنه ملأ الحوض بالماء ونثر فيه مسحوق الصابون كما علمته وغسله مرة اخرى بينما كانت تراقبه .. وبعد ان جففه أخذته منه وعادت الى الغرفة الاخرى ..

وتصورته مرة أخرى واقفا فى صمت لدى الباب فى الشمس ، ينظر الى لاشىء ، فكان يمكن ان تصرخ او تقذف بكوب عبر الغرفة لكى يتحطم على الحائط .. لكن لم يكن ثمة اى شىء يمكن ان تعطيه اليه لكى يفعله ..

ثم بدأت عملية هادئة لتفقد البيت كله .. وجدت كل شىء نظيفا وفى موضعه .. كان السرير الضخم الذى كانت تكرهه دائما

مرتبا والاغطية منسقة كما تبدو السرر فى « الكتالوجات » العصرية ... ان مشهد السرير أثارها اذ ذكرها بالملامسة البغيضة فى الليالى بينها وبين جسد ديك المنهك ، وهو مالم تستطع آبدا أن تعتاده ..

ثم تحولت عن السرير وهى تشد على يديها ونظرت الى وجهها فجأة فى المرآة .. بدا الوجه كابيا مشعث الشعر ، والشفتان مطبقتين فى غضب ، والعينان ملتهبتين ، والوجه ذاته مورما مبقعا بالحمرة ، حتى لاتكاد ان تعرف نفسها .. راحت تحملق مروعة فى حالة مؤثرة ، ثم لم تلبث آن اجهشت بالبكاء بصورة هستيرية يخالطها الشهيق والارتعاد ، محاولة خنق الصوت خوفا من أن يسمعها ..

لقد راحت تبكى حينا ، وعندما رفعت عينيها لكى تكفكف دموعها حانت منها نظرة الى الساعة .. ان ديك يوشك أن يصل .. فكان الخوف من رؤيته لها على هذه الحال عاملا على تسكين اضطراب اعصابها .. فغسلت وجهها ، ومشطت شعرها ، ووضعت « البودرة » فى الثنيات القاتمة حول عينيها ..

كانت تلك الوجبة مشمولة بالصمت كما كانت كل وجباتهما هذه الأيام . وعندما رأى وجهها المغضن المحمر وعينيها المحتقنتين عرف مبعث الخلل .. كانت المشاحنة مع الخدم هى على الدوام سبب البكاء ... غير انه كان متعبا ومخيب الامل .. لقد مضت فترة طويلة منذ آخر مشاحنة ، وتصور أنها قد تتغلب على ضعفها ..

ثم أنها لم تأكل شيئا ، وجلست مطرقة الرأس .. وكان الخادم يتحرك خلال الطعام كأنه انسان آلى .. بيد أن تفكير ديك فى اقتدار هذا الرجل ، وفى مشهد وجه مارى المنتفخ ، حفزه فجأة الى الكلام عندما خرج الرجل من الغرفة ، فقال لها :

ــ مارى .. لابد ان تبقى هذا الولد .. هو احسن شخص جاء للعمل عندنا ..

لم ترفع مارى عينيها ، حتى وهو يكلمها ، ولكنها ظلت ساكنة تماما ، صماء فيما يظهر .. ولمح ديك يدها النحيلة تهتز .. فقال مرة ثانية بعد صمت ، وصوته يشف عن العداء :

ــ انا لا احتمل اى تغيير جديد للخدم .. كفاية حتى الان .. اننى احذرك ياماري ..

ومرة اخرى لم ترد .. كانت واهنة بعد دموعها وغضبها فى الصباح ، خائفة أن تفتح فمها فيماودها ألبكاء من جديد ..

عندئذ نظر اليها ديك فى دهشة ، اذ اعتاد منها أن ترد بحدة فى هذه المناسبات ، مرددة شكواها من وقوع سرقة أو سوء خلق ، وفى هذا كان على الدوام على استعداد لمواجهة الموقف .. فكان صمتها المستمر باعثا له على الاصرار للحصول على جواب منها ، اذ قال لها بلهجة سيد لتابعه :

ـ مارى .. هل سمعت ماقلت ؟..

فقالت أخيرا ممتعضة ، وبجهد :

ـ نعم ..

وبعد خروج ديك قصدت الى غرفة النوم مباشرة لكى تتحاشى رؤية الخادم وهو ينظف المائدة ، ونامت مدى اربع ساعات كانت فوق الاحتمال ..

الفصل التاسع

وهكذا توالت الايام خلال شهرى اغسطس وسبتمبر حارة قائظة متربة ، كانت مارى اثناءها تتحرك الى اعمالها مثل امرأة فى حلم ، مستغرقة ساعات لانجاز ماكان يستغرقها من قبل دقائق معدودات ... وبدلا من ان تطوف فى حظيرة الدجاج متفقدة كعادتها ، دون ان تبصرها الآن ، غدت تتهالك فى مقعد وتجلس جامدة دون حركة أو تفكير فى أى شىء .. بيد ان عمها بوجود ذلك الرجل وحده معها فى البيت كان عبئا ثقيلا فى خاطرها .. كانت تبدو متمالكة متماسكة فى وجوده ، وكانت تحمله على انعجل اطول وقت ممكن ، دون ان تأخذها هوادة ازاء ذرة غبار أو انحراف طبق او كوب عن موضعهما .. وكلما فكرت فى سخط ديك وتحذيره لها من أنه لن يقبل اى تغيير جديد للخدم ، مما عدته تحديا لم تجد لديها القوة لمواجهته ، ضغطت على اعصابها ، وزادت تحاملا على نفسها .. وكان موسى حيالها غير مكترث وهادئا وكأنها غير موجودة ، فيما عدا أنه كان يطيع أوامرها .. وكان ديك ، الذى كان من قبل سمحا دمث الخلق سهل الارضاء ، قد انحاز الآن الى الشكوى باستمرار من سوء ادارتها لشئون البيت ، اذ كانت تحمل على الفتى بصوتها العصبى الحاد بسبب مقعد زحرح عن موضعه المضبوط بقدر بوصتين ، وتقصيره فى ملاحظة السقف الذى تغلفه العناكب ..

ولقد اصبحت مارى تترك كل شىء يفلت من اشرافها ، فيما عدا مايفرض عليها فرضا .. وغدا افقها محصورا فى البيت .. وعندما بدأ الدجاج ينفق غمغمت كلاما عن حدوث مرض ، ثم فهمت بعد ذلك انها نسيت أن تطعمها مدة اسبوع ، على الرغم من أنها كانت تذهب الى الحظيرة كعادتها ومعها سلة الحبوب .. وكان الدجاج النافق يطهى ويؤكل .. ومضت اسابيع وهم لا يأكلون سوى الدجاج ، الى أن أصبحت الحظيرة الكبيرة خاوية .. ثم لم يبق

ثمة بيض .. ولم تستطع ان تطلب بيضا من المتجر ، لغلاء ثمنه .. واضحى عقلها في شبه خواء .. واصبحت لاتبدأ كلاما الا تتوقف عن اتمامه نسيانا وشرودا .. وكان ديك اذا شجعها برفق على اتمام ماكانت تريد قوله تطلعت اليه ، دون أن تبصره عيانا ، ولم ترد .. وقد أحزنه حالها حتى لم يبادرها بأى أحتجاج بسبب اهمالها للدجاج مأكلا ومشربا ، وهو ماكان مصدر نقود نثرية لنفقات البيت ...

وذات مرة افاقت من خدرها على صوت ضوضاء ، ثم أدركت انها هى نفسها التى كانت تتكلم بصوت مرتفع فى غرفة المعيشة ، يمازجه الغضب .. ففى تخيلاتها نسى الخادم تنظيف غرفة النوم هذا الصباح ، فراحت تحمل عليه بكلمات لاذعة قاطعة .. ان هذا الصوت المتقطع المختبل قد روعها كما روعها مشهد صورتها فى المرآة ، حتى لقد تملكها الخوف ، وردها الى وعيها تصور انهـــا كانت تكلم نفسها كامرأة مجنونة ..

ونهضت على الاثر بخفة ويممت شطر الباب الفاصل بين غرفة المعيشة والمطبخ ونظرت من خلاله لكى ترى أن كان الفتى على مقربة واستطاع ان يتسمع .. فوجدته واقفا فى مكانه المعتاد ، مستندا الى الحائط الخارجى ، ولم تبصر منه سوى منكبه العريض بارزا من خلف الستار الرفيع .. ولم يكن يتحرك .. فقالت لنفسها أنه لم يكن ليستطيع التسمع ، ونفت من خاطرها ذلك الهاجس الذى اعتراها ..

وتجنبت لقاءه طوال ذلك اليوم ، ومضت تتحرك بلا آســتقرار بين الغرف وكأنما نسيت كيف تبقى ساكنة .. وعندما تمددت فى الفراش بعد الظهيرة بكت طويلا فى نسيج عصبى متصل ، حتى كانت فى أشد الاعياء ، حين عاد ديك الى البيت .. بيد انه لم يلحظ شيئا هذه المرة ، اذ كان هو نفسه مكدودا منهكا لا يريد سوى النوم ...

وفى اليوم التالى ، بينما كانت تخرج من دولاب المطبخ كميــــة المئونة اللازمة لليوم كالمعتاد ، فاجأها موسى الذى كان واقفا الى جانبها بالصحفة ، قائلا انه يريد الانسحاب من الخـدمة فى نهاية الشهر ...

في الماضي كانت ماري تتلقى مثل هذا الاخطار بارتياح لخلاصها ولو الى حين من المشاحنات مع الخدم .. وفي هذه المرة فتحت فمها لكي تعترض ، بيد انها لزمت الصمت ، وتدلت يدها من باب الدولاب ، والفت نفسها تفكر في غضب ديك .. فهي لاتستطيع مواجهته الآن ، ولم تعد حالتها تسمح بحدوث مشادات جديدة معه .. ولم يكن الذنب ذنبها هذه المرة .. الم تفعل كل شيء لاستبقاء هذا الولد ، الذي تكرهه ، والذي كان يرعبها ؟.. وشد ما ارتاعت عندما الفت نفسها ترتعد منتحبة مرة ثانية ، وامام الخادم ! .. هكذا وقفت بجانب الطاولة عاجزة خائرة ، مولية ظهرها اليه ، تنتحب ...

ومضت برهة لم يتحرك احدهما خلالها .. ثم مالبث الفتى ان استدار لكي يرى وجهها ، متطلعا اليها باستغراب ، مقطبا حاجبيه في تأمل وعجب .. واخيراً قالت في ذعر شديد :

ــ يجب الا تذهب !..

واستمرت في البكاء وهي تردد عبارتها السالفة :

ــ يجب الا تذهب !.. يجب الا تذهب !.. يجب ان تبقى !..

وفي خلال ذلك كانت تشعر بالخزي والعار لانه كان يشهد بكاءها ...

وبعد برهة رأته يتجه الى الرف حيث مرشح المياه لكي يملأ كوبا .. وعندما قدمه اليها لم ترفع يدها لأخذه ، شاعرة بأن عمله هذا هو اجتراء وقحة ينبغي أن تتجاهلهما .. ولكن على الرغم من حالة الاعتزاز بالكرامة التي كانت تجاهد للالتزام بها ، فقد عادت الى الانتحاب من جديد ، وقالت بلهجة الاستعطاف :

ــ يجب الا تذهب !..

ورفع الكوب الى شفتيها حتى كان عليها أن ترفع يدها للامساك به ، وشربت جرعة والدموع تنحدر على وجهها .. ومن فوق حافة الكوب نظرت اليه مستعطفة ، وفي خوفها المتجدد منه لمست في عينيه تسامحا حيال ضعفها ...

وقال لها ببساطة وكأنما يخاطب احدى نسائه :

ــ اشربي ...

فشربت ...

وقد اخذ الكوب منها ووضعه على الطاولة .. وعندما أبصرها واقفة مكانها مشدوهة ، لا تدري ماذا تفعل ، قال لها :
ـ « السيدة » تتمدد فى الفراش ..
لم تتحرك .. فمد يده مكرهاً ، نافراً من لمسها ، وهى السيدة البيضاء ، ودفعها من كتفها .. وشعرت بنفسها تدفع برفق فى الغرفة شطر غرفة النوم .. كان هذا مثل كابوس يغدو فيه المرء مشلول الحركة امام الفزع المسيطر .. واحست أن ملمس هذه اليد السوداء يملأ نفسها نفورا ، وهى التى لم تلمس طوال حياتها بدن زنجي .. وعندما اقتربا من الفراش ومازالت تشعر بالملمس الرفيق على كتفها ، احست برأسها يدور وعظامها تتفسخ .
وقال لها مرة اخرى وصوته رقيق وشبه أبوى هذه المرة :
ـ « السيدة » تتمدد فى الفراش ..
وعندما تهاوت جالسة على حافة السرير ، امسك كتفها برفق ودفعها الى التمدد .. ثم تناول معطفها المعلق على الباب ووضعه فوق قدميها .. وخرج .. فانحسر عنها الفزع ، وتمددت مكانها مخذورة صامتة ، عاجزة عن تدبر مغزى هذا الحدث ودلالته ...

ونامت بعد برهة .. وعندما استيقظت كان الوقت متأخرا بعد الظهيرة .. ولبثت فترة لا تستطيع ان تتذكر ماحدث ، ولكن بعد ان تذكرت شملها الخوف مرة أخرى ـ خوف مروع حالك ...
راحت تفكر فى نفسها وهى تبكى عاجزة عن تمالك اعصابها ، وهى تشرب بأمر من هذا الرجل ، وكيف جعل يدفعها عبر الغرفتين الى الفراش ، وكيف حملها على أن تتمدد ثم غطى ساقيها بالمعطف ..
لم تمالك ان انكمشت فى الوسادة نفورا وهى تئن عاليا .. ومن خلال ملابسها من نداء كانت تسمع صوته ثابتا ، عطوفا ، وكأنه أب يأمرها ...

وعندما نهضت كانت الظلمة سائدة ، فأوقدت المصباح الزيتى ، ونثرت البودرة على وجهها ، وطال جلوسها أمام المرآة ، شاعرة بعدم القدرة على الحركة .. أحست أنها لاتقوى على الخروج من الغرفة حتى يعود ديك ويشد من ازرها فى حضور الخادم .. فلما جاء ، نظر اليها بانزعاج وقال لها أنه لم يوقظها فى فترة الغداء ، مؤملا الا تكون مريضة .. فردت قائلة :

ـ آه ، لا ، فقط متعبة .. انني اشعر ..
وتلاشى صوتها ، وشاعت في وجهها نظرة شاردة ..
كانا جالسين في دائرة الضوء الحسير المنبعث من المصباح المعلق ، والخادم يتنقل بهدوء حول المائدة .. وظلت مارى فترة طويلة منكسة العينين ، وان كان شيء من اليقظة قد عاد الى حواسها لدى مجيئه .. وعندما حملت نفسها على التطلع والقاء نظرة متعجلة على وجهه ، سرت اليها الطمانينة ، اذ لم تأنس شيئا جديدا في مسلكه .. كان ، كدابه دائما ، مثل آلة تتحرك بلا روح ..
وفي صباح اليوم التالى قسرت نفسها على الذهاب الى المطبخ والتكلم بصورة طبيعية ، وجعلت تنتظر في تخوف شديد ان يقول مرة ثانية انه يريد الانسحاب من العمل .. بيد انه لم يفعل ...

ومضى اسبوع سارت خلاله الامور على وتيرتها حتى ادركت انه لن يذهب وانه استجاب لدموعها واستعطافها .. انها لم تكن تحتمل التفكير بأنها نالت غرضها بهذه الاساليب ، ولكونها لم ترد ان تتذكر هذا ، فقد استردت جأشها رويدا ..

وبعد ان سرى عنها هكذا ، وتخلصت من عذاب التفكير في غضب ديك ، ومع انحسار ذكرى انهيارها المخزى من خيالها ، بدأت من جديد في استخدام تلك اللهجة اللاذعة لابداء ملاحظاتها التهكمية على شغل الخادم .. حتى كان ذات يوم وهما في المطبخ ، اذ استدار اليها مواجهة وقال لها بصوت منفعل فيه عتاب :
ـ أن « السيدة » طلبت منى أن أبقى .. سأبقى لمساعدة «السيدة» ... واذا غضبت « السيدة » فسوف اذهب ...

ان نبرات الحسم في صوته أوقفتها عن الكلام .. وشعرت بانها مغلوبة على امرها ، خاصة وقد تذكرت مكرهة سبب وجوده هنا ... ثم أن نبرات الانفعال في صوته المحتدم شفت عن تفكيره بانها غير منصفة ... غير منصفة !.. انها لم تر الموقف ، على هذه الصورة ..

كان واقفا بجانب الموقد ، انتظارا لانضاج الطعام ... ولم تعرف هي ماذا تقول ... وما لبث أن تقدم الى الطاولة ، وفي انتظار

ردها أخذ قطعة قماش لكي يمسك بها مقبض الفرن الساخن .. ثم قال دون ان ينظر اليها :

ــ هل أقوم بعملي جيداً ، نعم ؟..

فردت قائلة على كره منها :

ــ نعم ...

ــ اذن لماذا تغضب « السيدة » دائما ؟..

شد ماضايقها ان رأته يتكلم بيسر وبغير كلفة وكأنه يلاطف طفلا ... وشعرت أنه ينبغى لها أن تخرج على الفور ، بيد انهـا لم تتحرك ، وبدا كأنها مسمرة مكانها عجزاً وهى تراقب يديه الضخمتين تقلبان الطعام .. ذلك ولم تقل شيئا .. وشعرت بالغضب المألوف يثور فى دخيلتها ، ولكنها فى نفس الوقت كانت مبهورة ، ولم تدر ماذا تفعل أزاء هذه العلاقة الذاتية .. وهكذا ، عندما رأته لاينظر اليها وانما مضى يتداول عمله بهدوء ، سارت خارجـة دون ان ترد ...

هذا ، وبهطول الامطار فى الشطر الاخير من شهر اكتوبر بعـد ستة اسابيع من الحرارة المدمرة ، صار ديك ــ كعادته دائما فى هذا الوقت من السنة ــ يتخلف عن موعد الغداء بسبب ضـغط العمل فى المزرعة .. كان يخرج فى السادسة صباحا ويعود فى السادسة ليلا ، وهكذا لم تكن تعد سوى وجبة واحدة : اما الافطار والغداء فكانا يرسلان اليه فى الحقول .. وجريا على ما كـانت مارى تفعله من قبل ، لقد أخبرت موسى أنها لن تتناول طعام الغداء وانه يمكن ان يأتيها بالشاى ، اذ قدرت انه لا لزوم لاقلاقهـــا بالاكل ...

وفى اليوم الاول لغياب ديك عن البيت ، وبدلاً من صـــحفة الشاى ، جاءها موسى ببيض ومربى و « توست » ، ووضـــعها بعناية فوق الخوان الصغير بجانبها ..

قالت له بحدة :

ــ قلت لك اننى اريد الشاى فقط !..

فرد بهدوء قائلا :

ــ ان « السيدة » لم تتناول الافطار ، ولابد ان تأكل ..

وكان بالصحفة ايضا فنجان مكسور اليد به مجموعة من زهور الغابة تراوحت الوانها بين الاصفر والوردى والاحمر ، ضمت بعضها

الى بعض بصورة بدائية ، ولكن كان لها لون صارخ فوق المفرش العتيق ...

ان ماضايقها في جلستها تلك وهي خافضة البصر بعد أن اعتدل موسى اثر وضع الصحفة ، هو هذا الدليل على رغبته في ارضائها بهذه الزهور .. وكان ينتظر كلمة تأييد وسرور من جانبها .. فلم تستطع أن تقولها .. غير أن بادرة التأنيب التى انبعثت الى شفتيها بقيت مكانها ولم تفه بها ، وجذبت الصحفة اليها وبدات تأكل ، دون كلام ..

لقد قامت الان علاقة جديدة بينهما .. ذلك لانها شعرت بأنها مغلوبة على أمرها وتحت سلطانه .. ومع ذلك لم يكن ثمة سبب يلزمها بأن تكون كذلك .. وفيما كانت لا تكف لحظة واحدة عن الاحساس بوجوده في دائرة البيت ، او الوقوف صامتا خارجه مستندا الى الحائط في الشمس ـ فأن احساسها كان هو الشعور بخوف شديد وغير منطقى ، وبقلق عميق ، بل وحتى بانجذاب قاتم ، وان كانت لا تعرف هذا ، وتفضل الموت على ان تعترف به ... كان الامر كما لو أن بكاءها امامه كان من قبيل الاستسلام والتخلى عن سلطتها ، وقد ابى هو ان يرد اليها ماتخلت عنه .. وكم من مرة سارعت عبارات التأنيب والزجر الى شفتيها ، وكانت تراه ينظر اليها عمداً وغير متقبل لها ، ولكن متحديا اياها .. ومرة واحدة فقط عندما نسى أن يؤدى شيئا وكان مخطئا فعلا ، عاد الى حالته الاولى خاضعا ممتثلا .. اذ ذاك تقبل التأنيب ، لأنه كان على خطأ ...

والآن مالبثت ان أخذت تتجنبه .. وفيما كانت من قبل تلزم نفسها بمتابعة عمله وتفقد كل شيء يقوم به ، فقد اصبحت الآن لا تذهب الى المطبخ الا لماما ، تاركه الاهتمام بشئون البيت له ... وحتى مفاتيح دولاب المئونة غدت تتركها على الـرف حيث يجدها لأخذ البقول التى يحتاج اليها ...

وحدث مرتين ان وجه اليها أسئلة ، بتلك اللهجة الجديدة المتوددة ، البعيدة عن الكلفة ..

كانت المرة الاولى عن الحرب .. قال لها :

ـ هل تظن السيدة ان الحرب سوف تنتهى قريبا ؟..

كان ذلك مفاجأة أزعجتها .. بالنسبة اليها وهى تعيش خارج نطاق الاتصال بكل شيء ، بل وهى لا تقرأ حتى الجريدة الاسبوعية - فقد كانت الحرب سماعية كشائعة ، كانت شيئا يدور فى عـالم آخر ... بيد أنها كانت تراه وهو منكب على الجريدة القديمـة المفروشة فوق مائدة الطعام فى المطبخ .. وقد ردت بجفاء قائلة انها لا تعرف ...

وفى المرة الثانية قال لها بعد أيام وكأنه كـان يفكر فى تلك الفترة :

- هل يرضى يسوع أن يقتل الناس بعضهم بعضا ؟..

فى هذه المرة تملكها الغضب للسؤال ، وقد ردت ببرود قائلة ان يسوع مع الناس الاخيار .. بيد أنها ظلت طوال اليوم وهى تتميز استياء .. وفى الليل سألت ديك :

- من اين جاء خادمنا هذا ؟..

فرد قائلا :

- هو من فتيان الارساليات .. وهو احسن من وجدت ..

كان ديك مثل أغلب المستوطنين فى افريقيا لا يحبون فتيـان الارساليات ، لانهم « تعلموا اكثر من اللازم » ، وما كان ينبغى فى عرفه ان يتعلموا القراءة والكتابة ، وانما يعلمون قيمة العمل الذى يجدى على المستوطنين !..

ثم قال لها فى ارتياب :

- لم السؤال ؟.. ارجو الا تكون هناك متاعب جديدة ؟..

- كلا ...

- هل ابدى شيئا من قلة الاحترام ؟..

- كلا ...

أن ماوقفت عليه مارى قد فسر لها الكثير ، خصوصا مخاطبته لها « بالسيدة » مما كان يضايقها وودت أن تطلب منه الكف عـن هذا .. ولكن على الرغم من انه لم يكن بحال قليل الاحترام لها ، فقد اجبرها الآن على أن تعامله كآدمى .. وغدا من المسـتحيل ان تنزعه من مجال تفكيرها كمخلوق أدنى من ذلك ، كما كانت تفعـل مع الآخرين من سابقيه .. لقد فرض عليها أن تـكون على اتصال

به ، ولم تتوقف لحظة عن الاحساس بوجوده عن كثب .. وكانت مدركة ان في هذا شيئا محفوفا بالخطر ، ولكن ماهو كنه هذا الخطر فذلك مالم تستطع له تحديداً ولا وصفا ..

والآن فقد ذهبت تحلم من خلال نومها المتقطع ليلا احلاما مروعة بشعة .. وبات نومها الذى كان من قبل اشبه بستار اسود يسدل عليها ، أقرب الى الحس الواقعى واليقظة الحقيقية .. مرتين حلمت بالزنجى مباشرة ، وفى كل مناسبة كانت تستيقظ فى فزع وهو يلمسها .. وفى كل مرة فى الحلم كان يطل عليها قويا وآمرا ، ولكن رقيقا ، محركا لها فى وضع لابد لها فيه من ملامسته .. وفى احلام أخرى كانت لاتراه فيها مباشرة ، غير أنها كانت أحلاما مشوشة ، مرعبة ، فظيعة ــ كانت تستيقظ منها والعرق يغمرها رعبا ، محاولة ابعادها عن خاطرها .. حتى لقد صارت تخاف ان تأوى الى الفراش .. وكانت تتمدد فى الظلام مشدودة الاعصاب الى جانب جسد ديك المستغرق فى النوم ، مجبرة نفسها على البقاء مستيقظة ..

وكثيرا ماكانت أثناء النهار تراقبه خفية ، لا كسيدة تراقب خادمها وهو يعمل ، ولكن بفضول مروع وهى تتذكر تلك الاحلام .. وكان هو كل يوم يرعى شئونها ، فيشرف على ماتأكل ، ويجيئها بالوجبات دون ان تأمر بها ، ويقدم لها هدايا صغيرة من البيض من دجاج مساكن العمال ، او مجموعة ازهار من الغابة ..

وذات مرة حين طال الوقت بعد غروب الشمس ولم يعد ديك ، قالت له مارى :

ــ أبق العشاء ساخنا .. سأذهب لارى ماذا حدث « للريس » ..

وعندما دخلت الى غرفة النوم لارتداء معطفها طرق موسى الباب وقال انه سيذهب للبحث عنه ، فان « السيدة » يجب الا تخرج الى الغابة المظلمة وحدها ..

فقالت مغلوبة على أمرها وهى تخلع المعطف :

ــ لا بأس ..

لكن ديك لم يلم به شيء ... فقد تأخر بسبب ثور كسرت ساقه ..

ومرة اخرى عندما تأخر ديك طويلا عن موعد عودته ، وانتابها

القلق ، لم تبذل مارى جهدا للبحث عما حدث ، خوفا من ان يبادر الخادم ببساطة وطواعية لتحمل المسئولية من اجل راحتها .. فقد طرحت على نفسها هذا السؤال : هل تسمح لموسى بأن يقوى تلك الصلة الانسانية الجديدة بينهما ، بحيث لايمكنها ان تقاوم ولا يكون ثمة رد فعل من ناحيتها ، ومن ثم قررت ان تتحاشى مثل هذه المواقف ...

وفى شهر فبراير مرض ديك بالملاريا للمرة الثانية .. وكما حدث من قبل ، كانت النوبة مفاجئة وقصيرة ، ومشتدة فى الفترة التى استغرقتها .. وكالعادة ارسلت مارى رسالة الى مسز سلاتر مع رسول خاص ترجوها وزوجها استدعاء الطبيب .. وكان نفس الطبيب الذى جاء من قبل .. وقد أدار نظره فى البيت الصغير ممتعضا وسأل مارى لماذا لم تهتم بتوصياته السابقة .. ولما لم تجب قال لها :

ــ لماذا لم تعملوا على ازالة الاشجار حول البيت حيث يمكن توالد البعوض ؟..

ــ ان زوجى لم يستطع الاستغناء عن عمال الزراعة .

ــ لكن يمكنه الاستغناء عن الوقت الضائع فى المرض ؟..

لم تكن هذه الغمزة من الطبيب اهتماما حقيقيا ، فقد كان فى قرارة نفسه غير مكترث ، فقد علمته السنوات الطويلة فى تلك الاقاليم الزراعية أنه لافائدة من النصح والتوجيه ، خصوصا وهو لا ينتظر أجرا من اناس يدل كل ماحولهم على رقة الحال .. ولكنه بحكم المهنة فحص ديك المحموم المرتعد ووصف العلاج .. وقال ان ديك منهك الى أقصى حد ، وأنه حطام رجل ، وعرضة للاصابة بأى مرض آخر .. وكان حديثه الى مارى شديد اللهجة ، بقصد تخويفها حتى تنشط للعمل .. ولكن لسان حالها كان يقول : وما الفائدة ؟..

وفى النهاية انصرف الطبيب مع تشارلى سلاتر الذى كانت أفكاره تدور فى اتجاه آخر ... فقد بدا له أنه عندما يتملك المزرعة فسوف يجرى فيها تعديلات جذرية ..

وسهرت مارى قرب ديك فى الليلتين الاوليين من مرضه جالسة على كرسى صلب لكى تظل مستيقظة وهى تشد الاغطية من حول

المريض .. غير أن حالة ديك لم تكن شديدة السوء مثلما كانت في المرة الاولى .. وهو لم يكن خائفا هذه المرة ، لعلمه ان النوبة ستستفرق دورتها المعروفة ..

ولم تبذل ماري جهدا للاشراف على العمل في المزرعة ، ولكن رغبة منها في تهدئة ديك ، قامت بدورة في السيارة خلال المزرعة لم تكن تفقدية بقدر ماكانت مظهرية ، وقد ألفت العمال متسكعين ، بيد أنها لم تكن مباليـــة ، فقد غدت المزرعة في نظرها شـــيئا لا يعنيها ...

وفي النهار بعد ان كانت تفرغ من اعداد المشروبات البـاردة لديك وهي كل ماكان يتناوله ـ كانت تجلس متكاسلة قرب الفراش مستغرقة في خدرها المعهود دون ان تفكر في شيء ... وكان موسى يأتيها بصحفة الطعام في آلمواعيد المعتادة ، فكانت تأكل بصورة آلية دون ان تتزود الا بالقليل .. وفي اليوم الثالث سألها موسى وهو يمزج باللبن بيضة جاء بها من مقر اقامته :

ـ هل نامت « السيدة » في الليلة الماضية ؟..

كان سؤاله بذلك الاسلوب السهل المباشر الذي كان يجعلها مغلوبة على أمرها لا تدري كيف تجيب ...

وقد ردت وهي تنظر آلى اللبن الفائر متحاشية عينيه :

ـ لابد ان اسهر بجانب « آلريس » ..

ـ وهل نامت السيدة في الليلة الاخرى ؟..

فردت بنعم ، واسرعت آلى غرفة النوم بالشراب ..

كان ديك متمددا في سكون ، تغشاه الحمى ، ويرهقه النوم ، ويغمره العرق .. وكانت حرارته تتزايد طوال النهار ، ثم تهبط عند منتصف الليل ، فيشكو من آلبرد ويطلب مزيدا من الاغطية ، حتى اضطرت ماري آلى تسخين احجار في الفرن ووضعها عند قدميه بعد لفها بقماش ..

وفي تلك الليلة جاء موسى الى غرفة النوم وطرق الاطـــار الخشبي كما كان يفعل دائما .. فواجهته ماري من خلال طيـات ستار الخيش المزوق قائلة :

ـ نعم ؟ ..

ـ « السيدة » ستبقى في هذه الغرفة هذه الليلة ، وسأبقى انا مع « آلريس » ..

فقالت ماري وهي تفكر في ليل طويل تقضيه في سهر مع هذا الرجل :

ــ لا ... لا .. عد الى مقر اقامتك ونم هناك .. سابقى انا مع « الريس » ...

غير انه تقدم من خلال الستار حتى تراجعت قليلا اذ راته قد زاد اقترابا منها .. ورات يده ممسكة بكيس خيشي مطوى قدرت انه عدته لفراش ليلى ، وقال لها :

ــ « السيدة » لابد أن تنام .. انها متعبة ..

والواقع انها شعرت بالبشرة فيما حول عينيها مشدودة جهدا واعياء ، ولكنها قالت باصرار وفي عصبية حادة :

ــ لا ياموسي .. لابد ان أبقى انا ..

بيد انه تقدم شطر الحائط حيث وضع الكيس بعناية بين دولابين وقال بلهجة المتأذى ، بل والمعاتب :

ــ « السيدة » لا تظن انني سأباشر « الريس » كما يجب ؟...

انا أيضا امرض احيانا .. سأكثر من الاغطية حول « الريس » .

واقترب من الفراش قليلا ونظر الى وجه ديك المحتقن وقال :

ــ سأعطيه هذا الشراب عندما يستيقظ .. « السيدة » تظن انني لن اعتنى بالريس ؟..

ظلت ماري مترددة ، ثم قالت بعصبية :

ــ لا .. لكن لابد ان ابقى انا ..

وكأن عصبيتها وترددها كان فيهما الرد الكافي ، فقد انحنى الرجل وسوى الاغطية فوق النائم ، قائلا :

ــ اذا اشتدت حالة « الريس » ، فسوف أستدعي « السيدة »

ورأته واقفا قرب النافذة يحجب بجسده الضخم النجوم المتناثرة في رقعة السماء البادية من فراغ النافذة ، منتظرا خروجها ، وقد اضاف قائلا :

ــ ان « السيدة » ستمرض ايضا اذا بقيت بغير نوم ..

هكذا ذهبت ماري الى دولابها حيث اخرجت معطفها الكبير ... وقبل ان تبرح الغرفة قالت لكي تؤكد سلطتها :

ــ عليك أن تناديني اذا استيقظ ..

وذهبت بحركة غريزية الى ملاذها ، الاريكة ، في الغرفة المجاورة حيث كانت تمضي الكثير من ساعات يقظتها ، وجلست مغلوبة على

أمرها ، في ركن منها .. ولم تستطع ان تفكر في وجود موسى ، طوال الليل ، على هذا القرب الشديد منها ، ولا حائل بينهما سوى حائط الطوب الرفيع ...

وبعد فترة دفعت الوسادة الى راس الاريكة ، ثم تمددت وغطت ساقيها بالمعطف ...

كانت الغرفة محتبسة الهواء تلك الليلة ، تغلب عليها العتمة والظلال فيما عدا دائرة من الضوء الحسير المرسل من المصباح الواني الى المائدة فى وسط الغرفة .. وقد أدارت راسها قليلا لتنظر الى الستائر فوق النافذة ، فكانت جد ساكنة .. وعندما ارهفت سمعها بدت لها الاصوات الخافتة السارية من الغابة متعالية فجأة متزايدة مثل دقات قلبها .. وسمعت حركة أغصان ذات حفيف ، وكأن شيئا ثقيلا كان يشق طريقه من خلالها ، وفكرت والخوف يستحوذ عليها فى الشجيرات الكثيفة الرابضة فى كل ماحولها .. انها لم تألف قط هذه الغابة ، ولم تشعر يوما بالطمأنينة في جوفها حيث الحيوانات الصغيرة فى حركة دائبة ، والطيور الغريبة تنق بلا انقطاع ..

هكذا تمددت مارى فوق الاريكة مرهفة مشدودة الحواس ، ترتعش مثل حيوان صغير مطارد يتلفت لمواجهة مطارديه ، شاعرة برضوض فى كل كيانها من أثر الجهد العصبى .. لقد جعلت تنصت الى الليل فى الخارج ، والى قلبها الخفاق ، والى أصوات تصدر من الغرفة المجاورة .. فلم تلبث أن سمعت حفيف اقدام تتحرك فوق الحصير الرفيع ، وصليل أكواب تتحرك ، وغمغمة خافتة من الرجل المريض .. وبعدها سمعت حركة الاقدام عن كثب ، ثم صوت جذب كيس الخيش بين الدواليب لكى يتمدد موسى فوقه .. هكذا هو ماثل فى الغرفة المجاورة ، لا يفصل بينه وبينها سوى ذلك الحائط الرفيع ، الى حد انه لوزال هذا الحائط لكان ظهره لا يبعد عن وجهها بأكثر من ست بوصات !.. تخيلت الظهر العريض القوى العضلات ، فلم تتمالك أن ارتعدت .. كانت صورته تملك عليها حواسها الى حد خالت معه انها تشم رائحته الحارة النفاذة ... فأدارت راسها الى جانب ، ودفنت وجهها فى الوسادة ...

ولبثت فترة مديدة لاتسمع شيئا ، فيما عدا صوت تنفس خفيف منتظم .. أهو ديك ؟ .. لكن ديك غمغم ثانية ، وعندما نهض موسى لتسوية الاغطية ، توقف صوت التنفس ..

وعاد موسى ثانية الى مضجعه ، حيث استشعرت انزلاق ظهره عند الحائط ، وبدء التنفس المنتظم من جديد ..

وظلت هذه الحركات تتكرر كلما تقلب الرجل المحموم وخف موسى الى جانبه ، حتى غلبها النوم اخيرا ...

كان نوما مضطربا تخالطه الاحلام .. ومرة استيقظت منتفضة لدى حركة ، ورات الهيكل الضخم القاتم يزيح الستائر .. فكتمت انفاسها .. بيد انه لدى سماع حركتها صوب نظـــرة عجلى الى ناحيتها ثم اشاح عنها ، ومر دون صوت من الباب الاخر الى المطبخ ... كان خارجا لقضاء حاجته كما فهمت .. وقد تتبعته بعقلها وهو يجتاز المطبخ ويفتح الباب ويختفي في الظلام وحده .. فأعادت رأسها الى الوسادة ثانية وهي ترتعد ، وبدا لها انه عائد عاجلا .. فتمددت مكانها جامدة حتى تبدو وكأنها نائمة .. بيد انه لم يعـد على الاثر ، وبعد انتظار دقائق خفت ماري الى غرفة النوم حيث كان ديك بلا حراك .. ولما لمست جبينه ألفته رطبا باردا ، فعرفت ان الوقت يناهز منتصف الليل .. ولم يلبث ان سمعت حـــركة الستائر ، وسرى نسيم رطب مس رقبتها .. فأغلقت جانب النافذة القريب من الفراش .. وما ان سمعت صوتا من الخلف حتى سارعت الى الاريكة تستلقي كما كانت .. وبعدها سمعت خطى موسى وهـو يمر عن كثب منها الى مرقده في الجانب الاخر للحائط ، ولمحته ينظر نحوها لكي يرى أنها نائمة .. الان شعرت بأنها في تمام اليقظة ولم تستطع ان تعاود النوم .. وكان ديك ساكنا الان ، ولم يصـدر من الغرفة الاخرى سوى صوت التنفس اليسير المنتظم ..

ثم أخذ النوم بمعاقد أجفانها مرة أخرى .. وفي هذه المـرة تراءت لها أحلام مروعة ..

عادت طفلة من جديد ، تلعب في الحديقة الصغيرة المتربة أمـام بيت أبويها ، مع أترابها من أطفال كانوا في الحلم بلا وجوه .. ثم سمعت أمها تناديها بصوتها الحاد لكي تدخل الى البيت : فتركت الحديقة متمهلة وصعدت الى الشرفة وهي خائفة .. فلم تجد امها وهكذا دلفت الى الغرفة الداخلية .. وعند باب غرفة النوم توقفت

مغمومة .. فقد ابصرت اباها القصير المستكرش الذى تفوح منه رائحة الجعة والذى تكرهه ، محتضنا امها وهما واقفان قرب النافذة ... وكانت امها تتظاهر بالمقاومة متعابثة .. وعندما انحنى ابوها فوق امها جعلها هذا المشهد تفر مبتعدة ..

وفى موضع آخر من الحلم تراءى لها انها استيقظت من النوم فى بيتها هذا فى المزرعة وظلت فترة طويلة تنصت الى صوت التنفس اليسير المنتظم فى الغرفة المجاورة .. ثم ساد السكون حتى تملكها رعب متزايد لم تستطع معه ان تدير رأسها خوفا من اقلاق موسى خلال الحائط الفاصل بينهما .. وفى تقلبات الحلم زادت اقتناعا بأن ديك قد توفى ، وان موسى ينتظر قدومها الى الغرفة المجاورة .. وفى محاولة مستميتة غالبت رعبها ونهضت عن الاريكة وتقدمت الى وسط الغرفة بجهد جهيد ، ووقفت تقيس المسافة الفاصلة بينها وبين غرفة النوم وقد تراءت لها اشكال جلود الحيوانات على الارض مرعبة وكأنها تتحرك نحوها فى ضوء المصباح المهتز .. فلم تتمالك ان فرت الى الباب للافلات منها .. ووقفت محاذرة ومدت يدها لازاحة الستار الثقيل ونظرت من فرجته .. كان كل ما أمكنها رؤيته هو هيكل ديك ممدداً ساكنا تحت الاغطية .. ولم تستطع ان تبصر موسى ، ولكنها كانت تعرف انه قائم ينتظرها فى العتمة .. ولما ازاحت الستار اكثر امكنها ان تراه نائما ، مقرفصا عند الحائط ، منهكا بعد طول سهر .. وفى الحلم توقعت أن ترى شيئا من واجباته لم يتم كما كان يحدث فى اليقظة ، ولكنها بعد النظر الفت كل شىء على مايرام .. ومرة اخرى اتجهت بنظرها الى ديك الذى كان ممدداً فى الفراش دون حراك ، فتقدمت نحوه فى سكون وظهرها الى النافذة .. وعندما انحنت فوقه شعرت بهواء الليل الرطيب يلفح كتفيها ، فقالت لنفسها مغضبة ان الخادم قد فتح النافذة مرة أخرى وتسبب فى موت ديك برداً .. وبدا ديك قبيحاً فى موته ، مصفر الوجه ، فاغر الفم ، محملق العينين ... وفى الحلم مدت يدها لملامسة جثمانه ، فكان بارداً ، ولم يخامرها سوى الارتياح والغبطة .. وفى نفس الوقت شعرت بالتأثم بسبب غبطتها ، وحاولت ان تبعث فى نفسها الحزن الذى ينبغى ان تستشعره .. وفى وقفتها تلك منحنية فوق ديك ، كانت تعرف ان موسى قد استيقظ واخذ يراقبها

... ودون أن تدير رأسها احست انه قام واخذ يتقدم نحوها .. وبدا كأن الغرفة قد اتسعت وانفسحت وانه يقترب منها ببطء من مسافة شاسعة .. هكذا وقفت متصلبة رعبا والعرق البارد ينحدر من جسدها .. ومضى يقترب منها ببط ، ماردا عربيدا ، ولم يكن هو وحده ، ولكن كان معه ابوها الذى اخذ يتوعدها .. وتقدم الاثنان معا ، شخصا واحدا ، وكان بوسعها أن تشم لا رائحة موسى ، بل رائحة ابيها المشبعة بالبيرة ... كانت رائحة عطنة اقرب الى رائحة الحيوانات ، وقد ملأت جو الغرفة ، ومن شدة وطأتها وسعت خياشيمها التماسا للهواء النقى وهى تشعر بدوار .. ولم تتمالك فى ابان شبه الغيبوبة التى ألمت بها ان أسندت ظهرها الى الحائط تشددا ، فكادت تقع من خلال النافذة المفتوحة .. وقد اقترب منها ووضع يده على ذراعها .. وكان الصوت الذى سمعته هو صوت موسى .. وراح يعزيها فى وفاة ديك مواسيا حاديا ، ولكن فى نفس الوقت كان ابوها المتوعد الفظيع هو الذى لامسها فى رغبته ...

ثم صرخت بعد ان احست فجاة أنها كانت نائمة وتحت كابوس ... صرخت وصرخت يائسة ولهى ، محاولة ايقاظ نفسها من هذا الهول .. وناجت نفسها : ان صرخاتى لابد أن توقظ ديك .. وانشأت تتملص وتكافح للخلاص من غواشى النوم .. واقلحت فى اليقظة والجلوس لاهثة الانفاس ..

ألفت موسى واقفا بجانبها محمر العينين ونصف نائم ، يقدم اليها الشاى فى الصحفة .. كانت الغرفة مملوءة بضوء رمادى كثيف ، والمصباح المشتعل يرسل شعاعا يسيرا فوق المائدة .. وعند رؤيتها موسى ومازال فزع الحلم يراودها ، اذا هى تنكمش على نفسها فوق الاريكة ، بأنفاس متلاحقة وغير منتظمة ، وهى تراقبه فى نوبة فزع غامر ... وما لبث أن وضع الصحفة بحركة مهتزة بسبب أعيائه ، وهى تجاهد فى وعيها للتفريق بين الحلم والواقع ...

قال الرجل وهو يراقبها باستغراب :

ــ « الريس » نائم ...

وعندها تلاشت من ذهنها فكرة موت ديك ...

ومع ذلك ظلت تراقبه بحذر ، عاجزة عن الكلام .. ورات فى

وجهه الدهشة لخوفها ، وجعلت تراقب ماارتسم في ملامحه من تلك النظرات التي كثيرا ما راتها اخيرا : مزيج من السخرية ، والتأمل ، والصرامة ، وكأنه يسبر غورها ..

وفجأة قال برقة :

ـ « السيدة » خائفة مني ؟..

كان الصوت هو الذي سمعته في الحلم ، وما ان رن في سمعها الان حتى وهي منها الجلد واخذت ترتعد .. فجاهدت نفسها للسيطرة على صوتها ، وردت بعد دقائق في شبه همس :

ـ لا ، لا ، لا .. لست خائفة !..

وهنا نقمت على نفسها لانكار شيء لايمكن بحال أن تعترف بحدوثه ...

ثم راته يبتسم ، وراقبت عينيه تستقران على يديها اللتين كانتا ترتعدان في حجرها .. وارتفعت عيناه ببطء مرورا بجسدها حتى وجهها ، مستوعبتين الكتفين المنحنيين ، والجسد المنضغط في الوسادة التماسا للسند ..

وقال في يسر وبلا كلفة :

ـ لماذا تخاف « السيدة » مني ؟..

فقالت بلهجة شبه هستيرية وبصوت عالي النبرات وهي تضحك ضحكة عصبية :

ـ لا تكن سخيفا .. انا لست خائفة منك ..

وما أن سمعت الكلمات تخرج من فيها ورات التعبير المرتسم في وجه الرجل حتى كاد يغمى عليها .. فقد راته ينظر اليها نظرة طويلة ، وانية ، لا وزن لها وغير ذات مدلول ، ومالبث أن استدار وخرج من الغرفة ..

وعندما ذهب شعرت كأنها اعتقت من محنة قاسية .. فجلست متهافتة راعشة ، مفكرة في الحلم ، محاولة تبديد غواشي الهلع الذي لابسته فيه ...

وبعد فترة صبت لنفسها بعض الشاي الذي اراقته في الطبق الصغير .. ثم تحاملت على نفسها كما فعلت في الحلم وتقدمت الى الغرفة المجاورة .. الفت ديك نائما في هدوء ، وبدا أحسن حالا .. فتركته دون أن تلمسه وخرجت الى الشرفة حيث وقفت مستندة الى الحاجز الحجري القارس واخذت تستنشق هواء

الصبح الرطيب .. لم تكن الشمس قد أشرقت بعـد .. وكانت السماء صافية الاديم ، تخالطها خيوط وردية من الضوء ، ولكن الظلام مابرح غالبا على الاشجار الساكنة .. ولمحت دخانا يسيرا يتصاعد من اكواخ عمال الزراعة فى محلتهم ، فأدركت ان عليها أن تذهب وتقرع الناقوس ايذانا ببدء عمل اليوم ..

وطوال هذا النهار جلست فى غرفة النوم كالمعتاد تراقب ديك وهو يتماثل للشفاء ساعة بعد ساعة ، وان بقى شديد الوهن ..

ولم تذهب يومها هذا الى المزرعة متفقدة .. وتجنبت لقـاء موسى .. فقد شعرت بأنها تفتقد الثقة بالنفس الى حد بعيـد ، وليست لديها القوة لمواجهته .. وعندما خرج من البيت بعد الغداء فى فترة راحته ، اسرعت الى المطبخ فى شبه خفية واعـدت المشروبات الباردة لديك ، ثم عادت ادراجها وهى تنظر خلفها كمـن هو مطارد ..

وفى تلك الليلة اوصدت كل أبواب البيت ، ودلفت الى الفراش بجانب ديك ، جامدة القرب منه ، ربما لاول مرة منذ زواجهما ..

وعاد ديك الى عمله بعد اسبوع ..

ومن جديد اخذت الايام تتعاقب سراعا يوما بعد يوم ـ الايام الطوال التى قدر لها أن تمضيها وحيدة فى البيت مع موسى ، وديك غائب فى المزرعة .. لقد الفت نفسها تكافح ضد شىء لم تسـتطيع له فهما .. وبتعاقب الوقت غدا ديك عندها اقرب الى الوهم منه الى الواقع ، فى حين غدا التفكير فى موسى مستحوذا عليها .. كان بمثابة كابوس .. فهذا الرجل القوى كان على الدوام فى البيت معها ، وهكذا لم يكن ثمة مهرب من وجوده .. فكان هـذا هـو الاستحواذ المسيطر عليها ، ولم يكد يبقى لديك من وجود لديها .

منذ اللحظة التى كانت تستيقظ فيها صباحا لتجد موسى قائما امامها بالشاى ، مشيحا بعينيه عن كتفيها العاريين ، وحتى اللحظة التى يخرج فيها من البيت ـ لم تكن مارى لتستطيع ان تتحـرر من محاولة الابتعاد عن طريقه .. واذا وجدته فى غرفة ذهبت الى غرفة اخرى .. وكانت تمارس عملها المنزلى فى خوف دائم ، التوتر العصبى .. وكانت لاتنظر اليه ، عالمة ان فى التقاء عينيها بعينيه خطرا داهما ، اذ كانت ذكرى خوفها منه ، وكيفية حديثها اليه فى

تلك الليلة ، ماثلة دائما في خاطرها .. واصبحت الان تصدر اليه اوامرها متعجلة ، في صوت متوتر ، ثم تسارع بمغادرة المطبخ .. وغدت ترتاع من سماع كلامه ، اذ طرأت على صوته نبرات جديدة من رفع الكلفة ، والاجتراء ، والتسلط .. وكثيرا ماهمت ان تطلب من ديك ان يطرده ، بيد انها لم تجسر على هذا قط .. كانت دائما تمسك عن هذه المحاولة ، اشفاقا مما يعقبها من غضب ديك .. غير أنها كانت تشعر كما لو كانت فى نفق مظلم ، مقتربة من شيء نهائى فاصل ـ شيء لم تستطع أن تتصوره ، ولكنه ينتظرها بلا رحمة فيه ولا مهرب منه .. ومن ناحية موسى ، فان مسلكه فى حـركاته وفى لهجة كلامه ، بما ينضح فيه من الاعتداد والقحة والقسر ـ كـان ينبئها بأنه ينتظر هو الاخر .. كانا مثل خصمين يتحفزان فى صمت ... والفرق بينهما انه هو القوى الواثق بنفسه ، وهى المنهارة من الخوف ، بسبب لياليها المفعمة بالاحلام المرعبة ، وذلك الاستحواذ الذى ملك عليها شعاب نفسها ...

الفصل العاشر

على الرغم من تمسك ماري وديك بحياة العزلة التى كانت مثار الاستغراب فى ارجاء المنطقة ، فان تشارلى سلاتر وزوجته لم يفقدا الاهتمام بهذين الزوجين الغريبى الاطوار ، ولاسيما تشارلى الذى كان يريد الاستيلاء على مزرعة ديك لضمها الى أراضيه واتخاذها مراعى لقطعان مواشيه المتكاثرة — وذلك برغم أنه يمتلك مزرعة مساحتها خمسمائة فدان ، اى ضعف مزرعة ديك خمس مرات ، اشباعا لنزعته فى المزيد من الثراء ...

وهكذا عندما تذكر سلاتر ذات يوم أنه لم يلتق بديك منذ نحو عامين ، فقد شد رحاله عصر ذلك اليوم ، واتجه بسيارته الى مزرعة ديك ..

ولدى وصوله شاهد ديك جالسا فوق حجر كبير قرب مخزن الحبوب يراقب العمال وهم يختزنون محصول الذرة بعيدا عن طائلة النمل فوق ألواح من الصاج مدعمة بالطوب .. وعند رؤية القادم تطلع ديك اليه من تحت قبعته العريضة واومأ برأسه مسلما .. فقال له سلاتر وهو يراقب أكياس الحبوب المتقادمة العطنة التى قدر فى نفسه أنها لن تدوم مدى العام :

— جئت لكى أطمئن على أحوالك .. اننى لم ارك منذ شهور طويلة ..

فقال ديك وهو ينهض متثاقلا :

— لا بأس .. هذا يوم آخر يوشك أن ينتهى ..

وعندما لاحظ سلاتر ان ديك أخذته رعدة رغم حرارة الطقس قال له :

— هل بك حمى ؟..

— كلا .. لا تظن هذا .. هو الدم يتناقص بمضى العمر !..

فقال تشارلى وهو ينظر الى يديه الراعشتين وكتفيه المقوسين :

ـ العلة فيك اكثر من تناقص الدم .. هل الحمى تعاودك كثيرا هذه الايام ؟ ..
فأجاب ديك :
ـ انني مرضت بها مرتين في السنة الماضية ..
ـ هل ترعاك الزوجة كما يجب ؟..
فبدت أمارات القلق على وجه ديك وهو يقول :
ـ نعم ...
ـ وكيف حالها ؟ ..
ـ أحوالها كما هي ...
ـ هل كانت مريضة ؟ ..
ـ لا ... لم تكن مريضة .. لكنها ليست على مايرام .. انها تبدو عصبية ، ومرهقة ... انها أقامت في المزرعة أكثر من اللازم ..
ثم تلاحقت الكلمات من فيه وكأنه لم يستطع أن يغالب نفسه :
ـ انا في أشد القلق عليها ...
ـ لكن ماهي مشكلتها ؟..
قال تشارلي هذا بصوت حيادي ، بيد أنه لم يرفع نظراته طوال الوقت عن وجه ديك ...
في خلال ذلك كان العمال قد فرغوا من نقل الحبوب الى داخل المخزن واخذوا يتقاطرون عائدين الى محلتهم في هذه الامسية .. ولكن ديك تحاشى الرد على السؤال ، متشاغلا باغلاق باب المخزن ... ثم قال لصاحبه :
ـ هلا ذهبنا الى البيت ؟..
فأومأ تشارلي ايجابا .. ثم قال وهو ينظر حواليه :
ـ اين سيارتك ؟..
ـ آه .. انا أمشي هذه الايام ..
ـ هل بعتها ؟..
ـ نعم .. كانت تكلفني اكثر من اللازم .. وانا ارسل العربة الى المحطة اذا احتجت الى شيء ..
وركبا سيارة تشارلي الضخمة .. وفي الطريق عاود تشارلي سؤاله عن ماري ، قائلا :

ـ ماهذا الذى كنت تقوله عن زوجتك ؟..
ـ انها ليست على مايرام ..
ـ لكن ما السبب يارجل ؟..
لم يجب ديك فترة .. واخيرا راح يقول :
ـ لا أعرف .. انها مختلفة عما كانت .. احيانا أظن انها تحسنت كثيرا ... من الصعب ان يصف الانسان أحوال النساء .. انها ليست كما كانت .
فقال تشارلى بالحاح :
ـ لكن بأى كيفية ؟..

ـ حسن ... اقول لك على سبيل المثال .. عندما جاءت الى المزرعة لاول مرة كانت وافرة الحيوية والنشاط .. أما الآن فانها لا تبالى ، ولا تهتم بأى شىء .. انها تجلس ببساطة ولا تفعل شيئا ... بل انها لاتكلف نفسها عناء الاهتمام بتربية ألدجاج كما كانت تفعل ، وغيرها من الدواجن .. وانت تعرف أنها كانت تجنى بعض الايراد الاضافى كل شهر .. وهى لا تهتم بما يفعله الخادم فى البيت ... واحيانا كانت تثير جنونى بتذمرها المتواصل .. تذمر وشكوى طوال اليوم .. أنت تعرف كيف تتغير أحوال النساء عندما يبقين فى المزرعة مدة طويلة ..
فقال تشارلى :
ـ مامن امرأة تعرف كيف تتعامل مع الخدم هنا ...
فقال ديك وهو يضحك ضحكة تشف عن التعاسة :
ـ المهم اننى قلق جدا ...
وفجأة قال تشارلى :

ـ اسمع ياتيرنر .. لماذا لاتتخلص من العملية كلها وتفارق هذا المكان ؟ .. انك لا تصنع خيرا لانفسك ولا لزوجتك ..
ـ آه .. أننا نكافح ..
ـ انت مريض يارجل !..
ـ انا بكل خير ..

وتوقفت السيارة خارج البيت .. وكان الضوء ينبعث من الداخل ، لكن مارى لم تظهر .. ولاح ضوء آخر من غرفة النوم ، فقال ديك :

ـ انها تغير ملابسها ..
وشفت لهجته عن السرور وهو يضيف قائلا :
ـ لم يحضر أحد عندنا منذ مدة طويلة ..
ـ لماذا لا تبيع المزرعة لى ؟ .. ساعطيك ثمنا طيبا لها ..
فقال ديك فى ذهول :
ـ والى أين يمكن ان اذهب ؟
ـ أذهب الى المدينة .. ابعد عن الارض .. انت غير صالح لاعمال المزارع .. اوجد لنفسك عملا ثابتا فى اى مـــكان فى البلدة ..
فقال ديك باستياء :
ـ انا اكافح ما امكن ...
ولاح خيال امراة نحيلة فى الضوء لدى الشرفة ، فنزل الرجلان من السيارة ودخلا الى البيت .. وقال سلاتر :
ـ مساء الخير يامسز تيرنر ..
ـ مساء الخير ..
راح تشارلى يتفرس فى وجهها بامعان عندما تقدما الى الغرفة المضاءة ، بسبب لهجتها وهى ترد التحية .. وظلت واقفة أمامهما مترددة وهى اقرب الى امراة عجفاء بشعرها المدلى حول وجهها المهزول والمعقود فوق راسها بشريط ازرق .. وكان عنقها الناحل المصفر بارزا من ثنايا ثوب رخيص بدا انها لبسته توا ، وتدلى من اذنيها قرط طويل ملون كان يرتطم برقبتها مهتزا لدى كل حركة ... وشفت عيناها الزرقاوان اللتان كان الناظر اليهما يتوســم فيهما الحياء والترفع والحساسية عن بريق جــديد غير معهــود فيهما ...
ثم قالت بلهجة طفولية :
ـ عجبا . يامستر سلاتر !.. لم يحصل لنا السرور برؤيتك منذ مدة طويلة ...
وشفعت هذا بضحكة وهزة من كتفيها كانت اقرب الى التدلل الشنيع ...
لم يتمالك ديك ان اشاح بنظره مكـــروبا .. وجعــل تشــارلى يحدق اليها طويلا تحديقا سافرا حتى احمر وجهها وانثنت الى جانب هازة راسها ، وقالت لديك :

ـ ان مستر سلاتر لا يحبنا ، والا لجاء لرؤيتنا اكثر من هذا ..

وجلست في ركن من الاريكة العتيقة التي فقدت شكلها واستحالت الى نتوءات وفجوات غطتها قطعة قماش ازرق حائل اللون ..

وقال تشارلى وعينه على قطعة القماش ..

ـ كيف حال المتجر ؟..

فاجاب ديك بحدة :

ـ صرفنا النظر عنه .. لم يجلب لنا اى ربح .. ونحن نستهلك ماكان فيه من موجودات ..

وادار تشارلى نظره في ارجاء الغرفة مقطبا ... كانت الستائر ممزقة ، وزجاج احدى النوافذ مكسورا ومغطى بالورق .. وكان اثاث الغرفة كلها فى حالة يرثى لها من التلف والترقيع ، حتى لقد شعر سلاتر بمرحه الخشن المعهود يذهب عنه ولزم الصمت مقطبا ...

وقال له ديك فى النهاية :

ـ هل تحب ان تبقى لتناول العشاء ؟..

فقال تشارلى :

ـ لا ... شكراً .

ثم غير رأيه من قبيل الفضول وقال :

ـ نعم ... سابقى ..

ودون وعى كان الرجلان يتكلمان وكانهما فى حضور انسان مريض ، بيد أن مارى تحاملت على نفسها قائمة من المقعد وصاحت من مدخل الغرفة : موسى ! .. ياموسى ! ..

ولما لم يظهر الخادم التفتت اليهما وقالت مجاملة فى استحياء :

ـ معذرة .. لكنكم تعرفون تصرف هؤلاء الاولاد !..

وخرجت .. وبقى الرجلان صامتين .. وكان ديك مشيحا برأسه عن تشارلى ، الذى راح يحدق فيه طويلا كأنما يحاول أن يجبره على التفسير او الاعتراف بما هناك ..

وكان طعام العشاء الذى جاء به موسى مؤلفا من صحفة بها شاى وخبز وزبد زنخ وقطعة من اللحم البارد .. ولم تبد قطعة من الخزف سليمة .. وشعر تشارلى بسكينة ملوثة بالشحم ،

وراح يأكل مزورا دون محاولة لاخفاء ازوراره ، في حين لم يقل ديك شيئا ، وكانت ماري تبدي فجأة ملاحظات غير مترابطة عن حالة الطقس بذلك الخضر المروع وهي تهز قرطيها وكتفيها الناحلين وترمق ديك بنظرات متحببة خادعة ..

وعن كل هذا لم يبد تشارلي أدنى تجاوب ، وانما كان يقول « نعم يامسز تيرنر » أو « لا يامسز تيرنر » ـ متطلعا اليها ببرود ، ونظرات صارمة تشف عن الاحتقار والنفور ..

وعندما جاء الخادم لاخذ الاطباق حدث شيء جعله يضغط على أسنانه ويمتقع غضبا .. فقد كانوا لايزالون جالسين حول بقايا الطعام الغث بينما كان الخادم يدور حول المائدة ليجمع الاطباق متباطئا ولم يلحظ وجوده حتى تشارلي ، واذا ماري تقول :

ـ هل تحب بعض الفاكهة يامستر سلاتر ؟.. موسى : هات البرتقال .. انت تعرف مكانه ..

وهنا رفع تشارلي نظره وهو يحرك فكيه بالطعام الذي يمضغه وقد بان الاهتمام في عينيه .. فان نبرات صوت ماري عندما خاطبت الخادم قد صكت سمعه ، اذ كانت تشف عن رفع الكلفة والعفوية كلهجتها مع ديك ومعه ...

وقد رد عليها الخادم على الفور بلون من الخشونة :

ـ البرتقال انتهى ...

فقالت له ماري بما هو اقرب الى الاستعطاف وهي تتطلع اليه في ركون :

ـ انا عارفة ان البرتقال لم ينته .. هناك برتقالتان باقيتان ..

ـ البرتقال انتهى ..

لقد كرر عبارته السالفة باستياء ولا مبالاة واعتداد بالنفس جعلت تشارلي يحبس أنفاسه برهة عاجزا عن الكلام ... وتطلع الى ديك الذي كان جالسا يحدق في يديه حتى استحال على تشارلي أن يعرف ان كان مستغرقا في التفكير أو انه لاحظ اي شيء على الاطلاق .. ولما حول نظره الى ماري الفى وجهها المصفر شابته حمرة واكتسى مسحة من الخوف لا تخطئها العين .. فقد بدا انها فهمت أن تشارلي لاحظ شيئا ، وراحت ترمقه بعينيها في تأثم وهي تبتسم ...

اخيرا قال تشارلى مومئا برأسه الى ناحية موسى الذى كان واقفا لدى الباب يتسمع جهاراً :

ـ منذ متى يعمل عندكم هذا الولد ؟..

تطلعت مارى الى ديك مغلوبة على أمرها .. فقال بلا اكتراث :

ـ منذ اربع سنوات ، كما اظن ..

ـ ولماذا تبقونه عندكم ؟ ..

فأجابت مارى وهى تهز راسها :

ـ هو ولد طيب ، يقوم بالعمل جيدا ..

فقال تشارلى بخشونة وهو يتحداها بعينيه :

ـ لا يبدو انه هكذا ...

لكنها زاغت بعينيها وبان فيهما القلق .. وفى نفس الوقت بدا فيهما بريق شف عن ارتياح خفى جعل الدم يصعد الى دمـــاغ تشارلى حتى مضى يقول :

ـ لماذا لا تتخلصون منه ؟ .. لماذا تتركينه يكلمك بهذه اللهجة ؟..

لم تجب مارى .. فقد أدارت راسها واخذت تنظر فوق منـكبها الى ناحية الباب حيث كان موسى واقفا .. ولاحت على وجههـا مسحة بلاهة نكراء جعلت تشارلى يصرخ فجأة فى الخادم :

ـ اخرج من هنا !.. استمر فى عملك ..

اختفى الخادم الضخم ، مطيعا فى الحال أمر تشارلى .. ثم ساد السكون .. وانتظر تشارلى ان يتكلم ديك ، ان يقول شيئا يدل على انه لم يستسلم تماما .. ولكن راسه مازال منكسا ، ووجهه يشف عن مقاساة صامتة .. واخيرا اتجه اليه تشارلى بالرجـاء مباشرة ، متجاهلا مارى وكانها غير موجودة ، قائلا :

ـ تخلص من هذا الولد ياتيرنر ..

فكان الرد المتباطىء الخاوى :

ـ ان مارى تفضله ..

ـ تعال معى الى الخارج .. اريد أن اتكلم معك ..

رفع ديك رأسه ونظر الى تشارلى باستياء .. وكان اســتياؤه لانه الفى نفسه يجبر على الاهتمام بشىء كان يريد تجاهله .. بيد انه انتزع نفسه من المقعد وتبع تشارلى الى الخارج .. ونزل الرجلان درجات الشرفة وتقدما مسافة قرب الاشجار ...

وقال تشارلى باقتضاب :

ـ لابد لك من الابتعاد عن هنا ..

فقال ديك بلهجة عرجاء :

ـ وكيف لى بهذا ؟ .. كيف يمكنني ان افعل ماتقول وانا مازلت مدينا ؟ ..

وما لبث أن اضاف وكأن المسألة مسألة مال ولا صلة لها بأى شيء آخر :

ـ آنا أعرف ان غيرى من الناس لا يقلقون لهذا .. واعرف ان كثيرين من اصحاب المزارع يعانون الضيق مثلى ويشترون السيارات ويذهبون فى اجازات .. لكننى لا اقدر على هذا .. لايمكننى ان افعل هذا ياتشارلى .. ليس هذا من طبعي ..

فقال تشارلى :

ـ سأشترى منك المزرعة ويمكنك أن تبقى هنا مشرفا عليها ياتيرنر .. لكن لابد ان تبتعد أولا للقيام بأجازة لمدة ستة شهور على الاقل .. لابد ان تبعد زوجتك من هنا ..

كان ديك ابعد عن قبول عرض تشارلى .. فقد شعر أنه يطلب منه التخلى عن الحياة ذاتها ، ومدلولها عنده المزرعة وملكيته لها ...

ومضى تشارلى يقول بالحاح واصرار :

ـ سآخذ المزرعة بحالتها القائمة ، واعطيك مايكفى للتخلص من ديونك ... وسوف استخدم مشرفا لادارتها الى ان تعود من شاطيء البحر ... لابد ان تبتعد لمدة ستة شهور على الاقل ياتيرنر .. ولا يهم الى اى مكان تذهب .. سوف أتكفل بكل النفقات التى تمكنك من هذا .. لن يمكنك أن تستمر فى حياتك هكذا مهما كانت الظروف ..

لكن ديك لم يسلم بمثل هذه السهولة .. وظل يقاوم مدى اربع ساعات .. آربع ساعات فى نقاش محتدم وهما يسيران ذهابا وجيئة تحت الاشجار ...

وفى النهاية استقل تشارلى سيارته ومضى بها دون أن يعود الى بيت ديك .. اما ديك فقد رجع ماشيا بخطى متثاقلة وهو يكاد يتطاوح بعد أن بدا له ان عماد حياته يوشك ان ينهد .. فهو لن يغدو مالكا للمزرعة بعد الآن ، وسيكون مجرد تابع لمالكها الجديد .

والفى مارى جالسة مكومة على نفسها فى ركن الاريكة ، بعد ان زال عنها ذلك التكلف الذى اصطنعته فى وجود تشارلى .. وهى لم تنظر الى ديك عندما دخل .. وتوالت ايام بأسرها دون ان تكلمه ، وكأنه غير موجود فى نظرها .. وبدا أنها غارقة الى أعماق بعيدة فى حلم لها .. وكانت لا تعود الى عالم الحياة والواقع ولاتعى ماهى فاعلة آلا حين يدخل موسى الى الغرفة لعمل شىء ما .. واذ ذاك لا ترفع نظراتها عنه . اما ما كان يعنيه هذا فهو مالم يعرفه ديك ، ومالا يريد ان يعرفه .. فهو قد تجاوز الان حدود المقـــاومة فى الكفاح ..

أما تشارلى سلاتر فلم يضيع وقتا .. فقد راح يطوف المنطقة بسيارته من مزرعة الى مزرعة محاولا ايجاد شخص يمكن ان يحل محل ديك فى الاشراف على المزرعة مدة شهور قلائل .. وهو لم يقدم تفسيرات لهذا المسعى ، والتزم التحرز بصورة غير عادية .. قال فقط أنه يساعد تيرنر فى مصاحبة زوجته فى رحلته .. واخيرا سمع عن شاب هبط من انجلترا حديثا يريد عملا .. فقصـــد الى البلدة على الفور بسيارته للبحث عنه وعندما وجده لم يترك فى نفسه أثرا خاصا ، اذ كان من الشباب المتحفظ المعتــد بنفسه .. وبعد لقاء قصير عاد به دون أن يخبره الا بالقليـــل .. قال له ان عليه ان يتسلم زمام الاشراف على المزرعة فى خلال اسبوع ، حتى يتمكن ديك من السفر الى الشاطىء ، وانه سيتكفل هو بدفع راتبه وشرح واجباته فى العمل .. غير انه عندما ذهب الى ديك ليخبره بما تم ، وجده على الرغم من تسليمه بضرورة السفر ، معترضـــا على السفر فى الحال ..

ووقف تشارلى وديك والشاب تونى مارستون فى أحد الحقول حيث بدا تشارلى غاضبا محتدما لما وجده من معارضات ديك وعناده وتسويفه فى آخر لحظة مما يهدد باحباط خطط تشارلى ، ووقف الشاب مارستون بينهما محرجا محايدا .. وكان ديك يقول :

ــ تبا لهذا ياتشارلى !.. لماذا تطردنى بهذه الكيفية ؟. انا هنا طوال خمسة عشر عاما !..

ــ استحلفك بالله يارجل !.. أنا لا اطردك .. اريدك ان ترحل قبل ان ــ لابد ان ترحل فى الحال .. عليـــك ان ترى هــذا بنفسك !..

فراح ديك يقول وقد احمر وجهه النحيل الاسمر :

ــ خمسة عشر عاما !.. خمسة عشر عاما !..

وانحنى دون وعى وقبض قبضة من التربة واستبقاها فى يده كمن يتمسك بحقه .. كانت الحركة سخيفة فى نظر تشارلى الذى علته ابتسامة ساخرة يسيرة ، وقال :

ــ لكن ياتيرنر .. انك ستعود الى هنا ..

ــ لن تكون أرضى !..

واحتبس صوته ، واشاح بنظره ومازال قابضا على التراب .. واشاح تونى مارستون بنظره جانبا هو الاخر ، متظاهرا بفحص احوال الحقل ، فهو لايريد ان يقحم نفسه فى هذا الموقف الحزين ..

أما تشارلى الذى لم يكن لديه مثل هذا الاحساس المرهف فقد جعل ينظر متبرما الى وجه ديك المنفعل .. لكنه احترم فى دخيلته هذا التأثر الذى لم يستطع ان يفهمه .. كان يدرك انه وليد الاعتزاز بالملكية ، نعم ، لكن ليس الى حد هذا التعلق الحار بالتربة ، مجرد التربة !.. انه لم يفهم هذا ، بيد ان نبراته رقت وهو يقول :

ــ ستكون الارض فى حكم المملوكة لك .. أننى لن اغير شيئا فى مزرعتك ولن اقلبها رأسا على عقب .. وسيكون لك ان تستمر فى الاشراف عليها عندما تعود ، بكل مايحلو لك ..

فقال ديك بذلك الصوت المحزون المؤثر :

ــ مجرد احسان ! ..

ــ ليس احسانا .. اننى ساشتريها منك كعملية تجارية ... انا فى حاجة الى أرض للمراعى .. ساطلق مواشى فيها الى جانب مواشيك ، ويمكنك أن تستمر فى زرع محاصيلك كما تحب ..

واخيرا ، وبعد طول جدال ، وافق ديك على السفر فى نهاية شهر ، بعد ان يشرح لتونى كيف يحب أن يسير العمل فى «أرضه» ... غير ان تشارلى غالطه سرا وحجز تذاكر السفر بالسكك الحديدية لبعد ثلاثة اسابيع ...

وعاد تونى الى البيت مع ديك ، تخامره دهشة سارة بالعثور على عمل جديد ولما يمض فى البلاد أكثر من شهرين .. وقد خصص له كوخ مبنى بالطين الجاف ومسقوف بالقش فى موضع خلف البيت .. وكان الكوخ فى اول العهد مبنيا بالطوب ، ثم اصبح خاليا لفترة .. وكان به سرير حديدى قدمه تشارلى ، ودولاب

مصنوع من الصناديق ، وستائر من قماش شعبى شائع ، ومرآة فوق حوض يعلو صندوق ملابس .. بيد ان تونى لم يهتم بهذا فى كثير رلا قليل .. فقد كان فى حالة معنوية طيبة ، بل شاعرية ، وكانت هذه الاشياء وغيرها من الطعام الردىء ومراتب السرير المتهالكة غير ذات أهمية فى نظره ..

كان فى العشرين من عمره ، وقد تلقى تعليما طيبا ، وكان أمامه احتمال بأن يصبح موظفا فى مصنع لعمه .. لكن الجلوس الى المكتب لم يكن همه فى الحياة ، وقد أختار جنوب افريقيا وطنا ثانيا له لان احد ابناء عمومته قد كسب عشرة آلاف جنيه فى العام الماضى من التبغ .. فقرر أن يحذو حذوه ، بل يحقق أحسن منه ان أمكن .. وفى غضون ذلك كان عليه ان يتعلم الحياة .. والشىء الوحيد الذى أخذه على هذه المزرعة هو انه لا تبغ نيها .. لكن ستة أشهر فى مزرعة مختلطة هى تجربة لا بأس بها ، ولعل فيها الخير له ...

وقد شعر بالاسف من اجل ديك تيرنر ، الذى عرف انه غير سعيد فى حياته .. غير أن هذه المأساة بدت له رومانتيكية .. فقد رأى فيها ظاهرة التجميع الرأسمالى الزراعى المتنامى فى كل أرجاء العالم ، الذى يقوم على التهام كبار اصحاب المزارع لاصاغرهم .. وكانت له آراء تقدمية فى صدد التفرقة العنصرية ، حتى لقد جاء معه بحقيبة مليئة بالكتب عن هذا الموضوع قام برصها فى جانب من الكوخ .. ولكن بعد اسبوع تناول كتابا منها ووجد ظهره قد اكله النمل الابيض ، وهكذا سارع باعادة الكتب الى الحقيبة ولم يقرأ شيئا منها بعد ذلك استنادا الى ان من يشتغل اثنتى عشرة ساعة كل يوم لا يتهيأ له الاستعداد الذهنى للدرس والمطالعة ..

وكان تونى يتناول وجباته مع الزوجين .. وكان عليه ان يلم بالمعرفة الكافية فى مدى شهر لكى يتاح له الاشراف على المزرعة ستة أشهر حتى يرجع ديك وزوجته من رحلتهما ... فكان يقضى النهار كله مع ديك فى المزرعة ، مستيقظا فى الخامسة صباحا ، وذاهبا الى فراشه فى الثامنة مساء .. وكان الشاب متحدثا لبقا واسع المعرفة ، او بالاحرى كان يمكن ان يستمع اليه ديك ويتجاوب معه قبل عشر سنوات ... اما الان فكان يحدق

امامه بعينين شاردتين .. كان ديك لا يعنيه الان فى حضور تونى سوى تمضية الايام الاخيرة دون أن يفقد مابقى من كرامته واعتباره الذاتي بالانهيار ورفض السفر نهائيا ... وهو قد تحقق الان انه لابد أن يذهب ويرتحل .. ومع ذلك فان مشاعره غدت من الاضطرام والعنف والشقاء الى حد أنه ذهب يقاوم نوازع جنونية لاضرام النار فى الحشائش الطويلة ومراقبة اللهب وهو يدمر المروج التى عرفها حق المعرفة حتى كان كل دغل فيها وكل شجرة بمثابة صديق شخصي .. او ان يهدم البيت الصغير الذى بناه بيديه حجرا حجرا وعاش فيه طوال تلك السنين .. فقد بدا له انه لمن الانتهاك الصارخ ان يصدر احد غيره الاوامر هنا ، وان يزرع غيره تربة المزرعة وربما يدمر عمله الدائب على مدار السنين الطوال ..

اما بصدد مارى ، فان تونى لم يكن يراها الا لماما ... لقد أقلقه حالها ، عندما كان يجد الوقت للتفكير فى المراة الغريبة ، الصامتة الذابلة ، التى بدت وكأنها نسيت الكلام .. ثم كان يبدو منها انها أدركت ان عليها أن تبذل جهدا لذلك ، فكانت تتكلم مدى لحظات قصار ، فيغدو كلامها مبهما غير متماسك ، مما يشعر تونى معه بالحرج والارتباك .. ومع ذلك فقد التمس العذر لهذين الاثنين ، بعد أن فهم ان حياتهما كانت عسيرة ، ولاشك أن الحياة فى هذه البقاع وحدهما طوال تلك السنين كافية لان تجعل منهما شخصين غريبى الاطوار ..

انما الذى حيره فى أحوال مارى هو انها لم تبد مايدل على سرورها بالرحلة الوشيكة التى فهم تونى انها الاولى فى حياتها هنا ، ولا أى استعداد لاعداد ما يلزم لها من حزم أمتعة وما الى ذلك .. بل انها لم تشر قط الى الرحلة ... وكان ديك مثلها فى هذا ...

ومهما يكن فقد حدث قبل اسبوع من موعد السفر ان قال ديك لمارى وهم جلوس اثناء الغداء :

ـ ما رأيك فى تجهيز الحقائب ؟..

فأومأت برأسها بعد تكرار السؤال ، بيد أنها لم ترد ..

فقال ديك برقة ، وبصوته الهادىء اليائس الذى اعتاد ان يخاطبها به :

ـ لا بد أن تجهزى الحقائب يامارى ..

بيد أنه عندما رجع تلك الليلة مع تونى ، وجدها لم تفعل شيئا ... فما كان منه بعد الفراغ من العشاء الا ان انزل الصناديق واخذ يحزم الامتعة بنفسه ... وعندما راته كذلك بدات تساعده ، ولكن لم يمض نصف ساعة حتى تركته فى غرفة النوم ، وذهبت الى الاريكة حيث جلست شاردة الحواس ...

ولم يتمالك تونى ان قال لنفسه وهو يتهيـــأ للذهاب الى فراشه :

ــ انهيار عصبى تام ! ..

وفى الليلة التالية تولى ديك ايضا حزم باقى الامتعة حتى تم كل شيء .. ولما لاحظ ان ملابس مارى قليلة جدا قال لها :

ــ خذى قماشا وجهزى لنفسك فستانا او اثنين ..

فأومأت براسها ، واخرجت من احد الادراج قماشا من القطــن المشجر » وبدأت تفصله ، غير أنهــا مالبثت أن ظلت ســاكنة وهى منحنية فوق القماش ، الى ان لمس ديك كتفها وايقظها من غفوتها لكى تذهب الى الفراش ...

ان تونى الذى شهد هذا الموقف استنكف ان ينظر الى ديك .. لقد أحزنه حال الاثنين معا .. والحقيقة انه شعر بالعطف على ديك وكان فى احساسه هذا صادقا .. اما بصدد مارى ، ففى حين انه اسف من اجلها ، فما الذى يمكن ان يقوله عن امراة لم تــكن « موجودة » ، حاضرة وغائبة فى وقت واحد ؟!.. وقال لنفسه مرة اخرى : « هذه حالة للطبيب النفسانى » .. ذلك وان بدا له ان ديك جدير بمثل هذا العلاج .. فالرجل كان فى حالة انهيار ، وكان يرتعش باستمرار ، وقد سرى الى وجهه نحول شديد حتى بدت العظام من تحت جلده .. وغدا فى الواقع لا يصــلح للعمــل بأى حال ، بيد انه كان يصر على ان يمضى كل لحظة من نهاره فى الحقول ، ولم يكن يحتمل الابتعاد عنها عند الغروب ، حتى كــان تونى يضطر الى اعادته الى البيت ، واصبح عمله الان شبيها بممرض لرجل معتل ، وبدأ يتلهف لرحيل الزوجين ..

وقبل ثلاثة ايام من موعد السفر ، طلب تونى ان يسمح له بالتخلف عن الذهاب الى الحقول بعد ظهر هذا اليوم ، لشعوره بوعكة مقترنة بصداع من تأثير الشمس ، وغثيان فى المعدة .. وقد تخلف ايضا عن وجبة الغداء ، ورقد فى الكوخ .. وفى الساعة الرابعة عصرا

استيقظ من نوم مضطرب ، شاعرا بعطش شديد .. ووجد زجاجة الويسكي القديمة التي كان يملؤها الخادم عادة بماء الشرب فارغة ، ولعل الخادم نسي ان يملأها .. فقصد توني في وهج الشمس المصفر لجلب الماء من البيت ..

كان الباب الخلفي مفتوحا ، فتقدم في سكون خوفا من ايقاظ ماري ، ألتي قيل له انها تنام عصر كل يوم .. وقد تناول كوبا من فوق الرف مسحه بعناية ودخل الى غرفة المعيشة لاخذ الماء .. كان ثمة مرشح زجاجي للمياه قائما فوق الرف الذي كان بمثابة خوان جانبي .. وعندما رفع توني غطاء المرشح ونظر في داخله الفى الطمي عالقا به ، غير ان الماء كان يقطر منه صافيا ، وان كان مذاقه عطنا ... على كل حال فقد شرب مرة وثانية ، وبعد آن ملأ الزجاجة استدار للانصراف ..

حانت منه التفاتة الى ناحية الستار القائم بين هذه الغرفة وغرفة النوم ، فكان مزاحا الى جانب ، واستطاع آن ينظر الى الداخل ...

لقد صعق وجمد في مكانه ذهولا !..

كانت ماري جالسة فوق صندوق أمام المرآة المربعة المسمرة فوق الحائط .. وكانت مرتدية قميص نوم ورديا مبهرجا ، برز منه كتفاها العظميان المصفران بروزا تاما .. وبجانبها وقف موسى ...

وفيما كان توني يراقب مايدور ، نهضت ماري وبسطت ذراعيها وأخذ موسى يلبسها الفستان من خلف ... وعندما عادت الى الجلوس اخذت تسوى شعرها عند العنق بيديها ، بحركات امرأة جميلة مفتونة بجمالها .. وراح موسى « يزرر » لها الفستان وهي تتطلع الى المرآة .. وكان مسلكه كمسلك زوج مفتون بزوجته مطواع لها ... وبعد ان فرغ من « التزرير » تراجع الى الخلف ووقف يراقب المرآة وهي تمشط شعرها ... ثم قالت له بصوت مرتفع تغلب عليه رنة الآمر :

ــ أشكرك ياموسى ...

ثم استدارت ، واضافت بالفة :

ــ يحسن ان تذهب الان .. هذا وقت عودة « الريس » ..

فخرج الرجل من الغرفة ..

وعندما ابصر الشاب واقفا هناك ، يحملق فيه غير مصدق ، تردد هنيهة ، ثم تقدم ومر به خفيف الوطء بقدميه العاريتين ، ولكن بنظرات شزراء شريرة ، حتى لقد شعر تونى من شدتها بالخوف ..

وبعد ان خرج موسى جلس تونى فى مقعد واخذ يجفف العرق الذى غمره من فرط الحرارة ، وهز رأسه لاستجماع جأشه المذهوب .. فان أفكاره كانت تضطرم ، وهو لايكاد يصدق مدلول ماشهدته عيناه ..

وأفاق من ذهوله لدى رؤية مارى خارجة من غرفة النوم ، واحدى يديها لاتزال مرفوعة الى شعرها .. كانت ملامح وجهها تشف عن البهجة ، ممزوجة بالبلاهة .. وما ان شاهدته حتى حملقت فيه بخوف ، ومالبثت ملامحها أن استحالت وئيدا الى الخواء واللامبالاة ...

لم يستطع أن يفهم هذا التبدل المفاجىء فى حالتها ، ولكنه قال ممازحا بلهجة المحرج :

ـ كانت هناك أمبراطورة روسية تستخف بالرقيق من خدمها ، ككائنات بشرية ، الى حد انها اعتادت أن تغير ملابسها وهى عارية امامهم ...

من هذا الجانب فقط كان ينظر الى الموقف .. اما الجانب الاخر فقد صعب عليه مدلوله ..

فقالت اخيرا متشككة ، ناظرة اليه فى حيرة :

ـ هل كان هناك هذا ؟..

فسألها تونى :

ـ هل اعتاد هذا الخادم أن يلبسك ملابسك ويخلعها لك دائما ؟ ...

رفعت مارى راسها بقوة ، وبان المكر فى عينيها ، ثم قالت وهى تهز راسها :

ـ ان عمله هنا قليل .. ولابد ان يكسب نقوده ..

ثم فجأة قالت له :

ـ كانوا يقولون عنى « اننى لست من هذا النوع » !.. لست من هذا النوع ! .. لست من هذا النوع ! ..

فقد رددت العبارة مثل « فونوغراف » توقف عند مقطع واخذ يكرر الكلمات ..

اما تونى فقد سألها وهو عازب الذهن :

ــ « لست من هذا النوع » ؟! ..

والواقع أن تلك العبارة التى كررتها المرأة بلهجة خفية ماكرة ولكن منتصرة ، جعلته يقول لنفسه انها امرأة مجنونة .. بيدانه راجع نفسه مستدركا : لا يمكن ان تكون مجنونة ، لانها لا تتصرف كالمجانين .. انما تتصرف وكأنها تعيش فى دنيا خاصة بها ، لاتحفل فيها بالمعايير السارية لدى غيرها من الناس .. لكن ماهو الجنون ؟. أليس هو الملاذ لمن ينسحبون من دنيا الناس حولهم ؟!.

هكذا فكر تونى المتحير المحزون وهو جالس على الكرسي بجانب مرشح الماء ومازال الكوب والزجاجة بين يديه ، محدقا بقلق فى مارى ، التى انشأت تتكلم بصوت هادىء جعله يغير رأيه مرة اخرى بأنها ليست مجنونة ، أو على الاقل ليست هكذا الآن :

ــ لقد مضت مدة طويلة منذ ان جئت الى هنا .. منذ متى لا استطيع ان اتذكر .. كان يجب ان ارحل منذ مدة طويلة ـ ولااعرف لماذا لم أفعل .. ولا اعرف لماذا جئت .. لكن كل شىء هنا مختلف ... مختلف جدا ..

وتوقفت عن الكلام . وبدت ملامح وجهها مؤثرة .. وغدت عيناها كثقبين مفعمين بالالم .. ومضت تقول :

ــ انا لا اعرف أى شىء .. انا لا افهم شيئا .. لماذا يحدث كل هذا ؟.. لم يكن فى نيتى ان يحدث اى شىء .. لكن لايمكن أن يذهب لا يمكن ان يذهب ! ..

ــ وفجأة احتدمت لهجتها وقالت له بصوت متغير :

ــ لماذا جئت الى هنا ؟ .. كان كل شىء على مايرام قبل مجيئك ! ...

وانفجرت باكية ، واضافت وهى تئن :

ــ لا يمكن ان يذهب ! ..

نهض تونى لكى يتقدم نحوها ، فقد تحول شعوره الآن الى الرثاء لحالها ، ونسى قلقه ... ولكن شيئا جعله يتلفت ، فرأى موسى واقفا بالباب ينظر اليهما معا ، ووجهه ينذر بشر مستطير ..

فقال تونى :

ـ اذهب ! .. اذهب حالا !..

ولف ذراعيه حول كتفي ماري ، اذ الفاها تنكمش ذعرا حتى انشبت أصابعها في لحمه .. وفجأة قالت للخادم من فوق منكبه :

ـ اذهب ! ..

ـ ادرك تونى انها تحاول تأكيد ذاتها ، فقد اتخذت من وجوده هنا درعا كدرع المعركة لكى تسترد السيطرة التى فقدتها .. وكان كلامها مثل كلام طفل يتحدى من هو أكبر منه سنا ..

وقال موسى بهدوء :

ـ « السيدة » تريد منى ان اذهب ؟..

ـ نعم ... اذهب ! ..

ـ « السيدة تريد منى ان اذهب بسبب هذا « الريس » ؟..

لم تكن الكلمات فقط هى التى جعلت تونى ينهض على قدميه ويتقدم نحو الباب ، ولكنها اللهجة التى تفوه بها .. فبادره وهو يكاد يختنق غضبا :

ـ أخرج ! .. اخرج قبل ان اقذف بك ! ..

وبعد نظرة طويلة ، متئدة شريرة ، خرج .. ثم مالبث ان عاد ادراجه ، وخاطب مارى متجاهلا تونى ، قائلا :

ـ « السيدة » سترحل عن هذه المزرعة ؟..

فردت مارى بصوت متخافت :

ـ نعم ..

ـ « السيدة » لن تعود ابدا ؟ ..

فهتفت :

ـ لا ... لا ... لا !..

ـ وهل هذا « الريس » سيذهب ايضا ؟ ..

فصرخت قائلة :

ـ لا .. اذهب ! . .

وعندئذ صاح فيه تونى :

ـ الا تذهب ؟..

ودد تونى فى هذه اللحظة لو يمسك بخناق موسى ويخمد انفاسه لولا انه اختفى .. سمعا خطاه وهو يجتاز المطبخ ، خارجا من الباب الخلفى .. وخلا البيت ..

انشأت ماري تنتحب .. وراحت تهتف قائلة ورأسـها بين ذراعيها :

ـ لقد ذهب !.. ذهب !.. ذهب !..

لقد شف صوتها عن الحالة الهستيرية التي انتابتها .. ثم فجأة دفعت توني عنها ، ووقفت أمامه مثل امرأة مجنونة ، وأخذت تقول بصوت كالفحيح :

ـ انت ابعدته !.. لن يعود ابدا !.. كان كل شيء على مايرام الى آن جئت ! ..

وانهارت في عاصفة من الدموع ..

جلس توني مكانه وذراعه حولها يواسيها ويسري عنها .. لم يكن يخامره الآن سوى هذا السـؤال : « ماذا أقول لتيرنر ؟ » ..

لكن ما الذي كان يستطيع منها ؟. كان الاحجى ان يدع المسألة كلها ويتجاوزها .. آن ديك الان في حالة اقرب الى الخبال بما هو فيه من هم وغم .. ومن القسوة ان يقول له اي شيء .. وعلى اي حال فلن يمضي يومان حتى يكونا قد ارتحلا عن المزرعة ..

واستقر رأيه في النهاية على أن ينتحي بديك ناحية ويقترح عليه فقط ان يعمل على طرد الخادم في الحال ..

غير ان موسى لم يرجع .. لم يشاهد في البيت تلك الليلة .. وسمع توني صوت ديك وهو يسأل اين موسى ، فكان ردها ان قالت انها ابعدته .. واستشف توني من صوتها عدم الاكتراث المطبق ، وبدا له أنها كلمت ديك وهي لا تبصره ..

لم يستطع توني ألا أن يهز كتفيه يأسا ، وقرر الا يفعل شيئا .. وفي صباح اليوم التالي قصد آلى المزرعة كالمعتاد ..

كان هذا هو اليوم الاخير .. وكان امامه عمل كثير ..

الفصل الحادى عشر

استيقظت مارى فجأة ، كأنما وكزها شيء .. كان الوقت لايزال ليلا ، وديك راقد بجانبها .. وكان للنافذة صرير على مفصلاتها ، وعندما نظرت فى فراغها المظلم ، تبينت أنبلاج الفجر ، وسمعت صياح ديكة على البعد ، وان هو الا نصف ساعة ، حتى تشـرق الشمس ...

راحت تتثاءب ، وتتمطى ، وتتفكر .. كانت أوقات يقظتها فى المعتاد مشوبة بالتململ والقلق والعزوف عن مغادرة رحمى الفراش .. أما اليوم فقد شعرت بالسكينة والصفاء وراحة الجسم والعقل معا ... ولم تلبث أن شبكت يديها خلف رأسها فوق الوسـادة وأطلقت لخيالها العنان ، بعيدا عن المزرعة وعن البيت ومن فيه ، وحتى عن الدنيا التى قست عليها وتنكرت لها ..

وبعد فترة بدا لها أنه لابد لها من البكاء ، وفعـلا شـعرت بالدموع تنحدر على خديها ، واستمرت تبكى حتى سرت اليها راحة نفسية ..

وتحرك ديك ثم استيقظ وجلس فجأة ، واحست أنه يدير رأسه يمنة ويسرة فى الظلام ، متسمعا .. فتمددت ساكنة ... وشعرت بيده تلامس خدها خفيفا ، ولكن هذه الملامسة التى كانت أقرب الى الاعتذار ضايقتها ، فأبعدت رأسـها الى الخلف ، فقال لها :

ـ ماذا بك يامارى ؟..

فردت قائلة :

ـ لا شيء ..

ـ هل انت متكدرة لانك ستسافرين ؟..

بدا لها السؤال سخيفا ، ولا صلة له بها على الاطلاق .. ثم انها لا تريد ان تفكر فى ذلك ، الا بشعور الرثاء الذى كأنه لا يعنيها ..

افلا يمكنه أن يدعها تعيش لحظتها القصيرة الاخيرة هذه فى سكينة ؟ وهكذا قالت له :

ـ اكمل نومك .. لم يطلع النهار بعد ...

بدا له صوتها طبيعيا .. وحتى اعراضها عنه كان شيئا معهودا وماكان ليوقظه تماما .. وفى دقيقة عاد الى النوم ، وتمدد كأنه لم يتحرك منذ هنيهة .. لكنها الان لم تستطع أن تنساه .. كانت تعرف انه راقد بجانبها ، وانها تشعر بأطرافه ممددة لصق اطرافها ، فما لبثت أن رفعت نفسها ، يخامرها شعور المرارة حياله ، ذلك الذى لم يدعها ابدا فى سلام .. على الدوام كان هناك ، يذكرها وجوده بما تود أن تنساه لكى يبقى لها كيانها .. وجعلت تتأرجح فى جلستها اماما وخلفا بحركة مبهمة لا واعية ، محاولة أن تعود بفكرها الى ذلك الحيز من ذهنها الذى ليس فيه وجود لديك .. ذلك لانها وصلت الى الحد الذى لامناص فيه من الاختيار بين ديك وبين « الآخر » ، وهذا ديك قد انمحى من حياتها منذ عهد بعيد .. « مسكين ديك » ! .. « مسكين ديك » ! .. هكذا رددت هذه العبارة لاخر مرة ، ولم تعد تفكر فيه بعد ذلك ..

ولم تلبث ان قامت من الفراش ووقفت بجانب النافذة ، حتى احست بحافتها الواطئة تلاصق فخذيها .. لو ارادت ان تنحنى الى الامام ثم الى أسفل ، لاستطاعت أن تلامس الارض التى كانت تمتد حتى نطاق الاشجار .. وفى خلال ذلك غابت النجوم فى السماء ، ولاحت تباشير الصبح ، وان هو الا قليل حتى تشرق الشمس ، فيكون شروقها ايذانا بانتهاء فترة السكينة والصفاء التى نعمت بها فى بواكير هذا الصباح .. والتصقت بحافة النافذة جامدة فى مكانها ، متعلقة ببقايا السعادة التى كانت تغمرها ، والصفو الذى شمل مداركها .. لكن لماذا ، فى هذا الصباح الاخير قد استيقظت بهذه السكينة من نوم هانىء ، وليس كما كان يعرض لها ، من نوم تخالطه الاحلام المفزعة ، التى كانت تمتد الى ساعات من النهار ، حتى كان يبدو لها أحيانا أنه لافاصل بين أهوال الليل واهوال النهار ؟.. لماذا تراها واقفة حيث هى الان ، ترقب مشرق الشمس ، وكأن الدنيا قد خلقت لها من جديد ، يخامرها ذلك الاغتباط الرائع الذى سرى فيها الى الاعماق ؟ .. بل انها من فرط احساسها بالسعادة تركت الغرفة وخرجت الى الشرفة بخفة ريشة

طيرتها الريح .. يالهذا الجمال الذى تجلى فى كل ماحولها ، من سماء تضرجت زرقتها بالحمرة ، واشجار ساجية فى سكونها مثقلة بالاطيار الصادحة !..

ثم لاحت طلائع الشمس ، تلك الشمس المتقدة التى طالما كرهت لظاها .. واذا رأسها ينبض بقوة ، وكتفاها تتألمان .. فاستيقظت فجأة واجالت النظر حواليها ، ملامسة شفتيها اليابستين بلسانها .. الفت نفسها ملتصقة بسور الشرفة الحجرى ، فتراجعت عنه ، وبعد خطى قليلة نظرت من فوق منكبها الى حيث كانت متكئة ، واذا هى تقول بصوت مسموع :

ـ هناك !.. سيحدث هناك !..

فكان لوقع صوتها الساكن ، المتنبىء ، المستطير ، اثر النذير بما يوشك أن يحدث .. ولم تتمالك أن دلفت الى الداخل وهى تضغط على راسها بيديها ، لكى تتحاشى تلك الشرفة المنذرة بالشر ..

الفت ديك قد استيقظ وهو يرتدى بنطلونه لكى يخرج ويقرع الناقوس ايذانا بجمع العمال .. واقترنت دقات الناقوس بانبعاث الفزع فى نفسها .. « هو » واقف فى مكان ما ، يتسمع دقات الناقوس التى تعلن عن اليوم الاخير .. كان بوسعها أن « تراه » بوضوح .. « هو » واقف تحت شجرة فى مكان ما ، مستندا الى جذعها ، ونظراته مسمرة على البيت ، ينتظر .. كانت تعرف هذا تماما .. ثم استدارت قائلة لنفسها : « لكن ليس الان بعد .. لن يكون هذا فى التو » ... لا يزال امامها نهار بطوله ..

قال لها ديك بصوت هادىء متعجل :

ـ البسى ياماري ...

نفذ الصوت الى سمعها بعد تكرار ، فدخلت طائعة الى غرفة النوم واخذت ترتدى ملابسها .. وفى التماسها لمكان الازرار ، توقفت ، وذهبت الى الباب وهى تهم بمناداة موسى ، لكى يلبسها الفستان ، ويناولها الفرشاة ، ويعقد شعرها ، ويحتمل عنها المسئولية حتى لا تحتاج الى التفكير لنفسها .. ومن خلال الستار وقع نظرها على ديك وذلك الشاب جالسين الى المائدة يتناولان وجبة لم تقم هى باعدادها .. ثم تذكرت أن موسى قد ذهب ، فغمرها الارتياح .. لسوف تكون وحدها ، وحدها طوال النهار ..

سيكون بوسعها ان تركز على الشيء الوحيد الباقى الذى غدا يهمها الان ..

ورأت ديك ينهض ، بوجه محزون ، ويجذب الستار الى مكانه ... فأدركت أنها كانت واقفة فى المدخل بملابسها التحتية ، على مشهد من ذلك الشاب .. لقد احمرت خجلا وخزيا ، لكن قبل أن يغالب الاستياء خجلتها ، نسيت ديك ونسيت الشاب ، واتمت ارتداء ملابسها ، وئيداً ، وئيدا ، وبتوقف طويل بين كل حركة — ولماذا التعجل ، أليس النهار كله امامها ؟ .. واخيرا ذهبت الى الخارج ... كانت المائدة قد تناثرت فوقها الاطباق ، ومضى الرجلان الى العمل ...

جمعت الاطباق متمهلة ، وحملتها الى المطبخ ، وملأت الحوض بالماء ، وعندئذ نسيت ماكانت تفعله ..

وقفت جامدة ، مدلاة اليدين فى خمول ، وفكرت فى نفسها : « فى مكان ما فى الخارج بين الاشجار ، « هو » واقف ينتظر » .. وسرعان ماانطلقت فى أرجاء البيت فى ذعر واخذت تغلق الابواب والنوافذ ، ثم ارتمت فى النهاية فوق الاريكة ، مثل ارنب انكمش بين خصلة حشائش ، يراقب كلاب الصيد وهى تقترب .. لكن بدا لها انه لا جدوى الآن منه فى هذا الانتظار ، فأمامها النهار بطوله ، الى أن يحين الليل .. ومرة اخرى ، ولفترة محدودة ، عاد اليها صفاء التفكير ..

راحت تسائل نفسها وهى تضغط بأصابعها على عينيها المغمضتين : لماذا كل مايحدث ؟.. لست افهم !.. لست افهم !..

كان عذابها لا يطاق عندما تخيلت صورتها كما سوف تقع أعينهم عليها : هيكل عظمى لامراة ناعسة ، شوهاء ، مسلوبة الحياة ، بفعل نصل حاد ذريع ! ...

لكن ما الذى فعلته حتى تصل الى هذه النهاية ؟.. لاشيء تم بارادتها .. وخطوة خطوة وصلت الى ماهى فيه الان : امرأة مسلوبة الارادة ، متهاوية الآن فوق اريكة عتيقة بالية ، تنتظر قدوم الليل الذى سيضع حدا لوجودها .. لكن لماذا ؟ .. وفى أى شيء أذنبت ؟..

بعد حين رفعت رأسها وتطلعت حولها .. الفت نفسها جالسة فى غرفة ضيقة يعلوها سقف من الصاج ، والعرق يغمر جسدها

.. كانت الحــرارة لا تطــاق بعد اغلاق النــوافذ والابواب .. هبت واقفة وجرت الى الخارج .. فما فائدة الجلوس هكذا ، لمجــرد الانتظار ، انتظار فتح الباب وقدوم الموت ؟..

خرجت من البيت ركضا عبر التربة الملتهبة لائذة بالاشجار ، بعد ان استحال عليها البقاء حبيسة الجدران .. ومضت الى داخــل الغابة وهى تفكر : سوف أصادفه امامى ، وسينتهى كل شيء !..

واخيرا وقفت مستندة الى جذع شجرة واغمضت عينيها ، وظلت حينا تنتظر .. تنتظر ..

ولما افاقت لنفسها ألفت الشمس قد احاطت بها من كل جانب ، فرفعت يدها تجذب غصنا وارفا تستظل به ، واذا جســم يمرق فجأة مبتعدا .. فندت منها صرخة رعب واندفعت خلال الاشجار والحشائش المتطاولة عائدة الى البقعة المكشوفة امام البيت ، حيث وقفت جامدة ممسكة بحلقها ..

شاهدت عاملا واقفا خارج البيت ، فوضعت يدها على فمها لتكتم صرخة .. ثم تبينت أنه شخص آخر غير موسى ، ممسكا بورقة فى يده .. فاتجهت اليه واخذتها منه ، فكانت بها هذه الكلمات : « لن نرجع للغداء . الاشغال كثيرة ونريد أن نرتب كل شيء . ارسلى الينا شايا وشطائر » ...

فكرت مارى مستاءة : هذا ديك مرة اخرى ، يذكرها بوجوده ... ودخلت الى البيت بالورقة وفتحت النوافذ بحركات غاضبة ... وفى اعياء بالغ أعدت الشاى وملأت به زجاجة ويسكى قديمة وارسلته مع العامل ، ناسية الشطائر تماما ...

لقد خطر لها ان تونى الشاب الوافد شعر بالعطش ، ومن ثم كان طلب الشاى .. وجعلت تفكر فيه وهى مغمضة العينين .. كم كان رفيقا بها ، ولم يندد بمسلكها !.. وفجأة الفت نفسها متعلقة به .. هو أجدر ان ينقذها !.. انها ستنتظر عودته !..

ووقفت فى المدخل تتطلع الى الاشجار والغابة من ورائها .. لابد ان الشاب سيأتى قبل حلول الليل لانقاذها !..

وتقدمت الى الشرفة حيث استندت الى جدارها ووقفت تحدق أمامها لترى مثار الغبار وهو يعلن قدوم السيارة .. لكنهم لايملكون الان سيارة ، فقد بيعت منذ حين !..

عادت الى الداخل حيث جلست متقطعة الانفاس ، مغمضــة

العينين .. وعندما فتحتهما كانت حالة الضوء قد تغيرت واستطالت الظلال أمام البيت ، وسرى في الهواء احساس بقرب انصرام النهار .. لقد استولى عليها النوم .. لقد نامت في يومها الاخير هذا !.. ترى هل جاء « موسى » ودخل الى البيت باحثا عنها ؟..
لقد هبت قائمة في دفق من الشجاعة والتحدى وذهبت الى الغرفة الامامية .... كانت خالية .. لكنها عرفت ، دون ادنى شك ، انه جاء الى هنا وهى نائمة ونظر من خلال النافذة لكى يراها .. ان باب المطبخ مفتوح ، وهذا دليل على ذلك .. وربما كان هذا هو الذى ايقظها : حضوره ، واطلاله من خلال النافذة ، بل ربما مد يده لمحاولة لمسها ؟.. لقد انكمشت وذهبت ترتعد ...

وطال جلوسها فوق الاريكة المتقادمة وهى مشبكة اليدين فى انتظار النهاية ... نهايتها ! .. وبعد اغفاءة طويلة افاقت لتدرك ان ديك كان جالسا الى المائدة تحت مصباح مضاء ، يحدق اليها ...

سمعته يقول لها :

ـ هل اتممت حزم حاجياتك ؟.. تعرفين انه لابد لنا من الارتحال صباح الغد ..

اخذت تضحك ، مرددة : الغد !؟..

وطال ضحكها ، الى أن رأته ينهض فجأة ، ويخرج واضعا يده فوق وجهه ..

بديع ! .. الآن هى وحدها !..

ولكنها فيما بعد راقبت الرجلين يجيئان باطباق وطعام ويأخذان فى الاكل ، جالسين فى مواجهتها .. وقد قدما اليها فنجانا فيه سائل لم تلبث ان رفضته متضجرة ، منتظرة ذهابهما عنها .. الا سينتهى كل شيء عاجلا !.. فى مدى ساعات معدودة سينتهى كل شيء !.. لكنهما لايريدان ان يذهبا عنها .. وبدا انهما جلسا هناك من اجلها .. فذهبت الى الخارج ، فى عمى ، متحسسة طرف الباب بيديها .. بدا كان السماء الغائبة فى الظلمة قد هبطت فوق البيت .. ومن خلفها سمعت صوت ديك يقول كلاما عن مطر ...
فقالت لنفسها : « سوف تمطر ـ بعد ان يحل بى الموت » !

وقال ديك اخيرا من الداخل :

ـ الى النوم ؟..

لم يكن هذا السؤال يمت اليها بسبب .. فقد وقفت في الشرفة حيث كانت تعرف أنه يتعين عليها الانتظار ، ومراقبة الظلام تسمعا لاية حركة ..

ــ تعالى للنوم ياماري !..

رات انه لابد لها قبل اى شيء من الذهاب الى الفراش ، لانهم لن يتركوها وحدها مالم تفعل هذا .. وبحركة آلية أطفأت المصباح في الغرفة الامامية ، وذهبت لايصاد الباب الخلفي .. فقد بدا لها انه من الضروري ان يوصد الباب الخلفي .. شعرت انه لابد ان تكون محمية من الخلف .. والضربة لابد أن تأتي من الامام .. خارج الباب الخلفي كان موسى واقفا .. مواجها لها .. وبدا لها ان هيكله ماثل في بصيص النجوم .. فارتدت الى الخلف وقد تخاذلت ركبتاها ، وأوصدت الباب ..

ــ « هو » في الخارج !..

فاهت بهذا لديك متقطعة الانفاس ، وكأن هذا هو المتوقع والمرتقب ..

ــ من هو ؟!

لم تجب .. فذهب ديك الى الخارج .. واستطاعت أن تسمع حركته ، ورات اشعة المصباح المنقول الذى حمله وهى تتحرك .. ولما عاد قال لها :

ــ لا شيء هناك ياماري ..

فأومأت براسها تصديقا ، وذهبت مرة ثانية لايصاد الباب الخلفي ... الآن كان الظلام حالكا .. وموسى لم يكن موجوداً .. ولابد انه ذهب الى الغابة ، من ناحية الباب الامامي ، لكي ينتظر حتى تظهر .. وعندما عادت الى غرفة النوم توقفت في وسطها ، وكأنها نسيت في اى اتجاه تتحرك ..

قال لها ديك بذلك الصوت اليائس المصابر :

ــ الا تخلعين ملابسك للنوم ؟..

فأطاعت ، وخلعت ملابسها ، ودلفت الى الفراش ، وتمددت وهي يقظى ترهف السمع .. وشعرت به يمد يده لكي يلمسها ، وفي الحال جمدت مكانها .. لكنه كان أبعد مايكون عنها ، ولم يعد يهمها في شيء .. كان مثل شخص قائم لدى الجانب الاخر لجدار زجاجي سميك ..

قال لها :
ــ ماری ؟ ..
فبقيت صامتة ..
ــ ماری .. اصغی الی .. انت مريضة .. لابد ان تدعينی آخذك الی الطبيب ...

بدا لها كأن الذی يكلمها هو الشاب الانجليزی الوافد .. منه صدرت هذه الكلمات ، دليلا علی اعتقاده ببراءتها من الخطيئة ..
قالت بثقة ، مخاطبة الشاب الوافد .
ــ انا مريضة طبعا .. اننی كنت دائما مريضة ، منذ ماوعته الذاكرة .. انا مريضة فی هذا الوضع ..
واشارت الی صدرها .. لكن سرعان مانسيت الشاب الوافد ، ورن صوت ديك فی سمعها كأنه صدی صوت عبر واد سحيق ..
جعلت تنصت الی الليل فی الخارج .. ورويدا اخذ الفزع يستحوذ عليها وهو الذی كانت تعرف انه آت لاريب فيه ولا دافع من دونه ..

ومرة ادارت وجهها فی ظلام الوسادة ، بيد أن عينيها كانتا متوقدتين بالضياء ، ومن خلال الضياء ابصرت هيكلا قائما ينتظر فجلست وهی ترتعد .. هاهو ذا فی الغرفة ، عن كثب منها ... غير ان الغرفة كانت خاوية .. ولا شیء هناك .. وسمعت قصف الرعد ، وأبصرت وميض البرق يتراقص علی الحائط .. ثم بدا لها كأن الليل اخذ يطبق عليها ، وان البيت الصغير يلتوی فوقها مثل شمعة تذوب بالحرارة .. وتردد قصف الرعد مقترنا بصلصلة السقف الصاجی فوق راسها ، وبدا لها كأن جسما ضخما ، مثل عنكبوت بشری ، يزحف فوق السقف ، محاولا النفاذ الی الداخل.. هاهی ذی وحدها .. هاهی ذی عزلاء .. انها حبيسة فی صندوق صغير اسود ، جدرانه تطبق عليها ، وسقفه يهبط فوقها .. انها فی مصيدة ، محاصرة وعاجزة .. لكن لابد لها من الخروج وملاقاته .. هكذا حفزها الخوف علی التسلل من الفراش والسير خطوات حتی بلغت وسط الغرفة حيث توقفت .. ثم دفعتها ومضة برق جديدة الی مزيد من التقدم حتی توقفت مرة اخری فی طيات الستار وشعرت بلمسة الخشن وكأنه جلد حيوان .. فدفعته عنها وتأهبت للفرار عبر ظلام الغرفة الامامية التی امتلأت

بأشباح مهددة متحفزة .. ومرة اخرى شعرت بفراء الحيوانات ، ولكن هذه المرة من تحت قدميها .. وتعلق مخلب قط برى مدلى بقدمها وهى تندفع فوقه حتى لم تتمالك أن بدت منها صيحة خوف محتبسة وهى تنظر من فوق منكبها الى باب المطبخ .. كان موصدا ومظلما .. هاهى ذى الان فى الشرفة .. فتحركت الى الخلف حتى صدها الحائط .. كانت وقفة آمنة تحمى ظهرها ، حيث كان عليها أن تقف وتنتظر .. هكذا انقشع عن عينيها ضباب الرعب ، وامكنها أن تبصر فى وميض البرق كلبى المزرعة الضخمين راقدين مرفوعى الرأسين فى الشرفة ينظران اليها .. وفيما بعد أعمدة الشرفة الثلاثة الرفيعة ، وهياكل زهور الجيرانيوم النامية فى اوعيتها ، لم تستطع أن تبصر شيئا ، الى ان أومض البرق مرة اخرى ، ولاحت رءوس الاشجار فى آفاق سماء ملبدة بالغيوم .. وراحت تضغط بظهرها على الحائط بكل قواها حتى شعرت بوخز أحجاره الخشنة فى لحمها من خلال قميص النوم .. وهزت رأسها لكى يصفو تفكيرها ، وظلت الاشجار ساكنة تنتظر .. وبدا لها انها لو استطاعت ان تركز اهتمامها فى الاشجار فلن تقدر ان تزحف عليها .. وادركت انه لابد لها من تركيز فكرها على ثلاثة اشياء : الاشجار ، حتى لاتندفع اليها على غرة ، والباب الذى بجانبها حيث يمكن ان يجىء ديك منه ، والبرق الذى كان يتدافع ويتراقص مضيئا جحافل السحاب العاصفة .. هكذا رسخت قدميها على الارض الحجرية الخشنة ، مسندة ظهرها الى الحائط ، وقرفصت مكانها محدقة مشـــدودة الاعصاب مرهفة الحواس ، تتلاحق انفاسها فى شهقات صغيرة ..

ثم مالبثت وهى تسمع هزيم الرعد يتجاوب بين الاشجار والبرق يومض خاطفا ، ان ابصرت هيكل رجل يتحرك من ثنايا الظلام ويتقدم نحوها ، صاعدا الدرجات فى صمت ، بينما وقف الكلبان يراقبان بحواس مرهفة هازين ذنبيهما ترحيبا .. ثم توقف موسى على قيد ياردتين ، حتى استطاعت أن تبصر كتفيه الضخمتين ، وشكل رأسه ولمعان عينيه .. فكان مشهده باعثا على تغير عواطفها بصورة غير متوقعة ، ليثير فى كيانها شعورا خارقا بالتأثم ، ولكن فى اتجاهه ذلك الذى تنكرت له وخانته ، منصاعة لامر الشاب الانجليزى ... ولقد أحست وقتها أن ماعليها الا أن تقدم اليه ، شارحة مبينة ، ومستعطفة ، فيذهب عنها الروع ويتلاشى الفزع ...

فتحت فمها لكي تتكلم .. وأنها لكذلك اذ رأت يده ، التى كانت ممسكة بجسم مقوس ،ترتفع الى مافوق رأسها ، وعندئذ ادركت ان ماهمت به قد فات أوانه .. لقد سبق السيف العذل .

في تلك اللحظات الرهيبة مرق ماضيها في غمضة عين ، وانفلتت من فمها المنفرج توسلا ، بداية صرخة كتمتها يد سوداء انحشرت بين فكيها .. غير ان الصرخة استمرت ، في احشائها ، تخنقها خنقا .. ورفعت يديها ، كمخالب ، تدفعه عنها .. واذ ذاك انتقمت الغابة لنفسها ، كما تفكرت .. فقد تدافعت نحوها الاشجار كالوحوش ، وكان الرعد هو رجع الصدى لهجومها .. وفيما انحسر عنها التفكير في النهاية ، متلاشيا من هول الفزع ، لمحت — من فوق الذراع الضخمة التى دفعت راسها بقوة الى الحائط — الذراع الاخرى وهى تهوى عليها .. فارتخت الاطراف من تحتها ، وتواثب البرق من اطواء الظلام ... ثم اغمد النصل الذريع فى الجسد ...

ولما تركها موسى رآها تهوى الى الارض ، فاعتدل فى وقفته ، وأخذ يتبين العالم حوله ..

الفى الكلبين يزمجران عند قدميه ، ولكنهما مازالا يهزان ذيلهما .. ان هذا الرجل كان يطعمهما ويعنى بهما .. أما مارى فكانت تكرههما .. ومالبث موسى أن ردهما الى الخلف برقة ، ماسحا على وجهيهما براحة يده ، فوقفا يراقبانه متحيرين ، نابحين بخفوت ...

لقد بدأ المطر يهطل ، وادركت قطرات كبيرة موسى فى ظهره ، لاذعة قارسة .. وسمع صوت قطرات أخرى جعله ينظر الى المدية التى امسك بها والتى جاء بها من الغابة وكان يشحذها طوال نهاره ... كانت قطرات الدم تنثال على الارض ، ومالبث أن توزعه عاملان متناقضان تجليا فى حركاته التالية .. فالقى أول الامر المدية بحدة على الارض ، كما لو ساوره الخوف .. ثم ما عكم أن تمالك والتقطها من جديد .. وقد رفع المدية الى مافوق سور الشرفة تحت المطر الذى كان ينهمر الان ، ثم سحبها بعد لحظات .. ثم بدا عليه التردد وجعل ينظر حواليه .. ومالبث أن دس المدية فى حزامه ومد يديه تحت المطر ، وبعد تنظيفهما تأهب لكى يمشى تحت المطر عائدا الى كوخه فى المستوطنة ، منتويا ادعاء براءته ..

غير ان هذا العزم تلاشي ايضا ، فقد جذب المدية من حزامه ، ونظر اليها ، ثم طوح بها ببساطة الى جانب ماري ، في لامبالاة مفاجئة ، اذ استحوذ عليه عزم جديد ..

وفي تجاهله لديك الذي ظل يغط في نوم عميق ، والذي لم يعبأ به موسى طوال ذلك واسقطه من حسابه تماما كانسان مدحور منذ عهد بعيد ـ اذا هو يقفز من فوق سور الشرفة ويهبط على قدميه في المطر المنهمر الذي غمره على الاثر .. وسار في اتجاه كوخ الشاب الانجليزي مغرقا في المطر ، وعند الباب وقف ينتظر النظر .. لقد استحال عليه ان يبصر شيئا ، فراح يتسمع مرهفـا اذنيه من خلال وقع المطر ، ولما لم يسمع تنفسا انحنى في المدخل وتقدم بهدوء الى مكان السرير ..

كان غريمه ، ذلك الذي استطاع الان أن يغلبه وينتصر عليـه ، غارقا في النوم ، فتحول عنه باحتقار ومشى عائدا ادراجه الى البيت .. وبدا للوهلة الأولى انه ينوى تجاوز البيت ، غير انه عندما جاء بمحاذاة الشرفة مالبث ان توقف مسندا يده الى السور ينظر من فوقه .. كان الظلام حالكا تتعذر فيه الرؤية .. فجعل ينتظـر وميض البرق لكي يضيىء له ، لاخر مرة ، البيت الصغير ، والشرفة وصورة ماري المكومة على الارض ، والكلبين اللذين كانا يتحركان على غير قرار حولها ومازالا ينبحان نباحا خافتا .. ثم لاح الوميض ممتدا هذه المرة وكأنه انبلاج الفجر ، فكانت هذه لحظة انتصـاره الحاسم ـ هذا الانتصار الشامل الذى انتزع من تفكيره كل نزوع الى الهروب ، وجعله غير مبال بأى شيء ..

وبعد أن عاد الظلام رفع يده عن السور وانشأ يمشي الهوينا في المطر شطر الغابة .. اما ماهية الافكار التي كانت تخامره وتتذاك ، سواء كانت تندما او رثاء أو حتى محبة حابطـة مخيبة يمازجها ارتياحه بما تم له من انتقام ـ فذلك مما يستحيل تقريره على وجه القطع واليقين .. ذلك لانه ما ان قطع ما ينـاهز مائتى ياردة في صميم الغابة المغرقة في المطر حتى توقف ، ثم انثنى الى جـذع شجرة ووقف مستندا اليها ..

وفي موضعه ذاك قرر أن يبقى ، الى آن يجيء مطاردوه ويقبضوا عليه .

تمت

رقم الايداع : ٨٧/٥٧٤٤
الترقيم الدولي : ٢ ـ ٣٢٢ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN



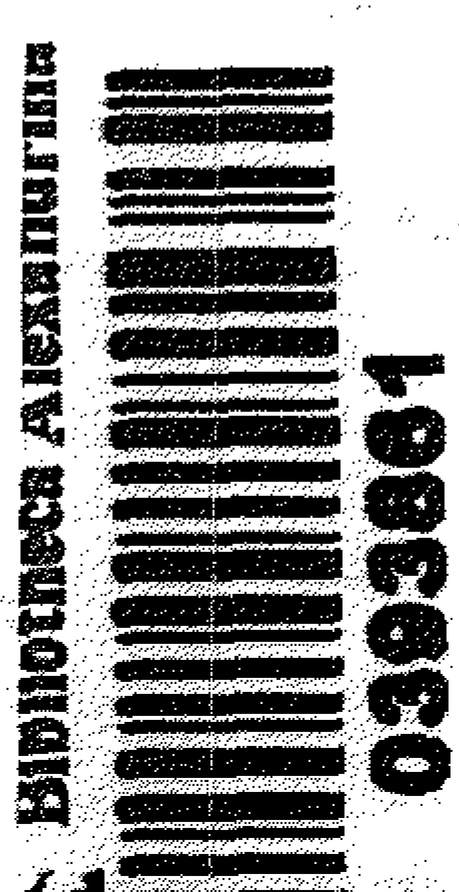
الحشائش تغنى فوق القبور الساكنة .

من هذا البيت الرائع فى قصيدة للشاعر الانجليزى ت . س . اليوت استوحت الكاتبة الانجليزية دوريس ليسنج أحداث روايتها "الحشائش تغنى" التى تترجم لاول مرة الى اللغة العربية . فى ترجمة كاملة رشيقة .

واذا كانت الكاتبة قد استلهمت عنوان الرواية من القصيدة التى قلبت موازين الشعر الانجليزى المعاصر . فانها قد استوحت احداث الرواية من الاحداث السياسية والاجتماعية الدامية التى عاشتها فى جنوب افريقيا .. فمارى تيرنر بطلة هذه الرواية هى شخصية حقيقية عرفتها الكاتبة عن قرب . وعاشت مأساتها . لذا عبرت عنها بكل صدق وحساسية واستطاعت دوريس بهذه الرواية ان تصبح علامة مميزة فى الادب الانجليزى ومن أجلها ترشح فى كل عام لنيل جائزة نوبل .

منذ ثلاثة اعوام ظهرت هذه الرواية فى فيلم سينمائى ضخم قال عنه مخرجه انه كان خائفا دوما من تحويل هذه الرواية الى السينما . لان كل وسائل التعبير السينمائى تقف عاجزة امام براعة دوريس ليس... تصوير هذا العالم العنصرى المتناقض .

الحشائش تغنى .. رواية فريدة فى المتعة التى تحدثها للق...



REWAYATALHILAL
NO. 466 OCTOBER 1987

٧٥ قرشا